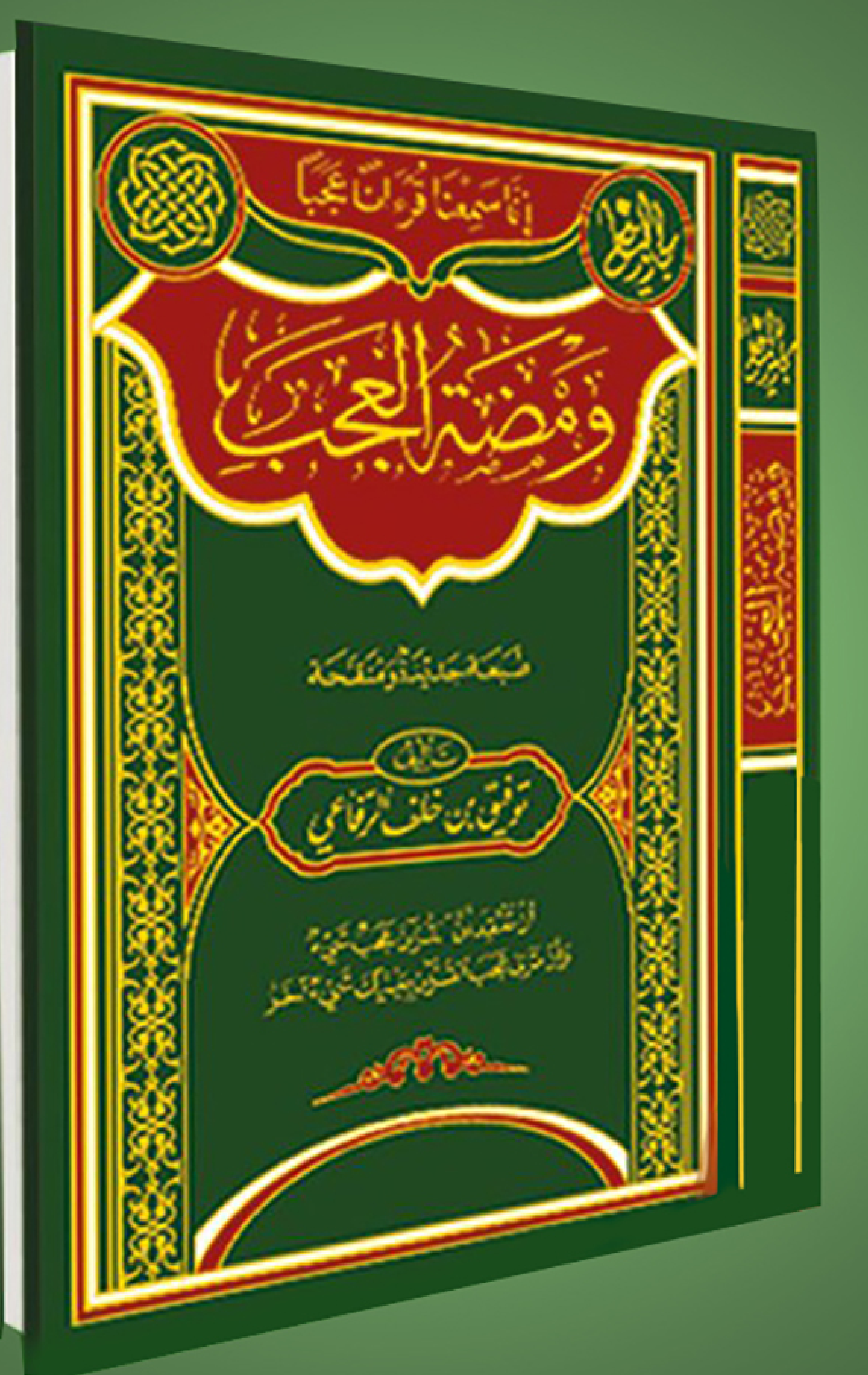

إنا سمعنا قرآنا عجبا
ومضة العجب
طبعة جديدة ومنقحة
تأليف
توفيق بن خلف الرفاعي

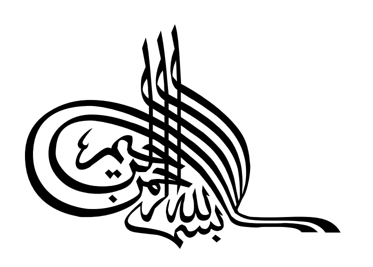
وَمْضَةُ الْعَجَبِ

﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ [الجن: ١]

أَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّ الْقُرْآنَ عَجَبٌ شَيْءٌ...

وَأَنْ تَرَى عَجَبَ الْقُرْآنِ بِعَيْنَيْكَ شَيْءٌ آخَرُ!

تَأْلِيفُ
توفيق بن خلف عبد اللّه الرفاعي



الْمُقَدِّمَةُ
بَارِقَةُ العَجَبِ

بَيْنَمَا قَوَافِلُ القُلُوبِ وَالعُقُولِ تَسِيرُ وَفْقَ طَرِيقِهَا المُمَهَّدِ المَعْلُومِ، تَمْشِي وَرَاءَ العَيْنِ البَاصِرَةِ، أَوِ الأُذُنِ المُنْصِتَةِ الحاضرة.. مِنْ آيةٍ لآيَةٍ، وَمِنْ مَعْنىً لمَعْنىً، مَأْخُوذَةً مَشْدُودَةً، سَائِرَةً طَائِرَةً، غَائِصَةً عَابِرَةً.. **إِذْ وَمَضت وَمْضَةٌ كَانَتْ عَجباً!** لَمْ تَنْتَبِهِ الْقَوَافِلُ لهَا، فَبَقِيَتْ الْقَوَافِلُ عَلَى طَرِيقِهَا سَائِرَةً فِي قِرَاءَتِهَا واسْتِماعِها وَتَدَبُّرِهَا وَتَفْسِيرِهَا.. لأَنَّ الوَمْضَةَ لَمْ تَكُنْ فَوْقَ طَرِيقِ تِلْكَ الْقَوَافِلِ الآهِلِ المُسْتَنِيرِ المُرْتَادِ.. إِنَّمَا كَانَتْ فِي أُفُقٍ آخَرَ، بَيْنَمَا أَشْرَقَ لِصَاحِبِ القَلَمِ مِنْ تِلْكَ الْوَمْضَةِ القُرْآنِيَّةِ شُعَاعٌ، فَأَشْعَلَ بِهِ لِقَلَمِهِ قَبَساً، وَأَنَارَ بِمِدَادِهِ أَسْطُراً وَقِرْطَاساً..

فَإِيَّاكَ - أَيُّهَا القَارِئُ - أَنْ تأْخُذَ العُوْدَ بِوَمْضَتِهِ، فَتَطِيفَنَّ[1]

---

(١) من طيف الخيال، وطاف الخيال يطيف طيفاً ومطافاً، لسان العرب/ مادة: طاف.

لَهُ سَرِيعاً لِدِقَّتِهِ، فَإِنَّكَ لَوْ تَأَمَّلْتَهُ، وَرَفَعْتَهُ، ثُمَّ ضَرَبْتَ بِهِ بُحُورَ الرَّبْطِ بَيْنَ آيَاتِ القُرْآنِ، لشققت وَسَطَهَا طَرِيقاً مُنِيراً يَبَساً، وَلانْكَشَفَ سِرُّ الرَّبْطِ فِي تِلْكَ الوَمْضَةِ القُرْآنِيَّةِ العَجِيبَةِ الَّتِي رُبَّمَا لَمْ يُوقِدْ أَكْثَرَهَا مِنْ قَبْلُ أَحَدُ؛ لَا خَطّاً، وَلَا لَفْظاً، وَلَا هَمْساً..

فَحَذَارِ أَيُّهَا القَارِئُ مِنْ طَيِّ الأَقْبَاسِ طَيّاً سَرِيعاً، فَتَدْفِنَ الأَسْرَارَ بَعْدَ أَنْ رُفِعَتْ لَكَ دَفْناً مُرِيعاً، فَتَقُولَ - مُسْتَعْجِلًا - وَأَنْتَ تَطُوفُ عَلَيْهَا - كَالرِّيْحِ الصِّرِّ -: أَيْنَ السِّرُّ..؟! أَيْنَ الرَّبْطُ..؟! أَيْنَ الجَدِيدُ..؟!

وَمَا عَلِمَ هَذَا - البَعْضُ - أَنَّ فَقْدَ التَّرْكِيزِ عِنْدَه مَعَ العَجَلَةِ وَالاسْتِعْجَالِ، كَفِيلٌ بِحِرْمَانِه فَهْمَ الأَصْلِ الأَعْظَمِ، وَهُوَ القُرْآنُ..

وَمَا مَثَلُ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الوَمْضَاتِ وَمَرَّ عَلَيْهَا مُسْتَعْجِلاً إِلَّا كَمَثَلِ مَنْ قُدِّمَتْ لَهُ شُعْلَةٌ لِيَسْتَضِيءَ أَوْ يَصْطَلِيَ فَاكْتَفَى بِالنَّظَرِ وَالإِعْجَابِ، حَتَّى انْطَفَأَتِ الشُّعْلَةُ، وَذَهَبَ نُورُهَا، وَبَقِيَ هُوَ قَابِعاً فِى ظُلْمَتِهِ، مُرْتَجِفاً فِي وَحْدَتِهِ.

لَا تَحْسَبَنَّ المُرَادَ مِنْ وَمْضَةِ العَجَبِ هُوَ أَنْ تَتَوَقَّفَ عِنْدَ

الإِثَارَةِ وَالعَجَبِ. . !

فَلَيْسَ هَذَا هُوَ غَايَةُ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى. . وَلَا هُوَ غَايَتُنَا مِنْ «وَمْضَةِ العَجَبِ»؛ إِنَّمَا الغَايَةُ أَنْ يَتَنَبَّهَ قَلْبُكَ لِوَمْضَةِ العَجَبِ مَتَى أَشْرَقَتْ لَكَ وَأَنْتَ تَسِيرُ مِنْ بَيْنِ القَارِئِينَ وَالسَّامِعِينَ لآيَاتِ القُرْآنِ العَظِيمِ، حَتَّى يَتَعَوَّدَ قَلْبُكَ لَحْظَهَا مَتَى خَطَفَتْ، وَالاسْتِنَارَةَ بِهَا مَتَى أَبْرَقَتْ، وَالاصْطِلَاءَ مِنْهَا مَتَى اشْتَعَلَتْ، وَإِهْدَاءَ نُورِهَا للنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَصْطَلُونَ.

والغَايةُ أنْ يُرَدِّدَ قَلْبُكَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَرَاهَا تَبْرُقُ: سُبْحَانَ اللَّهِ؛ سُبْحَانَ اللَّهِ؛ هَذِهِ وَمْضَةُ العَجَبِ، فَكَيْفَ بِالْعَجَبِ نَفْسِهِ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ عَجِبَتِ الْجِنُّ فَقَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]؟!

الغَايَةُ مِنَ العَجَبِ هُوَ بُلُوغُ الرُّشْدِ فِي كُلِّ شَيْءٍ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ عَمَّنْ أَصَابَهُمُ العَجَبُ مِنَ القُرْآنِ: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾.

فَإِذَا اسْتَمَرَّ قَلْبُ القَارِئِ عَلَى ذَلِكَ الإِلْحَاظِ فَسَتَزْدَادُ بَصِيرَتُهُ تَفَتُّحاً - بِإِذْنِ اللَّهِ - وَسَيَبْلُغُ بِهِ العَجَبُ مَبْلَغاً عَظِيماً حِينَ يَشْهَدُ - لِأَوَّلِ مَرَّةٍ - الْأَنْوَارَ القُرْآنِيَّةَ تَبْرُقُ

مِنْ كُلِّ مَكَانٍ - إذا قَرَأَ أَوْ قُرِئَ عَلَيْهِ القُرْآنَ -، فَيَعُودُ مِنْ أَنْوَارِهَا - بِإِذْنِ اللَّهِ - بِمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ... بِهِ يَسْتَضِيءُ، وَيَهْتَدِي، وَقَدْ كَانَ يَمُرُّ بِوَادِيهَا طِوَالَ عُمُرِهِ، وَلَمْ يُنَادَ عَلَيْهِ مِنْ شَجَرَتِهَا..

وَلأَنَّهَا وَمْضَةٌ فَهِيَ لا تَسْتَأْذِنُ بِبروقها، وَلَا يُتَوقَّعُ وَقْتُهَا ولَا مَوْضِعُهَا، فَرُبَّمَا كَانَتْ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَرُبَّمَا كَانَتْ مِنْ تِلْكَ، وَرُبَّمَا وَمَضَتْ مِنْ أَوَّلِ القُرْآنِ ثُمَّ وَمَضَتْ مِنْ آخِرِهِ، وَهَكَذَا، فَلَمْ يَكُنْ التَّتَبُّعُ وَالاسْتِقْرَاءُ هُوَ مَنْهَجَنَا فِي جَمْعِ الوَمَضَاتِ... وَلَيْسَ كُلُّ هَذِهِ الوَمَضَاتِ هِيَ كُلُّ مَا عِنْدَنَا فَضْلاً عَنْ أَنْ تَكُونُ هِيَ كُلَّ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ - عِيَاذاً بِاللَّهِ مِنْ هَذَا الظَّنِ - فَهِيَ مُجَرَّدُ تَنْبِيهٍ لِلْعُقُولِ وَإِشَارَةٍ، بَلْ أَرْجُو أَنْ تَكُونَ شَرَارَةً لِبَيَانِ مَا فِي هَذَا البَيَانِ مِنْ عِلْمٍ، وَتَزْكِيَةٍ وَحِكْمَةٍ وَحَيَاةٍ.. وَخِطَابِي - المُعْتَادُ - عِنْدَ كُلِّ وَمْضَةٍ **(عَجِبْتُ)**، أَوْ **(هَلِ الْعَجَبُ مِنْ كَذَا أَمِ الْعَجَبُ مِنْ كَذَا...؟!)**.

فَلَقَدْ عَجِبْتُ - وَاللَّهِ حَقّاً - كُلَّمَا كَانَتْ تَبْرُقُ لِي أَوَّلَ مَا تَبْرُقُ، فَكَانَتْ هَذِهِ الوَرَقَاتُ مِرْآةً عَكَسَتْ ظِلَّ البُرُوقِ القُرْآنِيَّةِ، عَلَّهَا تُشْرِقُ فِي قُلُوبِ قُرَّائِهَا، فَتَتَحَوَّلَ فِي هَذِهِ

الْقُلُوبِ إِلَى نُقَطِ اجْتِذَابٍ لِلأَقْبَاسِ القُرْآنِيَّةِ، ثُمَّ تَتَحَوَّلَ تِلْكَ النُّقَطُ إِلَى سُرُجٍ تَطْبَعُ عَلَى القُلُوبِ الأُخْرَى نِقَاطَ اجْتِذَابِ الأَقْبَاسِ.. فَإِذًا هَذِهِ القُلُوبُ أَوْدِيَةٌ مُبَارَكَةٌ مُنِيرَةٌ لِلْقُلُوبِ البَعِيدَةِ المُصْحِرَةِ المُظْلِمَةِ، آخِذَةٌ كُلَّ أَنْوَارِهَا مِنْ هَذَا القُرْآنِ - وَهُوَ النُّورُ المُبِينُ -، وَمِنَ السِّرَاجِ المُنِيرِ الَّذِي وَصَفَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦] وَهَذِهِ غَايَةٌ أَبْعَدُ.

إِنَّهَا وَمْضَةٌ أَبْرَقَتْ مِنْ سَمَاءِ القُرْآنِ العَظِيمِ تَقُولُ لِقَارِئِهَا: إِيَّاكَ وَظُلْمَةَ الغَفْلَةِ وَأَنْتَ تَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى!

وَمْضَةٌ أَضَاءَتْ فَقَالَتْ: لَا تَيْأَسَنَّ مِنْ عَقْلِكَ، فَمَا أَسْهَلَ أَنْ تَنْقَشِعَ ظُلُمَاتُ القَلْبِ وَالفِكْرِ بِوَمْضَاتِ آيَاتِ القُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ.

وَمْضَةٌ أَنَارَتْ فَنَادَتْ: قَلِيلٌ مِنَ الادِّكَارِ عِنْدَ قِرَاءَةِ القُرْآنِ تَعُودُ بِحِزَمِ النُّورِ، تَمْشِي بِهَا فِي النَّاسِ، فَاسْتَفِدْ **مِنْ مَوْعُودِ اللَّهِ لِمَنِ ادَّكَرَ**: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ١٧].

وَمْضَةٌ تَقُولُ: إِنَّ لِكُلِّ وَمْضَةٍ رِسَالَة. . . فَعَلَى رَغْمِ الْبُعْدِ الَّذِي يَظْهَرُ لِلْقَارِئِ عِنْدَ أَوَّلِ قِرَاءَةِ الْوَمْضَةِ، فَإِنَّ الرِّسَالَةَ الْمُرْدَفَةَ لِكُلِ وَمْضَةٍ تُضِيفُ لِوَمْضَتِهَا بُعْداً أَكْبَرَ، وَمِنْ نَوْعٍ آخَرَ.

لَمْ تَكُنْ «رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ» تَدُورُ فِي خَلَدِي أَوْ خُطَّتِي. . حَتَّى إِذَا مَا انْتَهَيْتُ مِنَ الْوَمْضَةِ نَفْسِهَا وَأَعْطَيْتُهَا بَعْضَ الإِخْوَةِ لِلمُرَاجَعَةِ وَالضَّبْطِ قَبْلَ الطِّبَاعَةِ، قَالَ لِي: لَمْ أَتَمَالَكْ وَأَنَا أَقْرَأُ كُلَّ وَمْضَةٍ إِلَّا أَنْ أُرَدِدَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ، ثُمَّ اسْتَدْرَكَ قَائِلًا: إِنَّ بَعْضَهَا يَحْتَاجُ إِلَى إِيضَاحٍ أَكْثَرَ. عِنْدَهَا قَرَّرْتُ أَنْ أَكْتُبَ عَلَى كُلِّ وَمْضَةٍ رِسَالَةً.

وَرَجَوْتُ اللَّهَ أَنْ تَكُونَ «رِسَالَةُ الوَمْضَةِ» فَتْحاً مِنْ عِنْدِهِ سُبْحَانَهُ، فَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّهُ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ سَيَكْتَمِلُ الانْتِفَاعُ بِالْوَمْضَةِ، فَإِنِّي لمَّا رَأَيْتُ أَنَّ الكَثِيرِينَ سَوْفَ يَتَوَقَّفُونَ عِنْدَ الْوَمْضَةِ مَوْقِفَ الإِعْجَابِ الْمُجَرَّدِ، وَلَيْسَ لِأَجْلِ الإِعْجَابِ أُنْزِلَ الكِتَابُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ ذَلِكَ التَّسْبِيحُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَانْتِبَاهُ الفِكْرِ عِنْدَ كُلِّ قِرَاءَةٍ جَدِيدَةٍ لِلقُرْآنِ

وَكُلِّ اسْتِمَاعٍ، إِلَّا أَنَّ فِي رِسَالَةِ الوَمْضَةِ تَنْصِيصٌ عَلَى مُقْتَضًى عَقْدِيٍّ أَوْ عِلْمِيٍّ أَوْ مَطْلُوبٍ عَمَلِيٍّ مِنَ الآيَةِ، غَفَلَ عَنْهُ جُلُّ الخَلْقِ، وَسَيَشْعُرُ القَارِئُ كَأَنَّ الآيَةَ تُنَادِي عَلَى النَّاسِ بِهَذِهِ الرَّسَائِلِ وَأَمْثَالِهَا مُنْذُ زَمَنٍ وَأَغْلَبُهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . . كَأَنَّهَا تُنَادِي عَلَى القَارِئِينَ وَالسَّامِعِينَ بِعَمَلٍ مُعَيَّنٍ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ، فَتَأْتِي هَذِهِ الرِّسَالَةُ تَفْتَحُ أَسْمَاعَ المُؤْمِنِينَ لِتُبَلِّغَ المَعْنَى وَالعَمَلَ.

كَانَ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ تَكُونَ (رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ) أَضْعَافَ مَا كُتِبَ هُنَا، وَلِكِنِّي مَا أَرَدْتُ لِهَذَا الْكِتَابِ أَنْ يَكْبُرَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا الْحَجْمِ، فَأَقْصَرْتُ، فجاءت وكَأَنَّهَا الإِشَارَاتُ لِمَا حَوَتْهُ بُحُورُ الآيَاتِ الزَّاخِرَاتُ؛ وَهَذَا كَافٍ فِي وُصُولِ الرِّسَالَةِ الَّتِي أَرَدْتُ، فَاللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ . .

رِسَالَةُ الوَمْضَةِ تَقُولُ: كَمْ مِنَ المُخَاطَبِينَ يَقْرَأُ القُرْآنَ وَلَا يَفْهَمُ أَنَّهُ مُخَاطَبٌ بِهِ! كَأَنَّهُ أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، وَلَا يَعْنِينَا، اللَّهُمَّ إِلَّا كَفَهْمٍ أَوْ ثَقَافَةٍ، وَكَصَلَاةٍ وَتَرَاتِيلَ! . . هُنَا وُلِدَتْ مِنْ كُلِّ «وَمْضَةٍ» رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ . . رِسَالَةٌ مِنْ ذَاتِ الآيَةِ، وَمُقْتَضَاهَا الَّذِي لَا يُخَالِفُ فِيهِ أَحَدٌ بِإِذْنِ اللَّهِ،

لَكِنْ لَا يَكَادُ يَنْتَبِهُ لَهُ - فِي مَوْضِعِهِ - أَحَدٌ . .

سَتَجِدُ «رِسَالَةَ الوَمْضَةِ» تَطُولُ أَحيَاناً وَأَحْيَاناً تَقْصُرُ، فَذَلِكَ يَرْجِعُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَسَاساً إِلَى مَا فَتَحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهِ، ثُمَّ إِلَى عَدَمِ الرَّغْبَةِ فِي الإِطَالَةِ إِلَّا بِمَا تَقْتَضِيهِ الرِّسَالَةُ، وَبِطَرِيقٍ مُبَاشِرٍ وَأَحْيَاناً شِبْهِ مُبَاشِرٍ .

كُلُّ مَقْصُودِي أَنْ يَتَجَدَّدَ الفِكْرُ وَهُوَ يَقْرَأُ القُرْآنَ، وَيَتَنَبَّهَ القَلْبُ لِعَظِيمِ مَا غَفَلَ عَنْهُ . . وَيَعُودَ بَعْدَمَا قَرَأَ الوَمْضَةَ وَرِسَالَتَهَا آيِباً، تَائِباً، سَائِلًا اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَهُ عُمْراً جَدِيداً مَدِيداً لِيُعِيدَ مِنْ جَدِيدٍ قِرَاءَةَ القُرْآنِ لِيَسْتَخْرِجَ الْجَدِيدَ بِنَفْسِهِ، وَيَعْمَلَ وَيَحْيَا حَيَاةَ القُرْآنِ . .

لَعَلَّ القَارِئَ بَعْدَ قِرَاءَةِ هَذِهِ الْوَمْضَةِ بِرَسَائِلِهَا يَعْرُجُ إِلَى مَقَامَاتٍ جَدِيدَةٍ تُثْمِرُ يَقِيناً حَاضِراً دَائِماً يَقُولُ لَهُ: إِنَّكَ مُخَاطَبٌ بِهَذَا القُرْآنِ مُبَاشَرَةً، فَلَا تَغْفَلْ . . لَا تَغْفَلْ عَنْ رَسَائِلِ اللَّهِ إِلَيْكَ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ . . لَا تَغْفَلْ عَمَّا تَقْرَأُ، فَإِنَّ مَعَ الفَهْمِ الجَدِيدِ عَمَلاً جَدِيداً قَدْ خُوطِبْتَ بِهِ فَابْحَثْ عَنْهُ . . لَا تَغْفَلْ، فَالْقُرْآنُ كَمَا يُغَذِّيكَ بِالحَيَاةِ فَإِنَّهُ يُعْطِيكَ مَادَّةَ الحَيَاةِ وَعَمَلَ الحَيَاةِ . .

أَيُّهَا المُكَرَّمُ، اتْرُكْ نُورَ الْوَمْضَةِ يَبْرُقُ فِي عَقْلِكَ جَدِيداً، وَيُشْرِقُ فِي قَلْبِكَ إِيمَاناً وَتَجْدِيداً، وَيُجَدِّدُ لك مَعَ القُرْآنِ عَهْداً جَدِيداً . .

توفيق بن خلف الرفاعي



ومضات من سورة يوسف عليه السلام

اسْتِعَانَةٌ باللَّه عَلَى الْوَصْفِ لَا عَلَى العَمَلِ

عَجِبْتُ مِنْ قَوْلِ يَعْقُوبَ بَعْدَمَا أَخْبَرَهُ الأَبْنَاءُ بِأَنَّ الذِّئْبَ أَكَلَ يُوسُفَ، قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] وَلَمْ يَقُلْ: (وَاللَّهُ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)، وَالعَجَبُ: كَيْفَ أَدْرَكَ أَنَّ وَصْفَهُمْ أَخْطَرُ وَأَكْبَرُ مِنْ عَمَلِهِمْ، فَاسْتَعَانَ بِاللَّه عَلَى وَصْفِهِمْ، فَهُمْ بِعَمَلِهِمْ لَمْ يَقْتُلُوهُ، لَكِنَّهُمْ بِوَصْفِهِمْ أَرَادُوا إِيهَامَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَلِكَ، وَلَوْ أَنَّهُ قَالَ: (عَلَى مَا تَعْمَلُونَ) لَكَانَ فِيهِ تَصْدِيقٌ لِكَذِبِهِمْ، فَسُبْحَانَ مَنْ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَقَالَ عَنْهُ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ[١]: ثَمَرَةُ الصَّبْرِ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى:

سُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ يَجْمَعُ اللَّهُ لِلْعَبْدِ الصَّابِرِ حُسْنَ الثَّوَابِ

(١) مع أن رسالة الومضة جزء من الومضة إلا أنني أؤكد على القارئ هنا وعند كل رسالة لا يشغلنك التابع عن الأصل فالأصل الومضة والتابع رسالتها... تذكر هذا عند كل رسالة.

وَحُسْنَ العَاقِبَةِ، وَهُوَ لَا يَدْرِي، وَذَلِكَ بِمُجَرَّدِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى قَدَرِ اللَّهِ وَيَرْضَى بِهِ..

كَلِمَةٌ يَقُولُها الْعَبْدُ عِنْدَ أَوَّلِ الإِخْبَارِ بِالمُصِيبَةِ، فِيهَا الرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، فَيَدَّخِرُ اللَّهُ لِعَبْدِهِ أَجْرَهَا كَمَا يُعَجِّلُ لَهُ فِي الدُّنْيَا ثَمَرَتَها..

وَلَوْ أَنَّ العَبْدَ قَالَ سُخْطاً، أَوْ عَمِلَ سُخْطاً لاجْتَمَعَ عَلَيْهِ الخَسَارَتَانِ؛ خَسَارَةُ الدُّنْيَا، وَخَسَارَةُ الآخِرَةِ.

❊ ❊ ❊

حِمَايَةٌ مِنَ الذِّئَابِ

عَجِبْتُ مِنْ خَوْفِ الأَبِ يَعْقُوبَ عَلَى وَلَدِهِ الصَّغِيرِ يُوسُفَ عليه السلام مِنَ الذِّئَابِ حِينَ طَلَبَهُ الأَبْنَاءُ لِلْخُرُوجِ مَعَهُمْ لِلّعِبِ - كما زعموا -، فَقَالَ لَهُمُ الْأَبُ مُعْتَذِراً: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المِنْطَقَةَ فِيهَا ذِئَابٌ، ثُمَّ عَجِبْتُ مِنْ مَجِيءِ الأَبْنَاءِ بِنَفْسِ العُذْرِ، فَقَالُوا: ﴿أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وَلَوْلَا أَنَّ فِي المَنْطِقَةِ ذِئَاباً مُفْتَرِسَةً لَكَذَّبَهُمْ يَعْقُوبُ فِي زَعْمِهِمْ، فَالْعَجَبُ كَيْفَ أَنَّهُمْ حَمَوْهُ مِنَ الذِّئَابِ حِينَ أَخْفَوْهُ عَنِ الذِّئَابِ فِي الجُبِّ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَلَوْ تَرَكُوهُ لأَكَلَتْهُ الذِّئَابُ الَّتِي تَطُوفُ تِلْكَ الرُّبُوعَ لَيْلًا، وَلَكَانَ فِي ذَلِكَ تَصْدِيقٌ لِمَا ذَكَرُوهُ لِأَبِيهِمْ.

فَسُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ حَفِظَهُ مِنْ مَكْرِهِمْ بِمَكْرِهِمْ!

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]

لَا تَقُلْ هُمُ الَّذِينَ تَخَلَّوا عَنْ فِكْرَةِ قَتْلِهِ - لَكِنْ قل: مَنْ

جَعَلَهُمْ يَتَخَلَّونَ عَنْهَا؟ مَنْ حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُلُوبِهِمُ الَّتِي طَرَحَتْ خِيَارَ قَتْلِهِ؟ مَنْ الَّذِي جَعَلَهُمْ يَخْتَارُونَ مِنْ بَيْنِ الرُّبُوعِ الْمُمْتَدَةِ الوَاسِعَةِ حُفْرَةً لَا تَتَّسِعُ فُوَّهَتُهَا أَكْثَرَ مِنْ بَاعِ رَجُلٍ؟!

وسُبْحَانَ اللَّه! كَيفَ نَقضَ فِكْرَةَ قَتْلِهِ الَّتِي يَبْدُو أَنَّ الإِجْمَاعَ اسْتَقَرَّ عَلَيْهَا بِمَقُولَةِ ذَلِكَ الْقَائِلِ - وَهُوَ مِنْهُمْ -:
﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠] فَتَحوَلَ إِلَى إِجْمَاعٍ فَنُقِضَ إِجْمَاعُهُمُ الأَوَّلُ بِإِجْمَاعٍ مُتَرَاخٍ عَنْهُ ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّۚ﴾ [يوسف: ١٥].

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: وَحِّدِ الرَّجَاءَ:

إِذَا غَابَ الأَبُ وَالأُمُّ عَنِ الصَّغِيرِ، أَوْ غَابَتْ عَنْكَ أَنْتَ الحِرَاسَةُ، وَأَصْبَحْتَ فِي أَرْضٍ مَسْبَعَةٍ، وَشَعرْتَ أَنَّ حَارِسَكَ الذِّئْبُ، وَذَهَبَ نَهَارُكَ وَحَلَّ لَيْلُكَ، وَغَطَّى الظَّلَامُ كُلَّ شَيءٍ مِنْ حَوْلِكَ.. إِلَّا الذِّئَابَ الَّتِي تَرَاكَ وَأَنْتَ لَا تَرَاهَا..! وَكَأَنَّ كُلَّ شَيءٍ مِنْ حَوْلِكَ يُنَادِيكَ:

إِنَّكَ مَأسُورٌ . . . مَكْسُورٌ . . . مَأْكُولٌ . . . مَشْرُوبٌ . . !

إِنَّكَ مَقْطُوعٌ مَقْطُوعٌ . . !

فَإِيَّاكَ أَنْ تَقْطَعَ مِنَ اللَّهِ هُنَاكَ رَجَاءَكَ، فَأَنْتَ - عِنْدَهَا - أَحْوَجُ مَا تَكُونُ لأَنْ تَجْمَعَ كُلَّ رَجَاءٍ فِي كُلِّ أَحَدٍ غَيْرِ اللَّه وَتَجْعَلَهُ فِي اللَّه وَحْدَهُ . . فَلَسوفَ تَتَعَبَّدُ الذِّئَابُ رَبَّهَا بِحِمَايَتِكَ وَرِعَايَتِكَ رَاغِبَةً أَوْ رَاغِمَةً . .

أَنَسِيتَ حِرَاسَةَ الأَسَدِ لِسَفِينَةَ[1] صَاحِبِ رَسُولِ اللَّه ﷺ إِكْرَاماً لِصُحْبَتِهِ ﷺ . . ؟!

* * *

(١) عن ابن المندكر: «أن سفينة مولى رسول اللَّه ﷺ أخطأ الجيش بأرض الروم أو أسر فانطلق هارباً يلتمس الجيش فإذا هو بالأسد. فقال: يا أبا الحارث أنا مولى رسول اللَّه ﷺ كان من أمري كيت وكيت فأقبل الأسد له بصبصة حتى قام إلى جنبه كلما سمع صوتاً أهوى إليه ثم أقبل يمشي إلى جنبه حتى بلغ الجيش ثم رجع الأسد». «مشكاة المصابيح» (٥٩٤٩) وصححه الألباني.

يُوسُفُ أَمِ المَاءُ؟

عَجِبْتُ لِتَقْدِيرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ العَظِيمِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٩]، فَمَا نَزَلَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي البِئْرِ فَتْرَةً - تَطُولُ أَوْ تَقْصُرُ عَلَى اخْتِلافِ الرِّوَايَاتِ - حَتَّى تَأْتِيَ سَيَّارَةٌ ذَاهِبَةٌ إِلَى مِصْرَ تُرِيدُ المَاءَ، فَيَأْتِي مُرْتَادُهَا إِلَى بِئْرٍ مُعْتَادٍ، فَيَجِدَ يُوسُفَ، فَيَأْخُذَهُ لِيَرْكَبَ مَعَهُمْ وَكَأَنَّهُ طَالِبٌ رُكُوبَ القِطَارِ حِينَ يُنْزِلُهُ أَهْلُهُ فِي مَحَطَّةِ الْقِطَارِ لِيَرْكَبَ فِي القِطَارِ القَادِمِ الذَّاهِبِ إِلَى مِصْرَ بِالتَّوْقِيتِ المُحَدَّدِ.

وَالعَجَبُ كَيْفَ صَاحَ هَذَا المُرْتَادُ حِينَ وَجَدَ يُوسُفَ فَقَالَ: ﴿يَٰبُشْرَىٰ﴾ وَصَدَقَ - وَاللَّهِ - بِالبُشْرَى، فَكَيْفَ لَوْ عَلِمَ بِحَقِيقَةِ البُشْرَى؟ فَقَدْ كَانَ يُرِيدُ مَاءً لِقَافِلَةٍ سَيَّارَةٍ فَإِذَا بِهِ يَجِدُ الَّذِي بِهِ تَكُونُ النَّجَاةُ لِمِصْرَ كُلِّهَا عِنْدَ فُقْدَانِ المَاءِ سَبْعَ سِنِينَ..

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: إِنَّ الإِحْيَاءَ بِالرِّجَالِ لَا بِالمَاءِ:

تَقُولُ رِسَالَةُ الوَمْضَةِ: لَا تَظُنُّوا الرِّجَالَ الَّذِينَ يُحْيِي اللَّهُ بِهِمُ البِلَادَ مَحْصُورِينَ فِي نَوْعِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ البَشَرِ، وَلَا فِي طَائِفَةٍ، وَلَا فِي قُصُورٍ أَوْ جَامِعَاتٍ أَوْ مَعَاهِدَ، أَوْ دُوَلٍ مُحَدَّدَةٍ، أَوْ مَا إِلَى ذَلِكَ.. فَهَا هُوَ رَجُلُ التَّغْيِيرِ الأَعْظَمِ فِي مَمَالِكِ مِصْرَ... يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَخْرُجُ مِنَ البَدْوِ، بَلْ مِنَ البِئْرِ.

وَتَقُولُ هَذِهِ الرِّسَالَةُ(١): لَرُبَّمَا يَسْتَخْرِجُ رَجُلَ التَّجْدِيدِ - مَنَ الْبِئْرِ أَوْ مِنَ الْكَهْفِ أَوْ مِنَ الْغَارِ أَوْ مِنَ الْمُهْمَلَاتِ - مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ مِنَ البَشَرِ، وَلَرُبَّمَا يَمْتَهِنُهُ وَيُهِينُهُ مُنْقِذُوهُ وَمُلْتَقِطُوهُ، وَلَرُبَّمَا يُعَامِلُونَهُ مُعَامَلَةَ البِضَاعَةِ، وَلَرُبَّمَا يَجْعَلُونَ ثَمَنَهُ ثَمَنَ أَبْخَسِ بِضَاعَةٍ..!

وَلَرُبَّمَا يَرْعَاهُ مَنْ لَا يَحْفَظُ لَهُ قَدْرَهُ، بَلْ يَجْعَلُهُ عَبْداً أَوْ

---

(١) سوف تجد الومضة بإذن الله تحمل أكثر من رسالة، وتجد الرسالة تحمل أكثر من فائدة وإن حملت عنواناً واحداً، وعادة ما أفصل بين الرسالة والرسالة في الموضوع الواحد بالقول: «رسالة تقول» أو نحوها.

خَادِماً. . . وَلَا يَدْرِي الْمِسْكِينُ أَنَّ هَذَا سَيِّدُهُ! فَمَاذَا يَضُرُّ هَذَا الْإِمَامَ الْقَادِمَ مَا دَامَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّه عَامِرٌ، مَا دَامَ يَرَى تَصْرِيفَ اللَّهِ لِقَدَرِهِ فِيهِ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

رِسَالَةٌ تَقُولُ: حَاوِلْ أَنْ تَتَأَمَّلَ الأَحْدَاثَ بِعَيْنِ القَدَرِ لَا بِعَيْنِ البَشَرِ. . . تَأَمَّلِ الأَحْدَاثَ وَسَتَرَى عَجَائِبَ فِي جَرَيَانِ القَدَرِ عَلَى أَيْدِي البَشَرِ.!

فَهَؤُلَاءِ الإِخْوَةُ يُرِيدُونَ بِهِ كَيْداً فَيَأْخُذُونَهُ مِنَ البَيْتِ إِلَى البِئْرِ. . وَفِعْلُهُمْ هَذَا - فِيمَا قُدرَ - أَنَّهُمْ يُوصِلُونَهُ إِلَى المَحَطَّةِ الَّتِي سَوْفَ يُحْمَلُ مِنْهَا إِلَى أَرْضِ الحُكْمِ. . !

وَالسَّيَّارَةُ تَحْمِلُهُ مِنَ الْبِئْرِ إِلَى مِصْرَ عَبْداً مُلْتَقَطاً لِيُؤخَذَ بِهِ دَرَاهِمُ مَعْدُودَةٌ كَعَبْدٍ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا حَمَلُوهُ لِيُوصِلُوهُ إِلَى القَصْرِ!

وَامْـرَأَةُ الـعَـزِيـزِ تَـقُـولُ: ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ وَمَـا عَـلِمَـتْ هِـيَ وَزَوْجُهَا أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَحْمِلُونَهُ إِلَى المَحَطَّةِ الأَخِيرَةِ لاسْتِلَامِ المُلْكِ. . !

❊ ❊ ❊

أَيُّ الحَالَتَيْنِ خَيْرٌ..؟

عَجَباً، كَمْ رَبَّىٰ اللَّهُ سُبْحَانَهُ يُوسُفَ بَعْدَ ذَاكَ النَّعِيمِ وَالدَّلَالِ بِصُنُوفٍ التَّرْبِيَةِ وَأَنْوَاعِ الْمَوَاقِفِ، فَمِنْ حِجْرِ الْأَبِ إِلَى خَلْوَةِ الْبِئرِ.. وَمِنْ جَمْعَةِ الأُخُوَّةِ إِلَى وَحْشَةِ الخَلْوَةِ، وَمِنْ غُرُفَاتِ القَصْرِ إِلَى غَيَاهِبِ السِّجْنِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الرَّخَاءِ والنِّسَاءِ إِلَى فِتْنَةِ الْمَسَاجِينِ وَشَكَاوَاهُمْ. وَهَكَذَا يَبْقَى مَنْ يُرَاقِبُ الْمَوْقِفَ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَيَنْظُرُ فِي مَآلَاتِ حَالَاتِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا أَنَّ الخَيْرَ لِيُوسُفَ فِي الْحَالَةِ الأُولَى مَعَ أَنَّ الخَيْرَ كَانَ دَائِماً فِي الثَّانِيَةِ، وَكَانَ الفَرَجُ يَعْقُبُهَا، وَكَانَ التَّدَرُّجُ إِلَى مَنْزِلَةٍ أَعْلَى فِي إِثْرِهَا.

فَلْيَظُنَّ العَبْدُ بِرَبِّهِ أَحْسَنَ الظَّنِّ، وَلْيَطْلُبْ مِنْهُ عَظَائِمَ الأَشْيَاءِ، فَاللَّهُ لَا يَعْظُمُهُ شَيءٌ[1]، فهل كَانَ فِي مِصْرَ كُلِّهَا مِنْ يَظُنُّ أَنَّ هَذَا الْفَتَى السَّجِينَ سَيَكُونُ وَزِيراً لِلْمَلِكِ

---

(١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهم اغفر لي إن شئت، ولكن ليعزم المسألة، وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه». رواه مسلم (٢٦٧٩).

ثُمَّ يَكُونُ هُوَ الْمَلِكَ[١]؟! لَكِنَّ اللَّهَ أَمْضَى إِرَادَتَهُ بِتَرْشِيحِ مَلِكِ مِصْرَ لَهُ بَعْدَ لِقَائِهِ . . ؟!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: يُعَلِّمُهُ فِي مُخْتَلَفِ الْمَيَادِينِ لِيُعِدَّهُ لِقِيَادَتِهَا:

سُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ أَعدَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ يُوسُفَ الصِّدِّيقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَرَاحِلِ الْحُكْمِ، وَأَحْوَالِهِ، وَيُعَرِّفُهُ بِالرَّعِيَّةِ وَأَنْوَاعِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، مَرْحَلَةً بَعْدَ مَرْحَلَةٍ، وَنَوْعِيَّةً بَعْدَ نَوْعِيَّةٍ، حَتَّى إِذَا دَعَاهُ المَلِكُ فِي الوَقْتِ المُحَدَّدِ يَكُونُ قَدِ اكْتَمَلَ تَجْرِبَةً ونُضْجاً . . كَمَنْ أَتَمَّ تَعْلِيمَهُ لِيَسْتَلِمَ وَظِيفَتَهُ . .

الْقَافِلَةُ السَّيَّارَةُ أَخَذُوهُ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً، فَكَانَ وَسَطَ البِضَاعَةِ، وَكَانَ كَأَنَّهُ بِضَاعَةٌ! لَكِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ يَكْشِفَ لَهُ أَحْوَالَ الخَلْقِ يَوْمَ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهِ يَوْمٌ يُصْبِحُ فِيهِ إِمَامَهُمْ وَعَزِيزَهُمْ وَمَلِكَهُمْ . . لِيُدْرِكَ أَبْعَادَ المَمْلَكَةِ وَأَنْوَاعَ أَهْلِهَا وَمُشْكِلاتِهِمْ . .

يُرَبِّيهِ فِي بَيْتٍ فِيهِ مِنَ الدَّلَالِ الخَاصِّ بِهِ كَمَا فِيهِ مِنَ الحَسَدِ المُوَجَّهِ إِلَيْهِ، وَيُذِيقُهُ مُشْكِلَاتِ الحَسَدِ وَآثَارَهُ، فَإِنَّ الْحَسَدَ

---

(١) انظر «تفسير الطبري»: تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ وتفسير: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾.

لِرَجُلٍ غَرِيبٍ يَحْكُمُ أَهْلَ مِصْرَ سَيَكُونُ أَشَدَّ وَأَنْكَى..!

يُرَبِّيهِ قَبْلَ المَدِينَةِ فِي البَادِيَةِ: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾.. وَمَا أَصْعَبَ أَنْ يَحْكُمَ أَهْلُ البَادِيَةِ أَهْلَ الحَاضِرَةِ؛ لِئَلَّا يَنْسَى الْبَادِيَةَ حِينَ يَعِيشُ فِي قَلْبِ الْحَاضِرَةِ - الْمَدِينَةِ - كَمَا هُوَ مُعْتَادٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِ الْمُلْكِ؟!

يُرَبِّيهِ فِي القَصْرِ فَيَعْرِفُ خَفَايَا القُصُورِ وَهُوَ بَيْنَ أَهْلِهَا، وَيَطَّلِعُ عَلَى إِدَارَةِ القُصُورِ الخَفِيَّةِ مِنْ نِسَاءِ الحُكُومَةِ أَوِ الحُكُومَةِ النِّسْوِيّة الخَفِيَّةِ: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥] فَلَقَدْ عَرَضَتْهَا بِصِيغَةِ اخْتِيَارٍ، وَلَمْ تَعْرِضْ إِلَّا خِيَاراً وَاحِداً لَهَا فِي خِيَارَيْنِ ضِدَّهُ، إِنَّها إِدَارَةُ الإِدَارَةِ مِنْ نِسَائِهَا! ثُمَّ يُرَبِّيهِ فِي السِّجْنِ، لِيَعْرِفَ مَظْلُومِينَ مِنْ مُخْتَلَفِ الطَّبَقَاتِ، وَكَمَا رَبَّاهُ فِي القُصُورِ مَعَ الكِبَارِ... فَقَدْ رَبَّاهُ مَعَ التُّجَّارِ فِي الأَسْفَارِ...، فَأَدْرَكَ مَا عِنْدَ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الأَسْرَارِ... ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ١٩، ٢٠].

كَمَا يُرَبِّيهِ مَعَ الفُقَرَاءِ: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾

خَادِماً نَادِلًا . . لِيَعْرِف لِهَؤُلَاءِ حَقَّهُمْ حِينَ يَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ وَهُمْ يُبَاشِرُونَهُ، أَوْ يُبَاشِرُونَ خِدمَةَ غَيْرِهِ فِيمَا يَحِلُّ.

يُرَبِّيهِ عَلَى صُنُوفِ الأَخْلَاقِ، يُرَبِّيهِ فِي طُوفَانِ الشَّهْوَةِ وَكَيْدِهَا: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣].

كَمَا يُرَبِّيهِ عَلَى الْوَفَاءِ وَثَمَرَتِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٥ - ٤٧].

يُرَبِّيهِ فِي الدَّعْوَةِ الفَرْدِيَّةِ فِي السِّجْنِ، كَمَا يُرَبِّيهِ فِي الدَّعْوَةِ العَلَنِيَّةِ فِي الوِزَارَةِ وَمِنْ مَوْقِعِ المُلْكِ، هَذَا بِالإِضَافَةِ إِلَى رَعْيِهِ الغَنَمَ مِنْ قَبْلُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيّاً إِلَّا رَعَى الغَنَمَ»(١).

كُلُّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا يُضَافُ إِلَى نَشْأَتِهِ عَلَى الدِّينِ وَالأَصْلِ

---

(١) رواه البخاري (٢١٤٣).

اللَّذَيْنِ اجْتَمَعَا فِيهِ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ﴾ [يوسف: ٣٨].

فَالرِّسَالَةُ تَقُولُ: لَمْ تَكُنْ شَخْصِيَّةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَخْصِيَّةً جَمِيلَةً حَسَّاسَةً وَدِيعَةً نَاعِمَةً فَحَسْب، وُلِدَ وَفِي فَمِهِ مِلْعَقَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، خَلَقَهُ اللَّهُ لِلْجَمَالِ وَالدَّلَالِ وَالْوَزَارَةِ وَالْمُلْكِ، وَانْتَهَى الأَمْرُ بِالمُعْجِزَةِ القَاهِرَةِ لِلْخَلْقِ..!

بَلْ هِيَ الشَّخْصِيَّةُ القَوِيَّةُ القِيَادِيَّةُ المُجَرِّبَةُ الفَذَّةُ... الَّتِي لَا يَنَالُ مِنْ جَمَالِهَا إِلَّا كَمَا يَنَالُ البَشَرُ عَلَى الأَرْضِ حِينَ يَتَطَلَّعُونَ لِلْقَمَرِ فِي لَيْلَةِ البَدْرِ، الشَّخْصِيَّةُ الَّتِي اجْتَمَعَ لَهَا كُلُّ النَّعِيمِ وَقَرَّتْ عَيْنُهَا بِاجْتِمَاعِ الشَّمْلِ فَاشْتَاقَتْ إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى وَأَغْلَى وَأَبْقَى.. هُنَاكَ دَعَا رَبَّهُ ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «اشْتَاقَ إِلَى لِقَاءِ رَبِّهِ، وَأَحَبَّ أَنْ يَلْحَقْ بِهِ وَبِآبَائِهِ، فَدَعَا اللَّهَ أَنْ يَتَوَفَّاهُ وَيُلْحِقَهُ بِهِمْ، وَلَمْ يَسْأَلْ نَبِيٌّ قَطْ المَوْتَ غَيْرَ يُوسُفَ» كَمَا سَيَأْتِي مَعَنَا بَيَانُ أَدِلَّةِ ذَلِكَ.

❊ ❊ ❊

(١) تفسير الطبري (٧/ ٣٠٨) دار الكتب العلمية.

كِتْمَانُ النِّسْوَةِ إِنْ أَرَدْنَ. . !

عَجِبْتُ لِسَتْرِ النِّسَاءِ بَعْضِهِنَّ عَلَى بَعْضٍ، فعِنْدَ التَّحْقِيقِ: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ﴾ لَكِنَّهُنَّ لَمْ يَذْكُرْنَ وَلَوْ بِالإِشَارَةِ عَنِ امْرَأَةِ العَزِيزِ شَيْئاً مَعَ أَنَّهُنَّ اللَّوَاتِي رَمَيْنَهَا صَرَاحَةً بذَلِكَ مِنْ قَبْلُ فَقُلْنَ: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ثُمَّ إِنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ أَعْلَنَتْ مُرَادَهَا الأَسَاسِي أَمَامَهُنَّ: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

وَلَوْلَا أَنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ اعْتَرَفَتْ بِقَوْلِهَا: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١] لَرُبَّمَا لَمْ يَعْرِفْ بِذَلِكَ أَحَدٌ. .، فَمَا أَعْظَمَ كِتْمَانِ النِّسْوَةِ عَلَى بَعْضِهِنَّ إِنْ أَرَدْنَ الكِتْمَانَ؟

أَلَا تَرَى الْمُصِيبَةَ تَحُلُّ بِالْبَيْتِ وَالأَبُ لَا يَعْلَمُ، إِذَا أَرَادَتِ النِّسَاءُ ذَلِكَ؟!

وَهَكَذَا إِذَا أَرَدْنَ فَضِيحَةَ امْرَأَةٍ بَرِيئَةٍ فَإِنَّهُنَّ يَفْضَحْنَهَا وَهِيَ

طَاهِرَةٌ، ثُمَّ إِنَّهُنَّ لَيُخْرِجْنَ السِّرَّ مِنْ خَلْفِ الْأَبْوَابِ الْمُغْلَقَةِ وَالسُّتُرِ الْمُسْدَلَةِ... كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: كَيْفَ يَحْتَاجُ إِلَيْكَ ظَالِمُكَ؟

أَيُّهَا الْمَظْلُومُ، أَخْلِصِ التَّوَجُّهَ لِلَّهِ وَحْدَهُ.. فَوِّضْ أَمْرَكَ إِلَيْهِ مُحْسِناً ظَنَّكَ بِهِ، فَلَرُبَّمَا جَعَلَ ظَالِمَكَ يَحْتَاجُ إِلَى مَنْ حَاجَتُهُ عِنْدَكَ مِمَّنْ هُوَ أَكْبَرُ وَأَقْوَى مِنْهُ، فَيُذِلُّهُ لَكَ بِهِ، وَيَرْفَعُكَ عَلَيْهِ، فَكَمَا جَعَلَ حَاجَةَ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ عِنْدَ الْعَزِيزِ، وَجَعَلَ حَاجَةَ الْعَزِيزِ عِنْدَهَا فَقَدْ جَعَلَ حَاجَةَ الْجَمِيعِ عِنْدَ الْمَلِكِ، وَقَدْ جَعَلَ حَاجَةَ الْمَلِكِ عِنْدَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

تَقُولُ النَّفْسُ مُسْتَيْئِسَةً: سَجَّانِي هُوَ عَزِيزُ مِصْرَ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ فِي الْبِلَادِ أَحَدٌ إِلَّا الْمَلِكُ... فَمَنْ لِي بِالْمَلِكِ وَأَنَا السَّجِينُ؟ مِن أَيْنَ يَعْرِفُنِي، وَمَنْ يُعَرِّفُهُ بِي وَبِحَالِي؟!

يَا هَذَا، قُلْ لِنَفْسِكَ مِنْ صِيَغِ الْاسْتِيئَاسِ مَا شِئْتَ، فَإِنَّ الْجَوَابَ: وَهَلْ كَانَ الْمَلِكُ يَعْرِفُ يُوسُفَ أَوْ يُذْكَرُ لَهُ حِينَ كَانَ يُوسُفُ فِي قَصْرِ الْعَزِيزِ؟

مَنْ عَرَّفَ الْمَلِكَ بِيُوسُفَ؟ مَنْ أَرَاهُ رُؤْيَاهُ فِي مَنَامِهِ؟ مَنْ حَبَّبَ لَهُ لِقَاءَهُ؟ مَنْ زَيَّنَ لَهُ تَوْزِيرَهُ؟ مَنْ سَهَّلَ لَهُ تَنَازُلَهُ عَنْ مُلْكِهِ لأَجْلِهِ(١)..؟ مَنْ سِوَى اللَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ؟!

لَا تَشْغَلْ نَفْسَكَ بِذَلِكَ، فَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَعَلَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُرْسِلَ لَهُ رِسَالَةً فِي يَقَظَةٍ أَوْ مَنَامٍ؛ كَمَا حَصَلَ مَعَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ..

لَا تَشْغَلْ قَلْبَكَ بِمَظْلُومِيَّتِكَ، وَلَا مَتَى تُرفَعُ عَنْكَ، وَاشْغَلْ قَلْبَكَ وَوَقْتَكَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ..

أَلَمْ تَقْرَأْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

* * *

---

(١) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال: كان لفرعون خزائن كثيرة غير الطعام، فأسلم سلطانه كله له، وجعل القضاء إليه أمره، وقضاؤه نافذ.

الروح أم الريح؟

لَا أَدْرِي، هَلِ الْعَجَبُ مِنْ يَعْقُوبَ الَّذِي وَجَدَ رِيحَ يُوسُفَ وَهُوَ فِي فَلَسْطِينَ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤] وَهُوَ فِي مِصْرَ؟! **أَمِ الْعَجَبُ** مِنْ مَعْرِفَةِ يُوسُفَ بِأَنَّ أَبَاهُ سَوْفَ يَرْتَدُّ بَصِيراً إِذَا أُلْقِيَ الْقَمِيصُ عَلَى وَجْهِهِ؟! فَقَالَ مِنْ قَبْلُ: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣]. . ؟!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: مَنْ نَوَى وَقَعَدَ لَيْسَ كَمَنْ نَوَى وَسَعَى وَاجْتَهَدَ:

رِسَالَةٌ تَقُولُ: نَعَمْ، وَجَدَ يَعْقُوبُ رِيحَ يُوسُفَ حِينَ فَصَلَتِ الْعِيرُ(١)، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرْتَدَّ بَصِيراً حَتَّى أُلْقِيَ الْقَمِيصُ عَلَى وَجْهِهِ. . وَكَأَنَّهُ يُقَرِّرُ بِأَنَّهُ: لَيْسَ الْمُخْبَرُ كَالْمُعَايِنِ.

رِسَالَةٌ تَقُولُ: قَالَ يَعْقُوبُ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ بِالْقَمِيصِ، وَلَمْ يَقُلْ: أَجِدُ رِيحَ قَمِيصِ يُوسُفَ. .

---

(١) فصلت العير: أي خرجت من مصر.

فَقِيمَةُ المَلْبُوسِ وَالمَسْكُونِ وَالمَرْكُوبِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ قِيمَةِ صَاحِبِهَا، وَلَابِسِهَا، وَحَامِلِهَا..

وَكَمْ مِنْ قَلَمٍ لَهُ مِنَ الْجَوْدَةِ وَالرَّهَافَةِ وَحُسْنِ الخَطِّ وَقُوَّةِ التَّحَمُّلِ مَا لَهُ.. لَكِنَّ شِرَاكَ النَّعْلِ أَنْفَعُ مِنْهُ؟!

رِسَالَةٌ تَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ..! كَانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَفْسُهُ مُسْتَقِرّاً فِي مِصْرَ وَلَمْ يَشْتَمَّ أَبُوهُ رَائِحَتَهُ، لَكِنَّ الْعِيرَ حِينَ انْفَصَلَتْ عَنْ مِصْرَ وَمَعَهَا القَمِيصُ وَجَدَ رَائِحةَ يُوسُفَ.. هَلْ كَانَ الْأَمْرُ أَمْرَ مَسَافَةٍ قَرُبَتْ أَمْ كَانَ شَيْئاً آخَرَ..؟

كَأَنَّهَا **رِسَالَةٌ تَقُولُ:** مَنْ قَصَدَكَ وَتَوَجَّهَ إِلَيْكَ فَكَأَنَّهُ وَصَلَكَ، وَإِنْ لَمْ يَقْطَعْ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مِنْ مَسَافَاتٍ، فَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِمَقَاصِدِهَا، وَمَنْ نَوَى وَقَعَدَ لَيْسَ كَمَنْ نَوَى وَشَرَعَ، فَهَلْ يَصِحُّ الْقَصْرُ فِي السَّفَرِ إِلَّا بِالنِّيَّةِ مَعَ الشُّرُوعِ فِيهِ؟

رِسَالَةٌ تَقُولُ: خُطُوَاتٌ نَحْوَ المَقْصِدِ وَمَعَكَ شَيْءٌ حَتَّى لَوْ كَانَ قَمِيصاً... خَيْرٌ مِنْ قُعُودٍ وَإِنْ كَانَ يَحْمِلُ صَاحِبُهُ أَكْبَرَ الأَشْيَاءِ..

❊ ❊ ❊

مِنْ أَيْنَ ارْتَدَّ الْبَصَرُ؟

هَلْ عَادَ الْبَصَرُ بِرِيْحِ يُوسُفَ الَّتِي لَا تَزَالُ تَقْتَرِبُ بِاقْتِرَابِ الْقَمِيصِ مِنَ الْوَجْهِ، أَمْ أَنَّ الْقَمِيصَ حِينَ أُلْقِيَ عَلَى الْوَجْهِ فَاسْتَنْشَقَ الرِّيْحَ فَبَلَغَ شِغَافَ قَلْبِهِ فَأَذْهَبَ حُزْنَ الْقَلْبِ فَانْقَشَعَ مَا عَلَى الْبَصَرِ مِنْ غِشَاوَةٍ كَانَتْ فِي أَصْلِهَا مِنَ الْقَلْبِ..؟

وَلِذَا كَانَ التَّعْبِيرُ الْقُرْآنِيُّ الْمُحْكَمُ: ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾، فَأَيْنَ كَانَ الْبَصَرُ كَامِناً حَتَّى ارْتَدَّ وَأَتَى إِلَى عَيْنَيْ يَعْقُوبَ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْقَلْبِ فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْحَقِيقَةِ؟!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: دَوَاءُ الْبَصَرِ:

مَا عُرِفَ الْقَمِيصُ دَوَاءً لِلْعُيُونِ عِنْدَ أَيَّةِ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ، وَلَا عَرَفَ الأَطِبَّاءُ مِثْلَ ذَلِكَ إِطْلَاقاً.

يُجْرِي اللَّهُ تَعَالَى إِرَادَتَهُ بِمَا يَشَاءُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِذَا قَالَ لِشَيْءٍ كُنْ فَيَكُونُ.. فَلْيَبْحَثِ الْخَلْقُ عَنِ اللَّهِ، فَإِنَّ مَنْ وَجَدَ اللَّهَ وَجَدَ كُلَّ شَيْءٍ، وَمَنْ فَقَدَ اللَّهَ فَمَا وَجَدَ شَيئاً..

فَلْنَبْحَثْ فِيمَا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ أَشْيَاءَ وَأَعْيَانٍ وَأَسْماءٍ، وَلْنُدَقِّقِ النَّظَرَ فِي الأَلْفَاظِ القُرْآنِيَّةِ، فَالْيَقِينُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ اللَّهَ مَا ذَكَرَ ذَلِكَ إِلَّا لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ، وَهَا نَحْنُ نَتَتَبَّعُهَا . .

فَهَلْ كَانَ البَصَرُ فِي القَمِيصِ وَحِينَ عَادَ القَمِيصُ عَادَ البَصَرُ؟

أَمْ كَانَ البَصَرُ ذَاهِباً فِي دَاخِلِ النَّفْسِ فَاسْتَخْرَجَهُ القَمِيصُ وَاجْتَذَبَهُ إِلَى العَيْنِ عَنْ طَرِيقِ شَمِّ الأَنْفِ لِرَائِحَةِ عَرَقِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَخَرَجَ مِنَ الدَّاخِلِ إِلَى العَيْنِ، وَلِذَا كَانَ مَطْلَبُ يُوسُفَ هُوَ إِلْقَاءُ القَمِيصِ عَلَى الْوَجْهِ تَحْدِيداً: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾ وَمَا أُلْقِيَ عَلَى الصَّدْرِ، وَلَا أُلْبِسَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ القَمِيصَ . . أَمَا رَأَيْتَ الأُمَّ إِذَا اشْتَاقَتْ لِوَلَدِهَا المُفَارِقِ أَوِ المَيِّتِ كَيْفَ تَأْخُذُ قَمِيصَهُ فَتَضَعَهُ عَلَى وَجْهِهَا ثُمَّ تَشُمُّهُ بِكُلِّ مَا أُوتِيَتْ مِنْ نَفَسٍ، وَكَأَنَّهَا تَمْلأُ صَدْرَهَا مِنْ رَائِحَةِ وَلَدِهَا . . !

أَمْ أَنَّ هَذَا السِّرَّ لَا يَكْتَمِلُ إِلَّا بِإِلْقَاءِ القَمِيصِ إِلْقَاءً مُفَاجِئاً عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى يَعُودَ البَصَرُ سَرِيعاً إِلَى العَيْنِ . .

فَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِتَسْلِيمِهِ القَمِيصَ بِيَدِهِ، وَلَا اسْتِئْذَانِهِ بِهِ، وَمَنْ

يَدْرِي، فَلَعَلَّ عِلْمَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِرِيحِ يُوسُفَ عِلْماً مُجْمَلاً لَا يَدْخُلُ فِيهِ عِلْمُ مَصْدَرِ تِلْكَ الرِّيحِ، وَلَا مَسَافَةِ اقْتِرَابِهَا وَلَا شيءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَكَانَ يُوسُفُ يَعْلَمُ أَنَّ إِلْقَاءَ القَمِيصِ بِشَكْلٍ مُفَاجِئٍ أَمْرٌ فَوْقَ عِلْمِ أَبِيهِ، وَيَسْبِقُ اسْتِعْدَادَهُ.

وَكَمْ مِنْ بِشَارَةٍ عَظِيمَةٍ خَفَّفَ مِنْ عَظَمَتِهَا وَفَرْحَتِهَا التَّهْيِئَةُ لهَا.. فَنُورُ العَيْنِ كَانَ يُوسُفَ، فَلَمَّا ذَهَبَ يُوسُفُ ذَهَبَ نُورُهَا، فَقَالَ: «ابْيَضَّتْ» بِغَيْرِ نُورٍ، وَلَمْ يَقُلْ: «اسْوَدَّتْ».. وَلَمَّا عَادَ النُّورُ عَادَ البَصَرُ، وَلِسَانُ حَالِهِ كَمَا يَقُولُ القَائِلُ:

كُنْتَ السَّوَادَ لِنَاظِرِي فَعَمِيْ عَلَيْكَ النَّاظِرُ
مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلْيَمُتْ فَعَلَيْكَ كُنْتُ أُحَاذِرُ

رِسَالَةٌ تَقُولُ: مَا وَجَدَ يَعْقُوبُ رِيحَ يُوسُفَ حَتَّى فَصَلَتِ الْعِيرُ، بَيْنَمَا عَادَ البَصَرُ حِينَ أُلْقِيَ الْقَمِيصُ عَلَى وَجْهِهِ!

نَعَمْ؛ فَلَمَّا وُجِدَتِ الرِّيحُ بَعْدَ الفِصَالِ مِن مِصْرَ وَصَلَتْ بِإِذْنِ اللَّهِ... فَمَنْ يَشُمُّ مَنْ أَمْتَارٍ عَنْ أَنْفِهِ يَشْتَمُّ مِنْ أَبْعَدِ المَسَافَاتِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَالرِّيحُ الَّتِي تَحْمِلُ الرَّائِحَةَ مِنْ قَرِيبٍ تَحْمِلُهَا بِأَمرِ اللَّهِ مِنْ بَعِيدٍ... وَتَحْفَظُهَا كَمَا هِيَ

بِإِذْنِ رَبِّهَا، أَمَّا البَصَرُ الَّذِي انْقَطَعَ تَمَاماً فَلَمْ يَعُدْ يَرَى . . . وَرُبَّمَا أَصْبَحَتِ العَيْنُ كَقِطْعَةِ جِلْدٍ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا الإِحْسَاسُ، عَادَتْ وَعَادَ البَصَرُ حِينَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ القَمِيصُ فَأَثَارَ بِالمُلَامَسَةِ الإِحْسَاس .

رِسَالَةٌ تَقُولُ: خُذْ مِنَ الأَسْبَابِ مَا تَوَافَرَ لَكَ . . وَاعْلَمْ أَنَّ سَبَبَ كُلِّ شَيءٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ، وَاصْدُقْ مَعَ اللَّه كَصِدْقِ يَعْقُوبَ فِي شَكْوَاهُ الَّذِي قَالَ لِمَنْ ظَنَّ بِيَعْقُوبَ التَّشَكِّي لِسِوَاهُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

وَاجْزِمْ يَقِيناً كَيَقِينِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاقْطَعْ كُلَّ شَكٍّ، وَقُلْ: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾، وَكَمَا أَتَى البَصَرُ يَأْتِي الأَهْلُ: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣].

نَعَمْ يَأْتِي . . . وَقَدْ أَتَى بَصِيراً كَمَا جَزَمَ، وَأَتَى الأَهْلُ كَمَا أَمَرَ . .

* * *

قِصَّةُ القَمِيصِ فِي قميص القِصَّةِ!

عَجِبْتُ مِنَ القَمِيصِ فِي هَذِهِ القِصَّةِ، كَيْفَ كَانَ القَمِيصُ فِي مِحْوَرِيَّةِ القِصَّةِ؟!

كَانَ القَمِيصُ فِي أَوَّلِ القِصَّةِ، وَكَانَ فِي آخِرِهَا، وَكَانَ فِي وَسَطِهَا.

كَانَ القَمِيصُ هُوَ الصَّدْمَةُ الكُبْرَى لِيَعْقُوبَ، وَكَانَ القَمِيصُ هُوَ البِشَارَةُ الكُبْرَى لِيَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فَكَانَ القَمِيصُ فِي كِلْتَا الحَالَتَيْنِ هُوَ قَمِيصُ يُوسُفَ، لَكِنَّهُ فِي المَرَّةِ الأُولَى كَانَ بِدَمٍ كَذِبٍ، وَهُوَ فِي المَرَّةِ الثَّانِيَةِ بِرَائِحَةِ الصِّدْقِ، كَمَا كَانَ القَمِيصُ فِي وَسَطِ القِصَّةِ هُوَ شَاهِدُ الصِّدْقِ عَلَى كَذِبِ امْرَأَةِ العَزِيزِ فَأَصْبَحَ دَلِيلَ بَرَاءَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فَأَيُّ شَاهِدٍ مُرَافِقٍ مِثْلُ هَذَا الشَّاهِدِ المُلاصِقِ؟![1].

---

(١) نبهني بعض الأحبة إلى أن بعض المفسرين قد أشار لهذه الومضة... فما أحببت حذفها من موضعها لما في عرضنا لها هنا أكثر من جديد وجزى اللَّه من تقدم من أهل التفسير خيراً عن أمة القرآن.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: إِذَا وَجَدْتَ الْيَقِينَ وَجَدْتَ كُلَّ مَا تُرِيدَ:

رِسَالَةُ هَذِهِ الْوَمْضَةِ رِسَالَةُ اليَقِينِ المُطْلَقِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ جَلَّ جَلَالُهُ.. وَمَا القَمِيصُ إِلَّا خِرْقَةٌ مِنْ ثِيَابٍ، إِنَّمَا الشَّيءُ يَعْظُمُ بِاليَقِينِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ جَلَّ جَلالُهُ..

وَلَكِنْ: وَأَيْنَ اليَقِينُ فِي القَمِيصِ..؟!

لَقَدْ أَتَى الإِخْوَةُ بِالقَمِيصِ مِنْ غَيْرِ يُوسُفَ، وَجَاؤُوا عَلَيْهِ بِدَمٍ، فَالشَّهَادَةُ اكْتَمَلَتْ وَأَدِلَّتُها ظَاهِرَةٌ، وَعَدَدُ الشُّهَدَاءِ أَكْثَرُ مِنَ المَطْلُوبِ، وَكُلُّهُمْ يُصَدِّقُونَ المُخْبَرَ بِالبُكَاءِ وَالقَسَمِ، لَكِنَّ يَعْقُوبَ عليه السلام رَدَّ كُلَّ ذَلِكَ، وَعِمَادُهُ فِي رَدِّ أَدِلَّتِهِمْ اليَقِينُ بِاللَّهِ، ثم اليَقِينُ بِتَفْسِيرِهِ الرُّؤْيَا، ثُمَّ بِقَرِينَةِ عَدَمِ شَقِّ القَمِيصِ حَتَّى قَالَ يَعقوب: «سُبْحانَ اللَّهِ! مَتى كَانَ الذِئْبُ حَلِيماً كَيِّساً، يَقْتُلُ يُوسُفَ وَلَا يَشُقُّ قَمِيصَهُ».

وَهَكَذَا كَانَ اليَقِينُ عِنْدَ يُوسُفَ حِينَ كَانَ كَيْدُ امْرَأَةِ العَزِيزِ وَلَا شَاهِدَ مَعَهُ أَبداً.. فَكَانَ القَمِيصُ هُوَ الدِّلَالَةُ وَهُوَ الشَّاهِدُ الصَّامِتُ النَّاطِقُ القَاطِعُ، وَالَّذِي حَكَّمَ القَمِيصَ هُوَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِ المَرْأَةِ.. فَهَلْ مِنْ مَضْيَعَةٍ لِلْحَقِّ مِثْلَمَا إِذَا كَانَ خَصْمُكَ أَصْحَابَ القَصْرِ، فَكَيْفَ إِذَا كُنَّ نِسَاءَهُ..؟!

وَكَانَ اليَقِينُ عِنْدَ يُوسُفَ حِينَ أَرْسَلَ القَمِيصَ جَازِماً بِعَوْدَةِ بَصَرِ الْوَالِدِ، وَكَانَ اليَقِينُ عِنْدَ يَعْقوبَ جَازِماً بِرِيحِ يُوسُفَ، وَذَلِكَ مِنَ القَمِيصِ..

وَكَانَ اليَقِينُ بِغَيْرِ قَمِيصٍ مِنْ يَعْقُوبَ حِينَ تَكَالَبَتِ المَصَائِبُ وَلحِقَ الأَخُ الأَصْغَرُ بِيُوسُفَ فِي الضَّيَاعِ، وَتَخَلَّفَ الأَخُ الأَكْبَرُ عَنِ العَوْدَةِ إِلَى أَبِيهِ وَبَلَدِهِ، عِنْدَهَا قَالَ يَعْقُوبُ قَوْلَةَ اليَقِينِ الَّذِي لَا رِيبَةَ مَعَهُ: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] فَكَانَ جَوَابُ اليَقِينِ بِقُدُومِ القَمِيصِ.

رِسَالَةُ القَمِيصِ تَقُولُ: كَمْ يَحْمِلُ القَمِيصُ مِنْ مَعَانِي اسْمِهِ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ، يَقُولُ الزَّمَخْشَرِيُّ: تَقَمَّصَ لِبَاسَ العِزِّ مَعَ أَنَّ العِزَّ شَيْءٌ مَعْنَوِيٌّ لَا يُلْبَسُ... لَقَدْ حَاوَلَ الأَبْنَاءُ تَقَمُّصَ دَوْرِ الْمُحِبِّ لِأَخِيهِمْ فَطَلَبُوه لِلْخُرُوجِ، ثُمَّ عَادُوا مُتَقَمِّصِينَ دورَ البَاكِي عَلَى فَقْدِ أَخِيهِم بِشَهَادَةِ القَمِيصِ... وَجَاءَتْ امرأَةُ العَزِيزِ تَشْكُو يُوسُفَ مُتَقَمِّصَةً

دَوْرَ المُتَعَفِّفَةَ المَطْلُوبَةَ. . . وَكَانَ القَمِيصَ هُوَ مَنْ كَشَفَ ذَاكَ التَّقَمُّصَ.

فَأَيُّ رِسَالَةٍ أَبْلَغُ مِنْ رِسَالَةِ القَمِيصِ وَهِيَ تَحْمِلُ رِسَالَةَ اليَقِينِ. . ؟!

وَأَيُّ رِسَالَةٍ أَبْلَغُ مِنْ رِسَالَةِ اليَقِينِ بِقَمِيصٍ أَوْ بِغَيْرِ قَمِيصٍ. . ؟!

❋ ❋ ❋

تَغْطِيَةُ رِيحِ يُوسُفَ عَلَى كُلِّ رِيحٍ

هَلِ العَجَبُ مِنْ عَدَمِ شَمِّ الجُمُوعِ الَّتِي حَوْلَ يَعْقُوبَ عليه السلام رِيْحَ يُوسُفَ حَتَّى رَأَوْا القَمِيصَ بِأَعْيُنِهِمْ؟ أَمِ العَجَبُ مِنْ أَنَّ يَعْقُوبَ وَجَدَ الرِّيْحَ مُنْذُ أَنْ فَصَلَتِ العِيرُ مِنْ مِصْرَ؟ أَمِ العَجَبُ مِنْ أَنَّ رَوَائِحَ الجُمُوعِ الَّتِي حَوْلَهُ لَمْ تُغَطِّ عَلَى رَائِحَةِ يُوسُفَ عليه السلام بِمَا فِيهَا رَوَائِحُ العِيرِ نَفْسِهَا..؟! فَهَلْ كَانَتْ رِيْحُ الهَوَاءِ العَاصِفِ تَحْمِلُ رِيْحَ يُوسُفَ، أَمْ أَنَّ رِيْحَ يُوسُفَ كَانَتْ أَسْبَقَ مِنْ أَيِّ رِيْحٍ؛ لأَنَّهَا بِمُجَرَّدِ أَنِ فَصَلَتِ العِيرُ وَجَدَهَا يَعْقُوبُ عليه السلام ..؟

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: الْيَقِينُ هُوَ مِفْتَاحُ النَّجَاةِ وَحَبْلُ الْوِصَالِ:

عَبَقُ رِيحِ يُوسُفَ البَعِيدِ غَطَّى كُلَّ رِيحٍ حَوْلَ يَعْقُوبَ حَتَّى قَالَ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ﴾ مُؤَكِّداً جَازِماً عَلَى رَغْمِ انْعِدَامِ الدَّلَائِلِ المَنْطِقِيَّةِ وَالشَّوَاهِدِ المَرْئِيَّةِ، كَيْفَ وَهُوَ الَّذِي أَصْبَحَ لَا يَرَى، بَلْ.. وَبَيْنَهُمَا مِنَ الْبُعْدِ - الزَّمَانِيِّ وَالمَكَانِيِّ - مَالَا يَبْقَى مَعَهُ أَيُّ أَثَرٍ. كَيْفَ.. وَكَيْفَ.. وَكَيْفَ..؟

كَـيْـفَ. . وَقَـدْ قَـالَ لَهُ مَـنْ يَـرَى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾. . ؟!

أَهِـيَ رِيـحٌ مِـنْ نَـوْعٍ خَـاصٍّ. . أَمْ أَنَّـهُ إِدْرَاكٌ مِـنْ نَـوْعٍ خَاصٍّ. . كَمَعْرِفَةِ الأُمِّ صَوْتَ بُكَاءِ صَغِيرِهَا مِنْ بَيْنِ زَحْمَةِ أَصْوَاتِ بُكَاءِ الأَطْفَالِ وَصُرَاخِهِمْ؟

أَمْ أَنَّهُ صِدْقُ الْتِقَاءِ الإِرَادَتَيْنِ نَحْوَ بَعْضِهِمَا؛ يَعْقُوبُ فِي تَطَلُّبِ وَلَدِهِ يُوسُفَ، وَيُوسُفُ نَحْوَ أَبِيهِ، فَالأَوَّلُ قَالَ: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وَالثَّانِي قَالَ مِنْ قَبْلِهِ جَازِماً لإِخْوَتِهِ: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣].

فَحِينَ تَحَوَّلَتْ إِرَادَةُ الأَبِ إِلَى عَمَلٍ فِعْلِيٍّ فِي البَحْثِ فَقَالَ: ﴿ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟﴾.

وَحِـينَ تَـحَـوَّلَتْ إِرَادَةُ الابْـنِ إِلَى عَـمَـلٍ فِـعْـلِيٍّ فَـقَـالَ:

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾ فَكَانَ مِنَ اللَّهِ التَّوْفِيقُ لِلِّقَاءِ وَالعَوْدَةِ حِينَ اجْتَمَعَتِ الإِرَادَتَانِ.

وَكَمْ يُضْنِي الرَّجُلَ التَّفْكِيرُ بَحْثاً عَنْ شَيءٍ افْتَقَدَهُ، مَعَ تَفْكِيرِهِ بِكُلِّ احْتِمَالٍ، ثُمَّ هُوَ لَا يَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلاً..

وَمَا أَنْ يُحَوِّلَ تَفْكِيرَهُ إِلَى إِرَادَةٍ وَيُحَوِّلَ إِرَادَتَهُ إِلَى عَمَلٍ وَبَحْثٍ حَتَّى يَجِدَهُ - بِإِذْنِ اللَّهِ -.. بَلْ.. يَجِدُ مَا هُوَ أَحْسَنَ مِنْهُ، وَأَبْعَدَ عَهْداً، وَأَعْظَمَ أَمَلاً..

وَصَدَقَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِذَ قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

***

وَمْضَةُ السِّرِ فِي القِصَّةِ بِوَمْضَةِ الْعِلْمِ المَوْهُوبِ

عَجِبْتُ كَيْفَ اتَّبَعَ يَعْقُوبُ نَفْسَ القَاعِدَةِ فِي حَالَتَيْنِ مُتَمَاثِلَتَيْنِ، لَكِنَّهُ أَصَابَ فِي الأُولَى، وَأَخْطَأَ فِي الثَّانِيَةِ، فَحِينَ كَادَ الأَبْنَاءُ بِيُوسُفَ وَرَجَعُوا وَكَذَبُوا، وَقَالُوا: أَكَلَهُ الذِّئْبُ قَالَ لَهُمْ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨] وَحِينَ ذَهَبُوا بِأَخِيهِمْ الآخر (بِنْيَامِين) وَرَجَعُوا بِدُونِهِ وَاعْتَذَرُوا وَصَدَقُوا، قَالَ لَهُمْ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾! عَجِبْتُ كَيْفَ يُعْرَفُ العَمَلُ فِي لَحْنِ القَوْلِ، فَلَمَّا كَذَبُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ قَالُوا: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ وَلَمَّا صَدَقُوا فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ قَالُوا: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ وَمَعَ هَذَا فَاتَ يَعْقُوبُ ذَلِكَ.. فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا الَّذِي فَرَّقَ النَّتِيجَةَ عَنْ النَّتِيجَةِ مَعَ تَوَحُدِ المُقَدِّمَاتِ؟

رِسَالَةُ الوَمْضَةِ: يَبْقَى سِرُّ هَذِهِ المَسْأَلَةِ النِّهَائِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨].

وَكَمِ ازْدَادَ عَجَبِي حِينَ أَدْرَكْتُ الْجَوَابَ!

فَحِينَ تَأَمَّلْتُ القَصَصَ القُرآنِي وَجَدْتُ الْعَجَبَ فِيمَنْ رَفَعَ اللَّهُ مَقَامَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ فِي الْقُرْآنِ.. نَعَمْ لَقَدْ وَجَدْتُ القَاسِمَ المُشْتَرَكَ بَيْنَهُمْ: أَلَّا وهُوَ «العِلْمُ المَوْهُوبُ»، الَّذِي يَهَبُ اللَّهُ شَيْئاً مِنْهُ لِعَبْدِهِ فَيُصْبِحُ هَذَا الجُزْءُ مِنَ العِلْمِ، أَوْ هَذِهِ الذَّرَّةُ مِنَ العِلْم هِيَ الفَارِقَ مَا بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَبيْنَ غَيْرِهِمْ مِنَ الخَلْقِ...، فَلَا غَرَابَةَ إِذاً أَنْ يَكُونَ مَا بَيْنَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَيْنَ مَنْ حَوْلَهُ فُرُوقَاتٌ وَعِلْمٌ بِالرَّائِحَةِ أَوِ الرُّؤْيَا أَوْ غَيْرِهَا..

فَلَقَدْ تَميَّزَ آدَمُ عَنِ المَلَائِكَةِ بِمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فَقَالَ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].

وَأَدْرَكَ المَلَائِكَةُ السِّرَّ فَرَكَّزُوا عَلَى الْعِلْمِ، وعَزَوْا عَجْزَهُمْ عَنْ مَعْرِفَةِ الْأَسْمَاءِ لِعَدَمِ الْعِلْمِ، فَقَالُوا: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

وَقَدْ كَانَ العِلْمُ هُوَ الفَارِقَ بَيْنَ الخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ

ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وَكَانَ ذَلِكَ العِلْمُ المَخْصُوصُ هُوَ غَايَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّتِي جَعَلَتْهُ لَمْ يُطِقْ صَبْراً عَلَى غَايَتِهِ الَّتِي جَاءَ لَهَا، فَقَالَ فِي أَوَّلِ الرِّحْلَةِ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

وَكَانَ مِنْ عِلْمِ الخَضِرِ أَنْ أَدْرَكَ ضَعْفَ صَبْرِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ أَنْ يَصْحَبَهُ عَلَى هَذَا العِلْمِ، فَقَالَ: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧، ٦٨].

وَكَانَ هَذَا العِلْمُ المَخْصُوصُ هُوَ سِرَّ فَارِقِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ غَيْرِهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ عَنْهُ: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١] وَقَالَ عَنْهُ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وَقَدْ كَانَ الْعِلْمُ أَعْظَمَ أَسْرَارِ تَمَيُّزِ سُلَيْمَانَ الَّذِي قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦].

كَمَا كَانَ الْعِلْمُ هُوَ السِرَّ العَظِيمَ مِنْ أَسْرَارِ تَمَيُّزِ المُصْطَفَى ﷺ إِذْ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

فَلَا غَرَابَةَ إِذاً، وَيَعْقُوبُ نَفْسُهُ يَقُولُ لَهُمْ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ عَنْهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨].

هَلْ عَرَفْتَ الآنَ بُعْدَ التَّعْقِيبِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ عَلَى قِصَّةِ سُلَيْمَانَ الَّذِي آتَاهُ مِنَ العُلُوم مَا آتَاهُ حِينَ قَالَ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١].

هَذَا مَنْ فُتِحَتْ لَهُ فِي العِلْم وَمْضَةٌ أَوْ أَقَلُّ، فَسُبْحَانَ مَنْ قَالَ عَنْ نَفْسِهِ: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١].

❊ ❊ ❊

أَيُّ عَدْلٍ هَذَا؟!

عَجِبْتُ مِنْ دِقَّةِ عَدْلِ هَذَا المَلِكِ! كَيْفَ أَصْبَحَ الفَتَى السَّجِينُ الَّذِي أَطْلَقَ سَرَاحَهُ وَاحِداً مِنَ الْخَاصَّةِ، وَكَيْفَ وَصَلَ إِلَى هَذَا المَكَانِ وَقَدْ كَانَ مِنْ قَبْلُ سَجِيناً؟

وَعَجِبْتُ مِنْ عَدْلِهِ كَيْفَ بَعَثَ لِيُوسُفَ السَّجِينِ سَائِلاً مُسْتَفْسِراً؟!

وَعَجِبْتُ كَيْفَ بَلَغَ عَدْلُهُ هَذَا المَبْلَغ حَتَّى يَسْتَشِيرَ هَذَا السَّجِينَ فِي أَمْرِهِ وَهُوَ الْمَلِكِ، بَلْ وَيَأْخُذُ بِمَشُورَتِهِ؟! وَعَجِبْتُ كَيْفَ حَقَّقَ الْمَلِكُ فِي مَسْأَلَة السَّجِينِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ أَنَّ المَسْأَلَةَ فِي عِرْضِ أَهَمِّ شَخْصِيَّةٍ فِي القَصْرِ بَعْدَهُ؟! وَعَجِبْتُ كَيْفَ أَرْسَلَ لِيُوسُفَ ولَمْ يُكْرِهْهُ عَلَى الحُضُورِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَرَكَهُ بِحُرِّيَّتِهِ، وَلَبَّى لَهُ طَلَبَهُ فِي التَّحْقِيقِ مَعَ النِّسْوَةِ كَمَا ثَبَتَ أَوَّلاً؟! وَكَيْفَ رَفَعَهُ بِاسْتِشَارَتِهِ؟! وَرَفَعَهُ لِرِئَاسَةِ وَزَارَتِهِ؟! ثُمَّ سَلَّمَهُ شَأْنَ مَمْلَكَتِهِ؟

وَعَجِبْتُ لِعَدْلِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ

مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

فَلَوْ لَمْ يُنْسِهِ الشَّيْطَانُ، وَذَكَرَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، مَا كَانَ لِيَلْبَثَ فِي السِّجْنِ تِلْكَ السِّنِينَ..

وَعَجِبْتُ لِعَدْلِهِ كَيْفَ لَمْ يَسْتَطِعْ يُوسُفُ أَنْ يَأْخُذَ أَخَاهُ فِي حُكْمِ المَلِكِ لِمَا فِيهِ مِنْ إِحْكَامِ العَدْلِ، إِلَّا بِمَخْرَجٍ حَسَنٍ تَخَطَّىٰ بِهِ قَانُونَ المَلِكِ.. كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: حُسْنُ عَاقِبَةِ الْعَدْلِ

كَمْ فِي السِّجْنِ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ المَلِكُ سَبَبَ سِجْنِهِمْ؟ بَلْ.. لَا يَعْرِفُ أَنَّهُمْ فِي السِّجْنِ؟

وَكَمْ فِي السِّجْنِ مِنْ ضَحَايَا الحَاشِيَةِ؟

وَكَمْ يُظْلَمُ المَلِكُ بِتَحْمِيلِهِ كُلَّ شَيْءٍ؟

وَكَمْ يَتَحَمَّلُ المَلِكُ مِنْ مَصَائِبَ وَآثَام وَمَظَالِمَ لَا بِسَبَبِ مَا يُبَاشِرُهُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ بِسَبَبِ اخْتِيَارِهِ البِطَانَةَ السَّيِّئَةَ..؟!

رِسَالَةٌ تَقُولُ: إِنَّ العَدْلَ وَالصِّدْقَ كَفِيلَانِ أَنْ يَأْتِيَا - بِإِذْنِ اللَّهِ - بِالخَيْرِ لِصَاحِبِهِمَا، كَمَا أَتَيَا بِالخَيْرِ إِلَى ذَلِكَ المَلِكِ العَادِلِ، وَأَيُّ خَيْرٍ أَكْبَرُ مِنَ الجَنَّةِ؟

وَهَلْ جَاءَتِ الْجَنَّةُ لِهَذَا المَلِكِ لِمُجَرَّدِ عَدْلِهِ.. لَا، وَلَكِنَّهَا جَاءَتْهُ بَعْدَمَا آمَنَ بِيُوسُفَ وَاتَّبَعَهُ، كَمَا جَاءَتْ نِعْمَةُ الهِدَايَةِ لِذَاكَ النَّجَاشِيِّ العَادِلِ الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالحَبَشَةِ؛ فَإِنَّ فِيهَا مَلِكاً لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ»[1].

وَهِيَ رِسَالَةٌ تَقُولُ لِلدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ: عَلَيْكُمْ بِدَعْوَةِ أَهْلِ العَدْلِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ فِي كُلِّ الْبِلَادِ حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ بِلَاداً أَصْلِيَّةَ الْكُفْرِ.. فَإِنَّ مَنْ عَدَلَ فِي حُكْمِهِ مَعَ النَّاسِ فَسَوْفَ يَعْدِلُ فِي الحُكْمِ مَعَ نَفْسِهِ، وَمَنْ ذَبَّ الظُّلْمَ عَنِ النَّاسِ لَنْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ إِذَا عَرَفَ الحَقَّ، وَأَعْظَمُ الظُّلْمِ الشِّرْكُ..

وَرَبُّنَا يَقُولُ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

---

(١) «مسند أحمد بن حنبل»، بلفظ: «لو خرجتم إلى الحبشة؛ فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحدٌ، وهي أرض صدق حتى يجعل اللَّه لكم فرجاً» انظر «السلسلة الصحيحة» (٣١٩٠).

وَلَعَلَّ مِنَ الإِحْسَانِ الرَّبَّانِيِّ لِلمَلِكِ العَادِلِ أَنْ يُدْرِكَهُ فَضْلُ اللَّهِ فَيَرْحَمَهُ؛ إِذْ رَحِمَ هُوَ بِعَدْلِهِ خَلْقَهُ، وَفِي هَذَا تَصْدِيقٌ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[1].

وَهَلْ مِنْ رَحْمَةٍ أَعْظَمُ مِنَ الهِدَايَةِ وَالجَنَّةِ..؟!

وَهَلْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى بَلْقِيسَ بِهِدَايَتِهِ وَبِرَحْمَتِهِ إِلَّا بَعَدْلِهَا فِي رَعِيَّتِهَا وَرَحْمَتِهَا وَمَشُورَتِهَا لَهُمْ..؟!

أَمَّا الظَّالِمُونَ فَهُمْ أَبْعَدُ مَا يَكُونُونَ عَنِ الهِدَايَةِ..

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

* * *

(١) «سنن الترمذي»، باب: ما جاء في رحمة الناس.

مَلِكٌ حَتَّى فِي رُؤْيَاهُ!

عَجِبْتُ لِرُؤْيَا المَلِكِ وَإِصْرَارِهِ عَلَى تَعْبِيرِهَا: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

عَجِبْتُ لأَهَمِّيَّةِ العِلْم عَلَى وَجْهِ العُمُوم، وَأَهَمِّيَّةِ عِلْم يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِتَعْبِيرِ رُؤْيَا الْمَلِكِ عَلَى مَصِيرِ أَهْلِ مِصْرَ عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ، وَاسْتِكْشَافِ مُسْتَقْبَلِهَا.

أَرَأَيْتَ كَيْفَ اهْتَمَّ المَلِكُ بِهَذِهِ الرُّؤْيَا حَتَّى تَطَلَّبَ تَفْسِيرَهَا ابْتِدَاءً بِبِطَانَةِ الْقَصْرِ، وَانْتِهَاءً بِنُزُلَاءِ السِّجْنِ؟

عَجِبْتُ لإِرْسَالِ اللَّهِ تَعَالَى رَسَائِلَهُ الَّتِي يُرِيدُ بِهَا تَغْيِيرَ مَا يَشَاءُ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ بِرُؤْيَا المَنَام..؟!

وَعَجِبْتُ كَيْفَ رَأَى المَلِكُ كُلَّ تَفَاصِيلِ الرُّؤْيَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرَ فِيهَا يُوسُفَ، وَلَا مَا يُشِيرُ إِلَى شَخْصِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَعَ أَنَّهُ عُنْصُرُ التَّغْيِيرِ الأَسَاسُ مِنَ الجَدْبِ إِلَى الخَصْبِ، وَمِنَ

المَوَاتِ إِلَى الحَيَاةِ وَالإِحْيَاءِ، وَوَارِثِ عَرْشِهِ وَمُلْكِهِ!

لَكِنَّ العَجَبَ كَيْفَ سَيَّرَ اللَّهُ الأَحْدَاثَ شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّى كُشِفَ سِرُّ الرُّؤْيَا بِمَجِيءِ مُعَبِّرِهَا نَفْسِهِ لِيُصْبِحَ هُوَ مِحْورَهَا، وَمِفْتَاحَ الخَلَاصِ وَعُرْوَةَ النَّجَاةِ..؟

عَجِبْتُ كَيْفَ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ مُعَبِّرُ الرُّؤْيَا - لَمْ يَذْكُرْ نَفْسَهُ فِي تَغْيِيرِ شَأْنِ مِصْرَ حِينَ عُرِضَتْ عَلَيْهِ الرُّؤْيَا وَهُوَ فِي السِّجْنِ.. أَمِنَ المَعْقُولِ أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ ذَلِكَ..؟! هَذَا بَعِيدٌ؛ وَخُصُوصاً وَعِنْدَهُ الرُّؤْيَا الأُولَى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، كيف وَهُوَ القَائِلُ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠١].

وَإِذَا عَرَفَ وَلَمْ يُخْبِرْ فَذَلِكَ عَجَبٌ كَذَلِكَ، لَكِنَّهُ ادَّخَرَهُ لِيَوْمِ أَنْ قَالَ: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

أَما إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذِكْرٌ أَوْ إِشَارَةٌ فِي الرُّؤْيَا، وَبِنَاءً عَلَيْهِ لَمْ يَذْكُرْ نَفْسَهُ..، فَذَلِكَ عَائِدٌ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَهُوَ دَلِيلُ

صِدْقِ يُوسُفَ؛ إِذْ لَمْ يُقْحِمْ نَفْسَهُ فِي رُؤْيَا لَيْسَ لَهُ فِيهَا ذِكْرٌ. . فَحَيْثُ مَا قَلَّبْتَ الرُّؤْيَا دَلَّتْ عَلَى عَجَبٍ.

رِسَالَةُ الوَمْضَةِ: تَقْدِيرُ الْمَلَكَاتِ

سُبْحَانَ اللَّهِ، كَيْفَ أُعِدَّ هَذَا الْوَلِيدُ الصَّغِيرُ - مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ - لِلمُلْكِ بِعِلْمِ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ؟

فَسُبْحَانَ مَنْ أَلْهَمَهُ هَذَا العِلْمَ لِتَكُونَ الرُّؤْيَا هِيَ الحَلْقَةَ المُفْضِيَةَ إِلَى حُكْمِ مِصْرَ!

مَنْ كَانَ يَتَصَوَّرُ أَنَّ مِفْتَاحَ ذَاكَ الْمُلْكِ الكَبِيرِ عِنْدَ هَذَا الصَّغِيرِ بتعبيرِالرُّؤْيَا؟

مَنْ كَانَ يَشْتَرِي هَذَا العِلْمَ بِفِلْسٍ. . لَكِنَّهُ أَصْبَحَ ثَمَنَ المُلْكِ كُلِّهِ!

رِسَالَةٌ تَقُولُ: تَقْدِيرُ المَلَكَاتِ، وَعَدَمُ احْتِقَارِهَا، مَا دَامَتْ فِي إِطَارِ المَلَكَاتِ النَّافِعَةِ. . رُبَّمَا تَكُونُ فِي فَتْرَةٍ، وَيَكُونُ النَّاسُ أَزْهَدَ مَا يَكُونُون فِيهَا، فَيَأْتِي زَمَانٌ آخَرُ تُصْبِحُ تِلْكَ المَلَكَةُ هِيَ الْكَنْزَ المَفْقُودَ. .

لَيْسَ صَحِيحاً أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَفَوَّقْ فِي كُلِّ العُلُومِ أَوْ فِي

الشَّهَادَةِ العَامَّةِ وَنَحْوِهَا لَا يَمْلِكُ مَلَكَةً. . ، فَلَرُبَّمَا يَكُونُ مُدَرِّساً وَلَكِنَّهُ لَا يَمْلِكُ مِنَ المَلَكَاتِ إِلَّا العُمُومَاتِ، بِيْنَمَا مِنْ طُلَّابِهِ أَصْحَابُ مَلَكَاتٍ خَارِقَةٍ. . دَقِّقْ فِي نَفْسِكَ أَوْ وَلَدِكَ وَطُلَّابِكَ فستَرَى ثَمَّةَ مَلَكَاتٍ وَأَنْتَ طِيلَةَ عُمُرِكَ تَظُنُّهَا غَيْرَ مَوْجُودَةٍ؛ لأَنَّكَ مَخْدُوعٌ بِمَوَازِينِ النَّاسِ المُعْتَادَةِ. . ، فَالمَلَكَاتُ لَا تُقَدَّرُ بِثَمَنٍ، وَأَصْحَابُ المَلَكَاتِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَمَكَانٍ هُمْ أَصْحَابُ مَفَاتِيحِ التَّغْيِيرِ. وَسَوْفَ تَكْتَشِف أَنَّهُ بِقَدْرِ مَا يَظْهَرُ أَنَّ هَذِهِ المَلَكَاتُ خَفِيَّةً فَهِيَ ظَاهِرَةٌ جَلِيَّةٌ.

❊ ❊ ❊

الرُّؤْيَا فِي كُلِّ مَرَاحِلِ يُوسُفَ

سُبْحَانَ مَنْ جعَلَ بِدَايَةَ شَأْنِ يُوسُفَ رؤُيَا، وَجعَلَ مِفْتَاحَ عَوْدَةِ يُوسُفَ إِلَى الْقَصْرِ بِالرُّؤْيَتَينِ اللَّتَيْنِ رَآهُمَا السَّجِينَانِ، وَجَعَلَ الرُّؤْيَا - فِي آخِرِ الأَمْرِ - بِدَايَةَ عُلُوِّهِ عَلَى عَرْشِ مِصْرَ، وَجمْعَتِهِ مَعَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَإِخْوَتِهِ..

وَعَجِبْتُ لِلرُّؤْيَا كَيْفَ كَانَتْ سَبَباً فِي تَغْيِيرِ مَوَازِينَ القُوَى مِنْ سَاحَةِ اللَّاشُعُورِ إِلَى سَاحَةِ المَعْرَكَةِ الأُولَى وَالأَعْظم فِي تَارِيخ الْإِسْلَامِ، بَلْ فِي التَّارِيخ كُلِّهِ -غَزْوَة بَدْرٍ-: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣].

وَعَجِبْتُ لِلرُّؤْيَا كَيْفَ كَانَتْ أَوَّلَ رِسَالَةٍ تَصِلُ مُبَشِّرَةً بِأَعْظَم الفُتُوح قَبْلَ وُقُوعِهِ بِسَنَةٍ[1]: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ

(١) فتح مكة.

ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

وَعَجِبْتُ لِلْرُؤْيَا كَيْفَ كَانَتْ أَعْظَمَ خَبَرٍ بِأَعْظَم فَرَجٍ لِأَعْظَم هِجْرَةٍ فِي التَّارِيخ كُلِهُ؛ حَيثُ سَبَقَتِ الْهِجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ. . . يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ، وَهُمَا الْحَرَّتَانِ»[1] فَإِذَا بِهَا الْمَدِينَة.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: أَحْسِنْ قِرَاءَةَ رَسَائِلِ اللَّهِ:

إِنَّهَا رِسَالَةٌ تَقُولُ: إِيَّاكَ أَنْ يُرْسِلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَكَ رَسَائِلَ عِدَّةً فَتُهْمِلُهَا! أَحْسِنْ قِرَاءَتَهَا، وَدَقِّقْ فِيهَا. . فَسُبْحَانَ اللَّهِ! كَمْ كَانَ لِلْرُّؤْيَا عَلَى مَرِّ التَّارِيخ مِنْ دِلَالَاتٍ عَلَى خَيْرٍ عَظِيم، أَوْ ذَنْبٍ مُلَازِم، أَوْ حَقٍّ مَنْسِيٍّ لَازِمٍ. . أَمَّا هُنَا فَإِنَّ الرُّؤْيَا تُغَيِّرُ مَجْرَى التَّارِيخِ. .

سُبْحَانَ اللَّهِ المَلِكِ الحَقِّ المُبِينِ! كَيْفَ يَجعَلُ اللَّهُ التَّغْيِيرَ مِنْ عَالَم المَنَام إِلَى وَاقِعِ الأَنَام، وَالْعَكْسُ بِالْعَكْسِ؟! فَعِنْدَهُ سُبْحَانَهُ هَذَا كَهَذَا، سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ، فَلَرُبَّمَا هَبَّتْ رِيَاحُ التَّغْيِيرِ

(١) «صحيح البخاري»، باب جوار أبي بكر.

مِنَ النَّوْمِ إِلَى اليَقَظَةِ، فَيُغَيِّرُ اللَّهُ الْوَاقِعَ كَأَنَّهُ رُؤْيَا مَنَامٍ بِرُؤْيَا مَنَامٍ، كَمَا يُغَيِّرُ رُؤْيَا المَنَامِ - وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ - وَكَمَا قَالَ بَعْدَ رُؤْيَا غَزْوَةِ بَدْرٍ: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨٢].

فَمَنْ صَدَقَ مَعَ اللَّهِ فِي سِرِّهِ وَعَلَنِهِ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ مَا يَشَاءُ مِنْ رُسُلِهِ وَرَسَائِلِهِ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا المُؤْمِنِ تَكْذِبُ، وَأَصْدَقُهُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُهُمْ حَدِيثاً، وَالرُّؤْيَا جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ»(١) . . .

* * *

(١) «صحيح ابن حبان» (٦٠٤٠).

قُوَّةٌ فِي الاخْتِبَارِ وَدِقَّةٌ في الاخْتِيَارِ

عَجِبْتُ لِامْرَاةِ العَزِيزِ كَمْ كَانَ لِإِيتَائِهَا نِسَاءَ المَدِينَةِ سَكَاكِينَ مِنْ دِقَّةٍ فِي الاخْتِيَارِ، وَقُوَّةٍ فِي الاخْتِبَارِ؟!

فَإِنَّ أَعْظَمَ مَا يَكُونُ الإِنْسَانُ حَذراً فِيمَا يَخُصُّ نَفْسَهُ، وَأَعْظَمَ النَّاسِ حَذَاقَةً فِي اسْتِخْدَام السِّكِّينِ هُنَّ النِّسَاءُ، فَإِذَا ذَهَلَتِ النِّسَاءُ عَنْ أَنْفُسِهِنَّ وقَطَّعْنَ بِالسِّكِّينِ أَيْدِيَهُنَّ مِنْ نَظْرَةٍ لِطَلْعَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَيْهِنَّ طَلَعَهَا يُوسُفُ، فَإِنَّهُنَّ لَنْ يَسْتَطِعْنَ بَعْدَهَا أَنْ يُعَاتِبْنَ مَنْ كَانَتْ تَعِيشُ مَعَهُ فِي نَفْسِ البَيْتِ لَيْلَهَا وَنَهَارَهَا.

وَأَمَّا دِقَّةُ الاخْتِيَارِ فَإِنَّها إِشَارَاتٌ تَقُولُ لَكُنَّ أَيَّتُهَا المُقَطِّعَاتُ أَيْدِيكُنَّ: إِنَّ تَقْطِيعَ السِّكِّينِ فِي الجَوْفِ أَعْظَمُ إِيْلَاماً مِنْ تَقْطِيعِ السِّكِّينِ لِلظَّاهِرِ، فَهَلْ يَحِقُّ لِمَنْ لَمْ تَشْعُرْ بِتَقْطِيعِ السِّكِّينِ فِي يَدِهَا أَنْ تَعْتِبَ عَلَى مَنْ تُوَاجِهُ كُلَّ وَقْتٍ طَعْنَ السَّكَاكِينِ فِي قَلْبِهَا؟!

وَلِذَا فَإِنَّ امْرَأَةَ العَزِيزِ أَعْلَنَتْ مِنْ فَوْرِهَا بَعْدَ هذَا الاخْتِبَارِ

ذِي الجُرُوحِ النَّازِفَةِ وَالأَيْدِي المُقَطَّعَةِ عَلَى مَسْمَعِ النِّسَاءِ وَمَسْمَعِ يُوسُفَ كَذَلِكَ قَائِلَةً فِيهِ: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: الحزم يبطل كيد النساء:

إِنَّ الخَلْوَةَ بِالنَّارِ المُشْتَعِلَةِ لَيْلًا خَطَرٌ عَلَى الحَيَاةِ..؛ فَالشَّهْوَةُ نَارٌ، فَلَا يَنَامَنَّ الرَّجُلُ أَوِ المَرْأَةُ وَسَبَبُ الشَّهْوَةِ مَعَهُ فِي بَيْتِهِ، أَوْ فِي قَصْرِهِ، أَوْ فِي مَكْمَنِهِ، أَوْ فِي مَكْتَبِهِ، أَوْ خَيْمَتِهِ، أَوْ مَرْكَبَتِهِ ...، اقْطَعْ أَسْبَابَ الحَرَامِ، وَأَبْعِدْهَا عنْ مَوْقِعِكَ، فَسَوْفَ تُبْعِدُهَا عَنْ قَلْبِكَ.

أَيْنَ ذَهَبَتْ شَهْوَةُ امْرَأَةِ العَزِيزِ حِينَ ذَهَبَ يُوسُفُ إِلَى السِّجْنِ؟

لَوِ افْتَرَضْنَا افْتِرَاضاً - حَاشَا لِلَّهِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ - أَنَّ يُوسُفَ مَالَ قَلِيلًا وَجَامَلَهَا وَلَاطَفَهَا، وَرَضِيَ بِالخَلْوَةِ وَلَمْ يَفِرَّ، وَخَضَعَ لِلتَّغْلِيقِ وَلَمْ يَهْرُبْ، وَخَافَ جَوَّ القَصْرِ وَخَضَعَ..، أَكَانَ سَيَكُونُ لَهُ هَذَا الذِّكْرُ فِي أَعْظَمِ كِتَابٍ لِأَعْظَمِ أُمَّةٍ جَاءَتْ بَعْدَهُ؟

فَالرِّسَالَةُ تَقُولُ: إِيَّاكَ يَا صَاحِبَ العِلْمِ وَالدَّعْوَةِ أَنْ تَخْضَعَ لِلابْتِزَازِ، أَوْ تُغْلَبَ بِالاسْتِحْيَاءِ، وَاحْذَرْ.. ؛ فَإِنَّ سُقُوطَ مَنْ بَلَغَ القِمَّةَ لَيْسَ كَسُقُوطِ مَنْ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ، وَمُشَاهَدَةَ النَّاسِ لِسُقُوطِ مَنِ ارْتَفَعَ عَالِياً أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ مِنْ عَلٍ، وَفَضِيحَتُهُ لَيْسَ كَفَضِيحَةِ سُقُوطِ مَنْ كَانَ كَمِثْلِهِمْ.

مَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ الرِّسَالَةَ رَأَى كَيْفَ أَنَّ البَعْضَ عَلَى طُولِ قِرَاءَتِهِ لِسُورَةِ يُوسُفَ وَالَّتِي مِحْوَرُها يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَفْهَمْ بَعْدُ شَخْصِيَّةَ يُوسُفَ!

فَبِنَاءً عَلَى دَلَالِهِ فِي صِغَرِهِ، وَجَمَالِهِ البَاهِرِ ظَنَّ أَكْثَرُ الْقُرَّاءِ أَنَّ تِلْكَ هِيَ الصِّفَاتُ الغَالِبَةُ عَلَيْهِ. لَكِنِّي - وَاللَّهِ - عَجِبْتُ لِحِكْمَةِ اللَّهِ فِي حِرَاسَتِهِ لِهَذَا الجَمَالِ وَالدَّلَالِ بِطَبْعٍ جَعَلَهُ فِي يُوسُفَ نَفْسِهِ؛ فَقَدْ مَنَحَهُ اللَّهُ شَخْصِيَّةً قَوِيَّةً فِي غَايَةِ القُوَّةِ، وَاثِقَةً تَمَامَ الثِّقَةِ. وَبِذَا كَانَ التَّكَامُلُ العَجِيبُ فِي هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ..

تَأَمَّلْ قُوَّةَ شَخْصِيَّتِهِ فِي صِغَرِهِ وَهُوَ يَقُولُ فِي ثِقَةٍ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

تَأَمَّلْ قُوَّةَ الشَّخْصِيَّةِ عِنْدَ اكْتِمَالِ أَشُدِّهِ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

تَأَمَّلْ وَقْفَتَهُ فِي خَلْوَةِ امْرَأَةِ العَزِيزِ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَۖ﴾ وَحِينَ جَاءَ زَوْجُهَا: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ﴾.

تَأَمَّلْ شَخْصِيَّتَهُ فِي اجْتِمَاعِ النِّسْوَةِ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

تَأَمَّلْ شَخْصِيَّتَهُ المَرْجِعِيَّةَ فِي السِّجْنِ: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

تَأَمَّلْ شَخْصِيَّتَهُ الشُّجَاعَةَ الَّتِي لَا تَهَابُ مَلِكاً وَلَا غَيْرَهُ: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

تَأَمَّلْ شَخْصِيَّتَهُ المُتَأَنِّيَةَ، الْوَاثِقَةَ المُلْتَزِمَةَ بِحَقِّهَا فِي وَجْهِ

أَكْبَرِ الرُّؤُوسِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

تَأَمَّلْ شَخْصِيَّتَهُ المِقْدَامَةَ حِينَ قَالَ لِلمَلِكِ عِنْدَ لِقَائِهِ: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

تَأَمَّلْ، وَتَأَمَّلْ، وَتَأَمَّلْ، تَرَى مِنْ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ القُوَّةَ العَجِيبَةَ مِمَّا أَخْفَاهُ سِحْرُ جَمَالِهَا.

* * *

لِمَ لَمْ يَأْخُذْ يعقوب لِأَجْلِ يُوسُفَ عليهما السلام مَوْثِقاً؟

عَجِبْتُ مِنْ يَعْقُوبَ عليه السلام وَهُوَ النَّبِيُّ العَارِفُ بِحَسَدِ أَبْنَائِهِ لأَخِيهِمْ يُوسُفَ كَيْفَ لَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ حِينَ أَرْسَلَ مَعَهُمْ حَبِيبَهُ الأَبَرَّ يُوسُفَ مَعَ أَنَّهُ يَعْرِفُ حَسَدَهُمْ لَهُ: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾، بَيْنَمَا أَخَذَ الْعَهْدَ عَلَيْهِمْ حِينَ أَرْسَلَ مَعْهُمُ الحَبِيبَ الثَّانِي «بِنْيَامِينَ»[1]؟ وَلَعَلَّ الجَوَابَ وَاضِحٌ وَهُوَ أَنَّ المَوْثِقَ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ جَاءَ بَعْدَ مَا صَنَعُوهُ بِيُوسُفَ، وَأَنَّ الذَّهَابَ بِيُوسُفَ كَانَ فِي مَلاَعِبَ وَمَرَاتِعَ قَرِيبَةٍ، وَكَانَ الأَمْرُ الثَّانِي سَفَراً لِبِلاَدٍ أُخْرَى، وَلَعَلَّهُ جَاءَ فِي المَرَّةِ الثَّانِيَةِ مِنْ بَابِ أَنَّ المُؤْمِنَ لَا يُلْدَغُ مِنْ أَمْرٍ مَرَّتَيْنِ.

(١) ذكره اسمه ابن كثير عند تفسير الآية (٦٣) من سورة يوسف.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: خُذْ مَوْثِقاً وَلَا تَرْكَنْ إِلَيْهِ:

كَمْ عَجِبْتُ مِنْ إِظْهَارِ هَذِهِ السُّورَةِ أَسْرَاراً بَاقِيَةً إِلى الأَبَدِ فِي العِلاقَاتِ الأُسْرِيَّةِ.. لَوْ تَنَبَّهَ لَهَا المَعْنِيُّونَ لَوَفَّرُوا جُهْداً كَبِيراً وَخَسَائِرَ كَثِيْرَةً.

كَمْ عَجِبْتُ مِنْ ضَعْفِ الأَبِ أَمَامَ أَبْنَائِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِخَطَئِهِمْ، وَرُبَّمَا تَجِدْهُ يَحْذَرُ مِنَ خَطَرِهِمْ وَيُحَذِّرْهُمْ مِنْهُ، ثُمَّ يَغْلِبُونَهُ فَيَقَعُ فِيمَا حَذَّرَ مِنْهُ، وَرُبَّمَا تَكَرَّرَ مِنْهُ الأَمْرُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ.. وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ الأَمْرُ مِنْ غَيْرِهِمْ لَقَاتَلَ وَلَمْ يَسْتَجِبْ! فَيَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُحَذِّرُ وَلَدَهُ يُوسُفَ مِنْ حَسَدِ إِخْوَتِهِ، وَكَيْدِهِمْ لَهُ... ثُمَّ هُوَ يَتْرُكْهُ يَذْهَبُ مَعَهُمْ!

فَإِنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْرِفُ حَقِيقَةَ حَسَدِهِمْ لأَخِيهِمْ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ بِحَقِيقَةِ قَوْلِهِ: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وَمعَ هَذَا يَدَعُ الْحَبِيبَ وَحِيْداً ضَعِيفاً بِيَدِ مَنْ يَخَافُ مِنْهُمْ عَلَيْهِ، يَذْهَبُونَ بِهِ بَعِيْداً عَنْ عَيْنِهِ! وَعَجِبْتُ لِلأَبْنَاءِ كَيْفَ يَعْرِفُونَ هَذَا مِنْ أَبِيْهِمْ فَيَقُولُونَ لِلْعَزِيزِ: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾، وَيَقَعُ تَأْكِيدُهُمْ مَوْقِعَ التَّنْفِيذِ وَالتَّصْدِيقِ، ثُمَّ يُوَافِقُ الأَبُ عَلَى ذَهَابِ الأَخِ الثَّانِي وَلَمَّا يَبْرَأْ جُرْحُ

يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدُ!

اسْتَوْثِقْ مِنْ أُمورِكَ حَتَّى مَعَ أَبْنَائِكَ، فَإِنَّ أَبْنَاءَ يَعْقُوبَ حِينَ أَلْقَوْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي غَيَابَةِ الجُبِّ مَا ذَكَرُوا مَوْثِقاً عَلَىٰ رَغْمِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَمْكُرُونَ، لَكِنَّهُمْ ذَكَرُوا مَوْثِقَهُمْ عِنْدَ أَبِيهِمْ لَمَّا أُحِيطَ بِهِمْ مَعَ أَنَّ الأَبَ اسْتَثْنَى لَهُمْ مَوْضُوعَ الإِحَاطَةِ، فَقَالَ لَهُمْ عِنْدَ الْمَوْثِقِ: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾. وَمَعَ هَذَا، فَإِنَّ أَخَاهُمُ الْأَكْبَرَ رَفَضَ الرُّجُوعَ احْتِرَاماً لِأَبِيهِمْ وَلِلْمَوْثِقِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠].

خُذْ مَوْثِقَكَ وَلَا تَرْكَنْ لِلتَّوْثِيقِ، وَلَا تَجْعَلْ قَلْبَكَ فِي الوَرَقَةِ مُعَلَّقاً، وَاجْعَلْهُ مَعَ اللَّهِ وَحْدَه مُوَثَّقاً، وَقُلْ قَوْلَةَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ المَوْثِقِ: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

❊ ❊ ❊

الحُزْن على الفراق لا على الموت!

هَلِ العَجَبُ مِنْ نِسْيَانِ يَعْقُوبَ عليه السلام الرُّؤْيَا أَوْ غَفْلَتِهِ عَنْهَا حِينَ غَابَ عَنْهُ يُوسُفُ، فَبَكَاهُ حَتَّى ذَهَبَتْ عَيْنَاهُ مِنَ البُكَاءِ مَعَ أَنَّهُ صَاحِبُ تَعْبِيرِ تِلْكَ الرُّؤْيَا، وَصَاحِبُ سِرِّهَا، وَهُوَ الَّذِي أَمَرَ بِكِتْمَانِهَا: ﴿قَالَ يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]..

أَمِ العَجَبُ، بَلِ الأَعْجَبُ أَنَّ يَعْقُوبَ عليه السلام لَمْ يُظْهِرِ الرُّؤْيَا عَلَى رَغْمِ مُرورِ السنين الطَّويلَةِ لأَحَدٍ حَتَّى أَظْهَرَهَا يُوسُفُ عليه السلام حِينَ سَجَدُوا لَهُ فِعْلِيّاً: ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ﴾.. وَلَعَلَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا كَانَتْ أَحْسَنَ عَزَاءٍ لِيَعْقُوبَ طَوَالَ فَتْرَةِ فِرَاقِ يُوسُفَ لَهُ، فَهُوَ لَمْ يُقِرَّ لأَبْنَائِهِ بِأَنَّهُ مَأْكُولٌ وَلَا مَقْتُولٌ، كَيْفَ وَهُوَ الْقَائِل لَهُمْ بَعْدَ فَقْدِ بِنْيَامِينَ: ﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وَلَوْ كَانَ حُزْنُهُ عَلَى مَوْتِهِ لَصَبَرَ مِنْ أَوَّلِ لَحْظَةٍ، وَلَكِنَّهُ الْفِرَاقُ الَّذِي لَا

يَعْرِفُ مَتَى يَنْتَهِي، وَالحَنِينُ لِحَبِيبٍ حَيٍّ أَطَارَ الْوَهْلَ، وَأَذْهَبَ البَصَرَ.. فَقَدْ قَالَ لِأَبْنَائِهِ بَعْدَمَا فَقَدَ الاثْنَيْنِ: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]..

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: أَيُّهَا الآبَاءُ رَاقِبُوا أَنْفُسَكُم:

مَعَ أَنَّ يُوسُفَ الْتَزَمَ بِوَصِيَّةِ أَبِيهِ فَكَتَمَ رُؤْيَاهُ عَنْ إِخْوَتِهِ إِلَّا أَنَّهُمْ كَادُوا لَهُ كَيْداً.. تُرَى مَاذَا لَوْ ذَكَرَهَا يُوسُفُ لإِخْوَتِهِ فِي وَقْتِهَا؟

لَكِنْ لِمَ كَادُوا لَهُ كَيْداً وَهُوَ لَمْ يَذْكُرْ لَهُمُ الرُّؤْيَا..؟!

الجَوَابُ: هَكَذَا هُمُ الآبَاءُ دَائِماً، فَكَثِيراً مَا يَقَعُ فِي قُلُوبِ الكَثِيرِ مِنْهُمْ تَمْيِيزُ بَعْضِ الأَبْنَاءِ عَلَى بَعْضٍ، فَيَحْسَبُونَ أَنَّ بَقِيَّةَ الأَبْنَاءِ يَحْتَاجُونَ إِلَى دَلِيلٍ ظَاهِرٍ عَلَى ذَلِكَ، وَعِنْدَهُمْ أَدِلَّةٌ عَلَى وَالِدِهِمْ تَمْلأُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ مِنَ الابْتِسَامَةِ الخَفِيَّةِ، وَالنَّظْرَةِ الرَّضِيَّةِ، وَالضَّمَّةِ العَفْوِيَّةِ، وَالإِغْضَاءَةِ - عَنِ الخَطَإِ - الدَّائِمَةِ.

وَلَرُبَّمَا ظَنَّ يَعْقُوبُ أَنَّ الأَبْنَاءَ لَا يَعْرِفُونَ ذَلِكَ، فَقَالَ

لِيُوسُفَ: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ﴾ بَيْنَمَا الأَبْنَاءُ فِيمَا بَيْنَهُمْ يَقُولُونَ: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨].

وَالْوَصِيَّةُ أَنْ يُرَاجِعَ الآبَاءُ أَنْفُسَهُمْ فِي تَعَامُلِهِمْ مَعَ جَمِيعِ الأَبْنَاءِ..، وَلْيَنْظُرُوا بِمِيزَانِ النَّقْدِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلْيَحْمِلُوا نُصْحَ مَنْ يَنْصَحُهُمْ فِي هَذَا الأَمْرِ مَحْمَلَ الجِدِّ، لَا مَحْمَلَ الكَرَاهِيَةِ وَالعِدَاءِ كَمَا هُوَ المُعْتَادُ.

فَلَيْسَ مِثْلُ إِشْقَاقِ الأَبِ عَلَى وَلَدِهِ الحَبِيبِ إلى قلبهِ إِذَا فَرَّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِخْوَانِهِ وَلَوْ بِالنَّظَرَاتِ وَالابْتِسَامَاتِ..، فَرُبَّمَا أَرْضَاهُ لَحْظَةَ بَقَائِهِ..، وَأَغْلَظَ عَلَى حِبِيبِهِ الآخَرُونَ طَوَالَ فِرَاقِهِ! وَرُبَّمَا أَسْعَدَهُ لَحظَاتِ حَيَاتِهِ، وَأَشْقَاهُ أَهْلُهُ انْتِقَاماً لِأَنْفُسِهِم بَعْدَ مَمَاتِ أَبِيهِم!

❊ ❊ ❊

أَيْنَ التَّمْكِينَ مِنَ التَّمْكِينِ؟!

الْوَمْضَةُ: عَجِبْتُ كَيْفَ أَنَّ اللَّه سُبْحَانَهُ قَالَ عَنْ يُوسُفَ عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وَقَالَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وَقَالَ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فَلَقَدْ اتَّحَدَ اسْمُ التَّمْكِينِ وَاخْتَلَفَ أُسْلُوبُهُ لَكِنْ اتَّحَدَتْ غَايَتَهُ وَثَمَرَتُهُ!

رِسَالَةُ هَذِهِ الْوَمْضَةُ تَقُولُ كَذَلِكَ:

عَجِبْتُ لِعَدَم حَمْلِ العِبَادِ كَلِمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى المَعْنَى الَّذِي يَلِيقُ بِقَائِلِهَا سُبْحَانَهُ، بَلْ يُقْصِرُونَ تَفْسِيرَهَا عَلَى مَا يَفْهَمُونَهُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ.

أَرَأَيْتُم لَوْ أَنَّ جَيْشاً عَرَمْرَماً خَرَجَ مِنَ البَادِيَةِ، يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... خَرَجَ يُرِيدُ غَزْوَ أَكْبَرِ أُمَّةٍ، وَأَقْوَى أُمَّةٍ، وَأَرْقَى أُمَّةٍ، فَغَزَاهَا وانْتَصَرَ عَلَيْهَا وَاحْتَلَّ أَرْضَهَا، وَحَكَمَ عَرْشَهَا، وَأَقَامَ دِينَ اللَّهِ فِيهَا. أَكَانَ ذَلِكَ جِهَاداً..؟ أَلَيْسَ هَذَا فَتْحاً وَنَصْراً وَتَمْكِيناً..؟

إِذَن، أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ يُوسُفَ، بَلْ قَالَ مَا هُوَ أَعْجَبُ مِنْهُ! أَلَمْ نَقْرَأْ السُّورَةَ مِرَاراً وَلَمْ نَتَصَوَّرْ ذَلِكَ؟! أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ نَعَمْ لَا يَعْلَمُونَ.

هَذَا الَّذِي لَا نَتَصَوَّرُ فِعْلَهُ إِلَّا مِنْ جَيْشٍ عَرَمْرَمَ هُوَ مَا فَعَلَهُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْوَحِيدُ! الْمَمْكُورُ بِهِ! الْمَبِيعُ بِضَاعَةً! الْمُسْتَعْبَدُ! الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ مِنَ النِّسَاءِ! الْمَحْبُوسُ، الْمَنْسِيُّ فِي حَبْسِهِ!

أَلَمْ يُصَرِّحِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَبْلَهَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١].

أَلَمْ يُؤَكِّدِ اللَّهُ عَلَى لَفْظِ التَّمْكِينِ مَرَّةً أُخْرَى مُذَكِّراً بِهِ سُبْحَانَهُ بَعْدَمَا اسْتَلَمَ خَزَائِنَ الأَرْضِ فَقَالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

لَكِنْ لَمَّا كَانَ الْجَيْشُ العَرَمْرَمُ مَعَ ذِي القَرْنَيْنِ حَمَلْنَا مَا قَالَ اللَّهُ فِي حَقِّهِ عَلَى الحَقِيقَةِ، وَتَصَوَّرْنَا ذَلِكَ جَيِّداً،

فَقَالَ سُبْحَانَهُ عَنْهُ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟

إِنَّهُ طَرِيقٌ مِنْ طُرُقِ التَّمْكِينِ الَّتِي لَمْ تُطْرَقْ بِالدِّرَاسَةِ كَمَا يَنْبَغِي، فَهَلْ يَطْرُقُهَا الْمُؤْمِنُونَ، كَمَا طَرَقَهَا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمْ أَنَّهُمْ سَيَحْمِلُونَ تَأْوِيلَهَا عَلَى الوَاقِعِ، وَيُحَكِّمُونَهُ فِي فَهْمِهَا، وَيُمَكِّنُونَ أَنْيَابَ الذِّلَّةِ وَالهَوَانِ مِنْهَا، وَيُحَوِّلُونَ التَّوْحِيدَ إِلَى شِرْكٍ حِينَ يَقُولُونَ: نَعَمْ، الطَّرِيقُ بِالمَجَالِسِ التَّشْرِيعِيَّةِ لَا غَيْرَ؟!

وَمْضَةٌ تَقُولُ: أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ اخْتَلَفَتْ صُورُ التَّمْكِينِ وَأَسْبَابِهِ فِي الآيَاتِ وَفِي الوَاقِعِ.. إِلَّا أَنَّ المُمَكِّنَ لَكُمْ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ، وَلَا مُمَكِّنَ لَكُمْ سِوَاهُ..، فَلَا تُشْرِكُوا بِهِ فِي ذَلِكَ أَحَداً.

❊ ❊ ❊

مِحْوَرُ قِصَّةِ يُوسُفَ: الحَقِيقَةُ[١]

عَجِبْتُ لِغَفْلَةِ النَّاسِ عَنِ الحَقِيقَةِ، وَاغْتِرَارِهِمْ بِالمَظَاهِرِ..

لَوْ حَدَّدْتُ غَايَةً أُولَى لَهِذِهِ السُّورَةِ لَقُلْتُ: **إِنَّ الغَايَةَ العُظْمَى هِيَ البَحْثُ عَنِ الحَقِيقَةِ**.. هَكَذَا هِيَ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا.. وَفِي جَمِيعِ فُصُولِ قِصَّتِهَا تَقُولُ: هُنَا الحَقِيقَةُ.

وَكَأَنَّهَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ تَعْرِضُ أَمَامَ القَارِئِ أَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا حَقِيقِيٌّ، وَالآخَرُ مَظْهَرِيٌّ.. فَيَخْتَارُ القَارِئُ - عَلَى عَادَةِ النَّاسِ - الخَيَارَ الْمَظْهَرِيَّ وَيَتْرُكُونَ الحَقِيقِيَّ.. فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ فَرُبَّمَا اشْتَرَكْنَا فِي بَعْضِ فُصُولِ الغَفْلَةِ وَنَحْنُ لَا نَدْرِي!

فَقَدْ عَجِبْتُ لِلْغَفْلَةِ عَنْ حَقِيقَةِ الخِلَافِ بَيْنَ الإِخْوَةِ! يَظُنُّ

---

(١) ليس لهذه الخاتمة رسالة لأنها تحدثت في محور السورة كلها من أولها إلى آخرها، فهي ومضة، وهي رسالة.

أَكْثَرُ القُرَّاءِ أَنَّهُ حَسَدُ الإِخْوَةِ، وَلَا يَذْكُرُونَ إِلَّا ذَلِكَ، مَعَ أَنَّ الحَقِيقَةَ أَنَّهُ عَدَاوَةُ الشَّيْطَانِ، وَهُوَ الَّذِي نَبَّهُ يَعْقُوبُ ابْنَهُ يُوسُفَ عَلَيْهِمَا السَّلَام إِلَيْهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ حَتَّى أَخْبَرَهُ عَنِ الرُّؤْيَا فَقَالَ لَهُ الحَقِيقَةَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف: ٥].

ثُمَّ جَاءَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آخِرِ القِصَّةِ وَأَكَّدَ أَمَامَ الجَمِيعِ هَذِهِ الحَقِيقَةَ، فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْهُ: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

عَجِبْتُ لِغَفْلَةِ النَّاسِ عَنْ حَقِيقَةِ تَقْرِيبِ يَعْقُوبَ لِيُوسُفَ وَظَنِّهِمْ أَنَّهُ كَتَفْرِيقِهِمْ بَيْنَ أَبْنَائِهِمْ فِي حُبِّهِمْ، كَأَنْ يَكُونَ لِصِغَرِهِ، أَوْ لِجَمَالِهِ، أَوْ لِذَكَائِهِ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا عَلَّمَ اللَّهُ يَعْقُوبَ مِنَ العِلْمِ الخَاصِّ الَّذِي قَالَ لَهُمْ عَنْهُ فِي

آخِرِ القِصَّةِ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[(١)] [يوسف: ٨٧].

عَجِبْتُ لانْشِغَالِ أَبْنَاءِ يَعْقُوبَ عَنِ الحَقِيقَةِ بِالمَظَاهِرِ، وَسَيْرِهِمْ وَرَاءَ مُقْتَضَيَاتِهَا، وَعَمَلِهِمْ بِمَا يُمْلِيهِ عَلَيْهِمُ الحَسَدُ؛ فَقَدْ أَلْغَوْا حَقِيقَةَ الأُخَوَّةِ، وَحَقِيقَةَ طَاعَةِ الأُبُوَّةِ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِذَا تَخَلَّصُوا مِنْ يُوسُفَ فَسَوْفَ يَخْلُو لَهُمْ وَجْهُ أَبِيهِمْ..، فَسَارُوا وَرَاءَ مَا ظَنُّوا مِنْ مَظَاهِرَ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّ يُوسُفَ الصَّغِيرَ حَقِيقَةٌ بَاقِيَةٌ، وَمَا خَطَّطُوا لَهُ أَوْهَامٌ، وَالْوَهْمُ لَا يَغْلِبُ الحَقِيقَةَ...، وَمَا عَلِمُوا أَنَّهُمْ بِعَمَلِهِمْ هَذَا فَرَّطُوا بِالحَقِيقَةِ وَهُوَ يُوسُفُ وَأَبُوهُ، وَبِسِنِينَ مِنَ الأُخَوَّةِ، وَالأُلْفَةِ، وَجَمْعِ الشَّمْلِ..

عَجِبْتُ لِحِرْصِ الأَبْنَاءِ عَلَى جَمْعِ كُلِّ أَدِلَّةِ التَّصْدِيقِ عَلَى أَنَّ يُوسُفَ قَدْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ، مِنْ إِخْبَارٍ وَإِجْمَاعٍ، وَبُكَاءٍ وَتَوْقِيتٍ، وَقَمِيصٍ وَدَمٍ، وَغَفْلَتِهِمْ عَنِ الحَقِيقَةِ الَّتِي اسْتَقَرَّتْ فِي نَفْسِ أَبِيهِمْ، فَقَالَ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، وَأَنَّ يُوسُفَ لَنْ يَمُوتَ حَتَّى

---

(١) وهذا لا يعارض ما ذكر في الومضة السابقة ورسالتها فإن قَسَم العبد فيما يملك شيء، والقلب شيء آخر.

يُحَقِّقَ اللَّهُ قَدَرَهُ الَّذي أَرَاهُ إِيَّاهُ فِي المَنَامِ. . !

عَجِبْتُ لِاغْتِرَارِ النَّاسِ بِالمَدِينَةِ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّ حَقِيقَةَ التَّغْيِّيرِ فِي هَذِهِ القِصَّةِ فِي البَدْوِ. .

عَجِبْتُ مِنَ اغْتِرَارِ النَّاسِ بِزِينَةِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكَيْفَ أَنَّهَا مَظَاهِرُ عَلَى الأَرْضِ، وَعَلَى الْأَخَصِّ مَا فِي الْحَاضِرَةِ مِنْ مَظَاهِرَ إِنَّمَا هُوَ زِينَةٌ، وَأَنَّهُ كَأَيِّ شَيْءٍ على الأَرْضِ مَصِيرُهُ إِلَى زَوَالٍ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وَمَا عَلِمُوا أَنَّ الحَقِيقَةَ لَيْسَتْ فِيمَا ظَهَرَ عَلَى الأَرْضِ مِنْ زِينَةٍ إِنَّما الحَقِيقَةُ فِي هَذِهِ المَرَّةِ فِي الْبِئْرِ؛ فَالمَلِكُ القَادِمُ فِي الْبِئْرِ. . !

فَمِنْ بَاطِنِ الأَرْضِ. . . كَذَا مِنَ البِئْرِ إِلَى سُدَّةِ المُلْكِ!! إِنَّهَا إِرَادَةُ اللَّهِ! فَسُبْحَانَ اللَّهِ.

عَجِبْتُ كَيْفَ لَمْ يُقَدِّرْ أَهْلُ القَافِلَةِ قِيمَةَ هَذَا الغُلَامِ. . وَعَجِبْتُ كَيْفَ بَاعُوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ كَبِضَاعَةٍ مِنْ أَرْخَصِ الأَنْوَاعِ، بَيْنَما سَيَكُونُ هُوَ أَمِينَ خَزَائِنِهِمْ، ثُمَّ مَلِكَهُمْ، هَذِهِ هِيَ الحَقِيقَةُ. . !

عَجِبْتُ لِقِصَرِ نَظَرِ الَّذِي اشْتَرَاهُ وَظَنَّ أَنَّهُ كَسَائِرِ الغِلْمَانِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾.. وَمَا عَلِمَ أَنَّ الحَقِيقَةَ أَنَّهُ سَيَكُونُ سَيِّدَهُمْ...!

عَجِبْتُ لافْتِتَانِ المَرْأَةِ بِصُورَةِ يُوسُفَ وَمَظْهَرِهِ، وَانْشِغَالِهَا عَنْ حَقِيقَةِ الْوَفَاءِ للزَّوْجِ، فَإِذَا هِيَ غَفَلَتْ فَلَنْ يَغْفَلَ يُوسُفَ عَنِ الحَقِيقَةِ فَقَالَ: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

عَجِبْتُ مِنْ غَفْلَةِ الْعَزِيزِ وَظَنِّهِ أَنَّهُ بِحُكْمِهِ هَذَا أَنْهَى المَوْضُوعَ، وَمَا عَلِمَ أَنَّ الشَّهْوَةَ الحَقِيقِيَّةَ جَارِفَةٌ لَا يُقْضَى عَلَيْهَا بِمِثْلِ هَذَا الحُكْمِ..!

عَجِبْتُ لِغَفْلَةِ العَزِيزِ عَنْ حَقِيقَةِ الجَرِيمَةِ.. وَاغْتِرَارِهِ بِمَظَاهِرِ القُوَّةِ الَّتِي عِنْدَهُ، وَظَنِّهِ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ إِظْهَارَ البَاطِلِ، وَإِزَالَةَ الحَقِّ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَمَا عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ، حَتَّى جَاءَ اليَوْمُ الَّذِي أَظْهَرَتْ فِيهِ زَوْجُهُ الحَقِيقَةَ، فَقَالَتْ: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]..

عَجِبْتُ لِغَفْلَةِ النِّسَاءِ عَنْ أَنْفُسِهِنَّ، وَعَنْ حَقِيقَةِ الشَّهْوَةِ

فِي دَاخِلِهِنَّ وَانْشِغَالِهِنَّ بِغَيْرِهِنَّ، وَعَجِبْتُ لإِدْرَاكِ امْرَأَةِ العَزِيزِ اغْتِرَارَ النِّسَاءِ بِالصُّوَرِ وَعَدَمِ إِدْرَاكِهِنَّ حَقِيقَةَ الشَّهْوَةِ فِي دَاخِلِهِنَّ، فَكَانَ مَا تَوَقَّعَتْ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]!

عَجِبْتُ لِغَفْلَةِ النِّسَاءِ عَنْ حَقِيقَةِ السَّيْطَرَةِ وَالمَالِ، وَعَجِبْتُ لإِدْرَاكِ يُوسُفَ أَنَّ الحَقَّ كَانَ فِي السِّجْنِ لَا فِي البَقَاءِ فِي القَصْرِ؛ لِذَا دَعَا رَبَّهُ بِهِ جَازِماً: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]!

عَجِبْتُ لانْشِغَالِ المَسَاجِينِ بِرُؤْيَا المَنَامَاتِ - وَهِيَ مَظَاهِرُ - وَانْشِغَالِ يُوسُفَ بِالْحَقِيقَةِ العُظْمَى، وَهِيَ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَدَعْوَةُ المَسَاجِينِ إِلَيْهِ..!

وَعَجِبْتُ لاغْتِرَارِ النَّاسِ آنَذَاكَ بِعِبَادَةِ الآلِهَةِ، وَهِيَ المَظْهَرُ العَامُّ المُطْبِقُ.. وَوُقُوفِ يُوسُفَ فِي وَجْهِ هَذَا المَظْهَرِ السَّيِّئِ بِالْحَقِيقَةِ العُظْمَى الَّتِي يَعْرِفُهَا: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ

مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

وَلِذَا قَالَ لهُمْ مَنْفَرِداً فِي تَلْكَ الأُمَّةِ الضَّالَّةِ: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]!

عَجِبْتُ لانْشِغَالِ الْحَاشِيَةِ لِشُخُوصِ رُؤْيَا المَلِكِ، فَقَالُوا: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾، وَعَجِبْتُ لِاعْتِقَادِ المَلِكِ بِأَنَّ وَرَاءَهَا حَقِيقَةً لَكِنَّهُ لَا يَعْرِفُهَا..!

عَجِبْتُ لِظَنِّ النَّاسِ أَنَّ الثَّقَافَةَ وَالذَّكَاءَ وَالقِيَادَةَ فِي البِطَانَةِ وَأَهْلِهَا وَمَنْ حَوْلهَا وَمَدَى قُرْبِ النَّاسِ لَها، مَعَ أَنَّ العَجَبَ أَنْ يَكُونَ جَوَابُ رُؤْيَا المَلِكِ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مَعَ أَنَّهُمْ أَعْرَفُ النَّاسِ بِهِ، فَقَدْ كَانَتِ الحَقِيقَةُ فِي السِّجْنِ..!

عَجِبْتُ لانْشِغَالِ المَلِكِ فِي ذَاتِهِ، وَظَنَّ أَنَّهُ يَطْوِي الأُمَّةَ كُلَّهَا تَحْتَ إِبْطِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾.

وَمَا عَلِمَ أَنَّ يُوسُفَ سَوْفَ يَطْوِيهِ - كَمَا مَرَّ فِي الأَثَرِ الصَّحِيحِ - وَهُوَ الَّذِي سَيَرْفَعُ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ، وَأَبُوهُ

وَأُسْرَتُهُ سَتَخِرُّ لَهُ سُجَّداً، وَالآخَرُونَ مِنْ بَابِ أَوْلَى . . !

عَجِبْتُ كَيْفَ قَالَ يَعْقُوبُ ذَلِكَ وَكَأَنَّهُ خَافَ عَلَيْهِمُ الحَسَدَ وَالْعُدْوَانِ لاجْتِمَاعِهِم وَمَا هُوَ إِلَّا مَظْهَرٌ مِنَ الْمَظَاهِرِ: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ وَعَجِبْتُ كَيْفَ رَجَعَ يَعقُوبُ سَرِيعاً إِلى الحَقِيقَةِ فَقَالَ: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾!

عَجِبْتُ كَيْفَ تَعَامَلَ مَعَهُمْ يُوسُفُ بِالمَظَاهِرِ، فَأَخَذَ الحَقِيقَةَ حِينَ أَخَذَ أَخَاهُ بِالحِيلَةِ الَّتِي حَكَمَهُمْ بِهَا . . !

عَجِبْتُ مِمَّنْ اغْتَرَّ بِالمَظَاهِرِ كَيْفَ لَمْ يَعْرِفْ أَخَاهُ لأَبِيهِ: ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

وَدَخَلُوا عَلَيْهِ ثَانِيَةً وَلَمْ يَعْرِفُوهُ وَهُمْ يَسْأَلُونَ: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨]!

وَبَعْدُ . . . أَيَظُنُّ القَارِئُ أَنْ لَيْسَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ إِلَّا

هَذَا. . لَا وَاللَّه، فَفِي كُلِّ كَلِمَةٍ - نَعَمْ، فِي كُلِّ كَلِمَةٍ - أَسْرَارٌ عَجِيبَةٌ. . وَحَقَائِقُ فَرِيدَةٌ[1] . .

إِنَّهَا سُورَةٌ تَكْشِفُ الحَقِيقَةَ الَّتِي تَخْفَى فِي كُلِّ مَرَّةٍ، فَيُهْرَعُ النَّاسُ وَرَاءَ المَظْهَرِ تَارِكِينَ الحَقِيقَةَ الَّتِي هِيَ أَحَقُّ بِالسُّؤَالِ، وَالاسْتِكْشَافِ، مُنْشَغِلِينَ بِالْغَوْصِ وَرَاءَ المَظْهَرِ. .

أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَوَائِلِ السُّورَةِ: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧].

للسَّائِلِينَ مُطْلَقاً، وَأَوَّلُ السَّائِلينَ هُمُ الطَّالِبُونَ لِلحَقِيقَةِ الَّتِي لَنْ تُدْرَكَ إِلَّا بِالسُّؤَالِ.

أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي أَوَّلِ آيَةٍ مِنْ سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

(١) هكذا هو القرآن كله، ولو أردت أن أستخرج من كل آية في القرآن ومضة واحدة لكان ذلك في غاية السهولة - بإذن اللَّه -، بل ذلك ميسور بحمد اللَّه من كل كلمة في القرآن الكريم على حدة؛ لأن الكلمة الواحدة في القرآن فيها ما لا يحصى من الومضات الجديدة التي لم تكشف، ودليل هذا هو ما كتبناه في تفسير سورة اقرأ، كما سيأتي الحديث عن هذا في ومضة الخاتمة.

فَمَا أَعْظَمَ وَصْفَ ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ فِي ابْتِدَاءِ هَذِهِ السُّورَةِ الَّتِي فِيهَا البَحْثُ عَنِ الحَقِيقَةِ. وَالإِبَانَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا عَنْ شَيءٍ مَخْفِيٍّ أَوْ ضَائِعٍ، وَلِذَا تَقُولُ العَرَبُ: تَوْضِيحُ الوَاضِحِ مُشْكِلٌ. . . !

ثُمَّ، أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ بَعْدَهَا: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

فَكَمْ لِقَوْلِهِ: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مِنَ اسْتِثَارَةٍ لِلْعُقُولِ نَحْوَ مَا يَأْتِي بَيَانُهُ.

وَمَصْرَعُ العُقُولِ بِالاغْتِرَارِ بِالمَظَاهِرِ، فَالمَظْهَرُ مَظْهَرٌ وَقِشْرٌ، وَالعَقْلُ لُبٌّ، وَاللُّبُّ يقابل المَظْهَرِ، ثُمَّ يُصَرِّحُ اللَّهُ بَعْدَهَا لِرَسُولِهِ ﷺ فَيَقُولُ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

فَكَمْ مِنْ مَظَاهِرَ أَبْطَلَتْهَا هَذِهِ السُّورَةُ، بَلْ لَا أَكَادُ أَجِدُ مَظْهَراً اغْتَرَّ بِهِ النَّاسُ إِلَّا أَبْطَلَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ، وَأَظْهَرَتْ فِي مُقَابِلِهِ الحَقِيقَةَ الَّتِي غَطَّتْهَا المَظَاهِرُ. .

وَفَوْقَ هَذَا فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ فِي آخِرِ السُّورَةِ:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

وَلَوْ تَتَبَّعْنَا هَذَا الأَمْرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ لَظَهَرَ لَنَا مِنَ العَجَبِ العُجَابِ مَا لَمْ أَسْتَطِعْ حَصْرَهُ إِلَى الآنَ. فَسُبْحَانَ مَنْ خَتَمَ السُّورَةَ بِتَخْصِيص أُولِي الأَلْبَاب بِالذِّكْرِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

❊ ❊ ❊

ومضات مع موسى عليه السلام
من القرآن الكريم

الرَّحْمَةُ بِعَلَامَةِ الانْدِكَاكِ

عَجِبْتُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - أَنْ جَعَلَ الْفَاصِلَ مَا بَيْنَ الرُّؤْيَةِ وَعَدَمِهَا انْدِكَاكَ الجَبَلِ، فَقَالَ - سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] لأَنَّهُ - سُبْحَانَهُ - لَوْ قَالَ عَنِ الأَرْضِ: فَإِنِ اسْتَقَرَّتِ الأَرْضُ مَكَانَهَا فَسَوْفَ تَرَانِي، فَتَجَلَّى اللَّهُ لَهَا لَمَا اسْتَقَرَّتْ - وَاللَّهِ - وَلَسَاخَتْ، فَالْحَمْدُ للَّه أَنْ جَعَلَ التَّجَلِّي عَلَى الجَبَلِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالحَمْدُ للَّه الَّذِي جَعَلَ الأَثَرَ عَلَى الجَبَلِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالحَمْدُ للَّه أَنْ جَعَلَ الأَثَرَ إِلَى حَدِّ الانْدِكَاكِ فَحَسْبُ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ خَسْفاً أَوْ سُوخَاناً أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، كَيْفَ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «حِجَابُهُ النُّورُ لَو كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1].

(١) رواه مسلم (١٧٩).

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: عِظَمُ الْأَثَرِ لِعِظَمِ الطَّلَبِ:

لَا يَهُولَنَّكَ أَثَرُ الدَّمَارِ الَّذِي يَحْدُثُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى السَّبَبِ، وَانْظُرْ إِلَى مَا فِيهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَلَا تَنْزَعِجَنَّ لِتَهْوِيلِ الخَلْقِ. أَمَّا السَّبَبُ فَإِنَّ الحجَرَ وَالجَبَلَ أَمَامَ تَجَلِّي اللَّهِ سَوَاءٌ، أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ عَنِ الحِجَارَةِ: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]؟.

وَقَالَ عَنِ الْجَبَلِ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وَأَمَّا الرَّحْمَةُ: فَمَاذَا يَعْنِي دَكُّ جَبَلٍ؟ أَرَأَيْتَ كَمْ رَحْمَةً فِي هَذَا الدَّكِّ؟

أَرَأَيْتَ أَيَّ رِسَالَةٍ بَلَغَتِ البَشَرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ فِي مَوْضُوعِ رُؤْيَةِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْتِزَامِ الحَدِّ مَعَهُ سُبْحَانَهُ؟

أَرَأَيْتَ كَيْفَ كَذَبَ المُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ بِأَنَّهُمْ لِمقَامِهِمُ الخَاصِّ يَرَوْنَهُ وَيُكَلِّمُونَهُ سُبْحَانَهُ.

أَرَأَيْتَ أَيَّ اشْتِيَاقٍ اشْتَعَلَ فِي قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ لِلنَّظَرِ لِوَجْهِ اللَّهِ الكَرِيمِ حِينَ عَلِمُوا أَنَّ دُونَ ذَلِكَ المَوْتَ؟

لَمْ يَطْلُبِ الرُّؤْيَةَ فِي الْمَقَامِ الأَوَّلِ

عَجِبْتُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ رَأَى النُّورَ وَسَمِعَ الْكَلَامَ، وَرَدَّ الْجَوَابَ، وَرَفَعَ السُّؤَالَ، وَجَاءَهُ الطَّلَبُ فَوْراً لَمَّا ذَهَبَ إِلَى الشَّجَرَةِ فِي الوَادِي المُبَارَكِ، وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، وَبَعَثَهُ، وَأَعْطَاهُ سُؤْلَهُ، لَمْ يَطْلُبِ الرُّؤْيَةَ وَلَكِنَّهُ، حِينَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ عِنْدَ الجَبَلِ طَلَبَ الرُّؤْيَةَ مَعَ أَنَّهُ فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ أَعْلَمُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ مِمَّا كَانَ مِنْ قَبْلُ. . .

إِنَّ هَذِهِ هِيَ سُنَّةُ التَّرَقِّي، فَمَا بَيْنَ هَذِهِ وَهَذِهِ وَقْتٌ طَوِيلٌ، وَدَرَجَاتٌ إِيمَانِيَّةٌ قَطَعَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَكِنَّ الْحَالَ الَّذِي بَلَغَ بِمُوسَى هُوَ مَا جَعَلَهُ لَا يَطِيقُ التَّوَقُّفَ عِنْدَ حَدِّ سَمَاعِ الْكَلَامِ. . .، وَلَا يَعْلَمُ بِذَلِكَ الْحَالِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَمَعَ هَذَا فَلَمَّا عَلِمَ خَطَأَه بِطَلَبِ الرُّؤْيَةِ، عَادَ سَرِيعاً وَتَابَ: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: الْزَمِ الضَّوابِطَ وَاعْرُجْ كَمَا تَشَاءُ:

ارْتَقِ مَا اسْتَطَعْتَ فِي سُلَّمِ الْقُرْبِ إِلَى اللَّهِ، فَمَا تَقَرَّبَ العَبْدُ مِنَ اللَّهِ شِبْراً إِلَّا اقْتَرَبَ مِنْكَ سُبْحَانَهُ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ.. وَإِيَّاكَ أَنْ تَتَخَطَّى ضَابِطاً مِنَ الضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ..

فَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ فِي ذَاكَ الْمَقَامِ الْعَظِيمِ، مَقَامِ التَّكْلِيمِ مِنْ رَبِّ العَالِمِينَ، ذَهِلَ عَنْ نَفْسِهِ، وَطَلَبَ مِنْ رَبِّهِ النَّظَرَ إِلَيْهِ، فَتَرَكَهُ رَبُّ الْعَالِمِين وَأَوْكَلَهُ إِلَى عَلامَةِ بَقَاءِ الجَبَلِ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ بَقَاءَهُ مُسْتَحِيلٌ.. لَكِنَّ ثَمرَتَهَا هُوَ إِدْرَاكُ مُوسَى عَظَمَةَ وَخُطُورَةَ طَلَبِهِ العَظِيمِ عَلَى وَجْهِ الحَقِيقَةِ، وَلَنْ يَنْسَى مُوسَى هَذِهِ الْعَلَامَةَ أَبداً، فَلَا يَرْجِعُ لِهَذَا الطَّلَبِ أَبداً مَهْمَا بَلَغَ بِهِ الشَّوْقُ؛ وَلِذَا كَانَتْ إِفَاقَتُهُ مِنْ مَوجَةِ الاشْتِياقِ فَوْر إِفَاقَتِهِ مِنْ صَعْقَتِهِ تَائِباً مُسْتَغْفِراً مُعَظِّماً لِرَبِّهِ مُسَبِّحاً: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وَلَقَدْ هَلَكَ فِي هَذَا المَيْدَانِ رِجَالٌ فُتِحَ لَهُمْ فِي القِيَامِ وَالقُرْآنِ فَهَالَهُمُ الْفَتْحُ أَوِ النُّورُ أَوِ البُحُورُ فَوَلَجُوا بِغَيْرِ ضَوَابِطَ، فَأَحْرَقَهُمُ النُّورُ، وَأَغْرَقَتْهُمُ الْبُحُورُ.. وَتَأَلَّوْا

عَلَى اللَّهِ، وَتَجَرَّؤُوا عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، فَضَلُّوا فِي هَذَا الْمَقَامِ وَأَضَلُّوا، وَهَلَكُوا وَأَهْلَكُوا. .

سِرْ، وَطِرْ، وَحَلِّقْ، كَيْفَمَا اسْتَطَعْتَ فِي المَقَامَاتِ الإِيمَانِيَّةِ. . قُلْ، وَاكْتُبْ، مَا اسْتَطَعْتَ - وَلَكِنْ كُنْ مُلْتَزِماً بِالضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ. .

رِسَالَةٌ تَقُولُ: مَا أَعْظَمَ إِكْرَامَ اللَّهِ أَهْلَ الجَنَّةِ حَيْثُ يُعْطِيهِمْ مَا لَمْ يُعْطِ رَسُولًا مِنْ أُولِي العَزْمِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، فَاسْعَ لِتِلْكَ المَنْزِلَةِ العُظْمَى اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَلَا تَفْتُرْ، وَلَا تُغْلَبْ عَنْ صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا، قَالَ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنَ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[1].

❊ ❊ ❊

(١) رواه البخاري باب: قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، ومسلم، باب: فضل صلاة الصبح وصلاة العصر.

ذَكَرَ أَخَاهُ وَهُوَ بَعِيدٌ

عَجِبْتُ مِنْ ذِكْرِ مُوسَى أَخَاهُ عِنْدَ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ الْبَعِيدُ الْعَهْدِ بِأَخِيْهِ، الْبَعِيدُ عَنْ مَوقِعِهِ هَذَا، مَعَ عَدَمِ ذِكْرِهِ أَهْلَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَهُمْ مَعَهُ فِي نَفْسِ الْمَكَانِ وَنَفْسِ الرِّحْلَةِ. فَسُبْحَانَهُ كَيْفَ يُلْهِمُ عَبْدَهُ الدُّعَاءَ، لِيُعْطِي مَا يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ... وَهُوَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: مُشَارَكَةُ الْمَرْأَةِ

لِلزَّوْجِ أَنْ يُشْرِكَ زَوْجَهُ فِي دُعَائِهِ، وَفِيمَا يَنْبَغِي أَنْ يَشْتَرِكْنَ فِيه...، أَمَّا أَنْ يُشْرِكَ الرَّجُلُ زَوْجَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَفِي كُلِّ شَأْنٍ فَهَذَا لَيْسَ أَدَبَ الْإِسْلَامِ، وَلَا أَدَبَ الرُّجُولَةِ، فَكَيْفَ يَكُونُ أَدَبَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْأَمْرُ أَمْرُ نُبُوَّةٍ، وَمُوَاجَهَةِ طَاغِيَةِ الطُّغَاةِ فِرْعَوْنَ، فَأَيْنَ مَوْقِعَ النِّساءَ هُنَا؟!

صَلَّى اللَّهُ عَلَى مُوسَى وَسَلَّمَ؛ إِذْ أَجْلَسَ أَهْلَهُ فِي مَكَانِهِمْ وَمَا أَشْرَكَهُمْ بِرُؤْيَةِ النَّارِ، وَمَا أَخَذَهُمْ مَعَهُ، وَمَا جَازَفَ

بِهِمْ، وَمَا طَالَبُوا هُمْ بِذَلِكَ.

رِسَالَةٌ تَقُولُ: صَدَقَ مَنْ قَالَ: «جَنِّبُوا مَجَالِسَنَا ذِكْرَ النِّسَاءِ والطَّعامِ»[١].

❊ ❊ ❊

(١) قاله الأحنف بن قيس، انظر: «المجالسة وجواهر العلم» (٥/ ٤٤) و«سير أعلام النبلاء» ٢٩- الأحنف بن قيس.

أَرَادَ قَبساً لِزَوْجِهِ فكَانَ نُوراً لِلأُمَّةِ

﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠].

عَجِبْتُ مِنْ إِلهَامِ اللَّهِ العَبْدَ مُرَادَهُ سُبْحَانَهُ، كَيْفَ يُنْطِقُهُ - سُبْحَانَهُ - بِمُرَادِهِ مِنْهُ أَلْفَاظاً وَاضِحَةً، وَالْعَبْدُ يَقُولُها وَلَا يَخْطِرُ بِبَالِهِ مِنْهَا إِلَّا مُرَادُهُ هُوَ؛ فَمُوسَى يَقُولُ بِنَفْسِهِ: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى النَّارِ أَرْجُو الهُدَى عِنْدهَا، وَلَمْ يَخْطِرْ بِبَالِهِ لَحْظَةً أَنَّهَا لَيْسَتْ هِدَايَةَ طَرِيقِ الصَّحْرَاءِ فَحَسْبُ إِنَّمَا الرِّسَالَةُ الإِلَهِيَّةُ، وَهِيَ أَعْظَمُ هُدَى، حَيْثُ إِنَّهَا هِدَايَةُ الطَّرِيقِ. . وَلَكِنَهُ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ.

فَهَلِ الْعَجَبُ مِنْ رَجَاءِ مُوسَى قَبَساً وَاحِداً مِنْ تِلْكَ النَّارِ، لِزَوْجِهِ وَحْدَهَا **أَمِ العَجَبُ** مِنْ عَطَاءِ اللَّه لِمُوسَى الهُدَى، فَجَعَلَهُ للمُتَّقِينَ إِمَاماً، وَجعَلَ كِتَابَهُ نُوراً وَهُدَى لِلنَّاسِ. . ؟!

فَمُوسَى كَانَ رَجَاؤُهُ عَلَى قَدْرِهِ وَقَدْرِ حَاجَتِهِ، وَرَبُّ

العَالِمِينَ أَعْطَاهُ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ..

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: بَرَكَةُ السَّعْي عَلَى الأَهْلِ:

عَجِبْتُ لِبَرَكَةِ السَّعْي عَلَى الأَهْلِ، فَلَرُبَّمَا لَوْ كَانَ مُوسَى وَحْدَهُ فِي الصَّحَرَاءِ لَمَا طَلَبَ نَاراً وَلَا دِفْئاً، وَلَمَّا كَانَ مَعَهُ أَهْلُهُ ذَهَبَ إِلَى النَّارِ لِأَجْلِهِمْ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

رِسَالَةٌ تَقُولُ: لَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ اللِّقَاءِ شِكَايَةَ الْبَرْدِ وَلَا الضَّيَاعَ فِي الصَّحْراءِ! وَلَكِنَّهُ ذَهَبَ لِلنَّارِ لِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ! .

رِسَالَةٌ تَقُولُ: يَطْلُبُ الْعَبْدُ أَمْراً يَظُنُّهُ عَظِيماً، وَيَظُنُّ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يُجَبْ إِلَيْهِ هَلَكَ أَوْ فَاتَهُ مِنَ الخَيْرِ الْكَثِيرُ الْكَثِيرُ! وَهُمَا مِنْ مَطَالِبِ الدُّنْيَا وَالنَّفْسِ، وَمَا إِنْ يَتَذَوَّقْ لَذَّةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَنْسَى طَلَبَهُ الْأَوَّلَ، وَكَأَنَّ كُلَّ شَيءٍ عَاجِلٍ لَا شَيْءَ، وَكَأَنَّ الْجُوعَ شِبَعٌ، وَكَأَنَّ الْغُرْبَةَ أُنْساً، وَكَأَنَّ التِّيهَ بُلُوغٌ، وَكَأَنَّ الفَقْرَ غِنًى...

رِسَالَةٌ تَقُولُ: عَجَباً لِتَصْرِيفِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أُمُورَ مَنْ يَلْتَجِأُ إِلَيْهِ بِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ. . . ، قَلَمَا يَتَفَطَنُ لَهَا الْعَبْدُ إِلَّا بَعْدَ مُرُورِ وَقْتِهَا!

أَلَّا تَرَى حِينَ فَرَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ فِرْعَونَ خَائِفاً يَتَرَقَبُ كَانَ أَوَّلُ مَا يُقَابِلُهُ فِي مَدْيَنَ المَاءَ، وَحِينَ خَرَجَ مِنْ مَدِينَ عَائِداً آمِناً سَاكِناً مُطْمَئِناً. . . كَانَ أَوَّلُ مَا يُقَابِلُهُ النَّارَ، حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ يَدْرِكُهَا مَنْ عَكَسَ التَّصَوُرِ، فَجَعَلَ النَّارَ هُنَاكَ وَالمَاءَ هُنَا. . . ، حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ تُطَابِقُ حَاجَةَ النَّفْسِ الدَّاخِلِيَّةِ هُنَا وَهُنَاكَ.

فَمَا أَحْوجَ نَفْسَ الخَائِفِ لِمَاءٍ يُطفِئُ حَرَارَتَهَا. . . ، وَمَا أَحْوجَ نَفْسَ الدَّاعِيَةَ لِنَارٍ تُوقِدُها وَتُطْلِقُهَا؟

❊ ❊ ❊

أَيُّ الحالَتَيْنِ أَعْجَبُ؟

أَيُّ الْحالَتَيْنِ كَانَتْ حاجَةُ مُوسَى إِلَيْهَا أَكْبَرَ: إِلَى الطَّرِيقِ يَوْمَ أَنْ كَانَ مَعَ أَهْلِهِ فِي الصَّحْرَاءِ يُرِيدُ بَلَدَهُ وَلَا أَحَدَ يُطَارِدُهُ، أَمْ يَوْمَ أَنْ خَرَجَ بِأَهْلِهِ وَبِقَوْمِهِ كُلِّهِمْ وَفِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ وَحُشُودُ الْقُرَى وَرَاءَهُمْ حَتَّى قَالَ أَصْحَابُهُ: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾؟ كَيْفَ وَالطَّرِيقَ قَدِ انْقَطَعَ بِهِمْ، فالبَحْرُ كَانَ أَمَامَهُمْ، وَفِرْعَوْنُ وَحَشُودُ الْقُرَى مِنْ وَرَائِهِمْ؟!

أَرَأَيْتَ كَيْفَ رَجَا مُوسَى الْهِدَايَةَ فِي الصَّحْرَاءِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ إِجَابَةً لِرَجَائِهِ هَذَا، مَعَ أَنَّهُ تَحَقَّقَ، وَتَحَقَّقَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، بَيْنَمَا جَاءَتْهُ الْهِدَايَةُ إِلَى طَرِيقِ النَّجَاةِ فِي هَذَا الظَّرْفِ العَصِيْبِ المُطْبِقِ، بَلْ صِنَاعَةُ طَرِيقٍ جَدِيدٍ لَا عَهْدَ لِأَحَدٍ بِهِ، حِينَ كَانَ أَعْظَمُ مَا يَكُونُ حَاجَةً لِطَرِيقِ النَّجَاةِ لَهُ وَلِقَوْمِهِ مِنْ جِهَةٍ، وَهُوَ طَرِيقُ الْهَلَاكِ لِفِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، فَكَمْ كَانَ فِي ادِّخَارِ الجَوَابِ الأَكْبَرِ مِنْ فَضْلٍ وَخَيْرٍ، وَعِزٍّ وَنَصْرٍ، وَحِفْظٍ وَحَيَاةٍ..

رِسَالَةُ الوَمْضَةِ: ارْضَ بِقَدَرِكَ بَعْدَ وُقُوعِهِ:

إِذَا ظَهَرَ لَكَ اخْتِيَارُ اللَّهِ، فَسَلِّمْ لَهُ وَارْضَ بِهِ، وَلَا تُتَمْتِمْ بِـ «لَيْتَ وَلَوْ»، فَهُوَ أَعْلَمُ بِكَ مِنْكَ، وَأَعْلَمُ بِوَقْتِ حَاجَتِكَ عَلَى مَدَى عُمُرِكَ، وَأَنْتَ لَا تَرَى إِلَّا بَعْضَ يَوْمِكَ الَّذِي أَنْتَ تَعِيشُهُ، فَاجْتَهِدْ بِالدُّعَاءِ، وَوَاصِلِ الطَّلَبَ؛ لَيْلَكَ وَنَهَارَكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ الدُّعَاءَ رَصِيدٌ مُدَّخَرٌ.. فَهَلْ يَبْخَلُ عَلَى نَفْسِهِ مَنْ أُطْلِقَ لَهُ الأَمْرُ لِيَكْتُبَ قِيمَةَ المَبْلَغِ الَّذِي يُرِيدُ فِي رَصِيدِهِ الَّذِي فُتِحَ لَهُ..؟!

ادْعُ اللَّهَ مُحْسِناً الظَّنَّ بِهِ سُبْحَانَهُ، وَلَا تَشْتَرِطْ عَلَيْهِ، وَارْتَقِبِ الإِجَابَةَ؛ تَأْتِيكَ، أَوْ تَتَأَخَّرُ...، بَلْ قَدْ لَا تَرَاهَا.. فَإِنَّ الملوك إِذَا أَخَّرُوا شَيْئاً أَعْظَمُوا العَطِيَّةَ، فَمَا بَالُكَ إِذَا ادَّخَرَهَا اللَّهُ مَعَ الضَّمَانِ وَالشَّرْطِ بِقَوْلِهِ: ﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾..؟

هَذَا ادِّخَارُ اللَّه فِي الدُّنْيَا فَكَيْفَ بِادِّخَارِهِ لَكَ فِي الآخِرَةِ؟!.

فَلْنُعْظِمْ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ، وَلْنُكْثِرْ مِنَ الدُّعَاءِ..

❊ ❊ ❊

مَا رَأَى أَهْلُهُ النَّارَ

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ عَدَمِ تَمْيِيزِ مُوسَى ﷺ تِلْكَ النَّارَ عَنِ النِّيرَانِ الأُخْرَى الَّتِي يَعْرِفُهَا حِينَ قَالَ: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾، أَمِ العَجَبُ مِنْ عَدَمِ رُؤْيَةِ أَهْلِهِ لِلنَّارِ - فِيمَا يَظْهَرُ - مَعَ أَنَّهُمْ مَعَهُ وَبِجِوَارِهِ، حيث قال لهم عن نفسه منفرداً ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ﴾؟!

رِسَالَةُ الوَمْضَةِ: تَقَدَّمْ لِلْخَيْرِ يَتَقَدَّمْ لَكَ

إِذَا لَاحَ لَكَ الْخَيْرُ فَلَا تَقْعُدْ فِي مَكَانِكَ حَتَّى وَإِنْ كُنْتَ مَعَ أَهْلِكَ وَأَحْبَابِكَ..

تَقَدَّمْ وَلَوْ كُنْتَ فِي صَحْرَاءَ، وَلَوْ كَانَتْ نَاراً بِلَيْلٍ، وَالنَّارُ عَادَةً مَا تَظْهَرُ وَكَأَنَّهَا قَرِيبَةٌ مَعَ أَنَّهَا تَكُونُ بَعِيدَةً، كَيْفَ وَمُوسَى يَقُولُ: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ﴾ وَالأَهْلُ لَمْ يَرَوْا شَيْئاً فِيمَا يَظْهَرُ؟

تَقَدَّمْ وَلَا تَنْتَظِرْ إِجْمَاعَ مَنْ مَعَكَ، فَمُوسَى ﷺ مَا انْتَظَرَ رُؤْيَةَ أَهْلِهِ النَّارَ، أَوْ شَهَادَتَهُمْ لَهُ بِذَلِكَ..

تُرَى، لَوْ قَعَدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ أَهْلِهِ - وَحَاشَاهُ - هَلْ كَانَتْ تَحْصُلُ الرِّسَالَةُ والتَّكْلِيمُ، وَرِسَالَةُ الأَخِ، وَكُلُّ خَيْرٍ جَاءَ بَعْدَهَا..؟!

تُرَى، لَوْ قَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ خَدِيجَةَ مُنْشَغِلًا بِهَا أَوْ بِتِجَارَتِهَا فِي وَادِي مَكَّةَ - وَحَاشَاهُ - هَلْ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي حِرَاءَ فِي ذِرْوَةِ الجَبَلِ الَّذِي ارْتَقَاهُ...؟!

إِنّي رَأَيْتُ وُقُوفَ الْمَاءِ يُفسِدُهُ

إِن ساحَ طَابَ وَإِنْ لَمَ يَجرِ لَم يَطِبِ

والأُسْدُ لولا فِرَاقُ الأَرضِ مَا افترَسَتْ

وَالسَّهمُ لَوْلَا فِراقُ الْقَوْسِ لَمْ يُصِبِ

والشَّمسُ لَو وَقَفَتْ فِي الْفُلْكِ دَائِمَةً

لَمَلَّهَا النَّاسُ مِن عُجْمٍ وَمِنْ عَرَبِ[1]

❊ ❊ ❊

---

(١) «ديوان الإمام الشافعي» (١/ ١٨).

الهِدَايَةُ على النَّارُ

هَلِ العَجَبُ مِنْ قَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لأَهْلِهِ: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ . . . وَهُوَ إِنَّمَا يُرِيدُ هِدَايَةَ الطَّرِيقِ وَدِفْءَ النَّارِ فِي الْبَرْدِ؟ أَمِ العَجَبُ مِنَ اجْتِمَاعِ هَذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ المُتَضَادَّيْنِ (النَّارِ وَالهِدَايَةِ)؟! فَأَصْبَحَتْ هَذِهِ النَّارُ هِدَايَةً لَهُ فِي الدُّنْيَا، وَأَصْبَحَتْ هذه الهداية نَجَاةً لَهُ مِنْ نَارِ الْآخِرَةِ، وَكَذَا رِسَالَتُهُ هَذِهِ الَّتِي بَلَغَ بِهَا أَنْ أَصْبَحَ أَعْظَمَ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمِنْ أُولِى الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

سُبْحَانَ مَنْ كَانَ مَعَ مُوسَى فِي تِلْكَ الصَّحْرَاءِ وَمَعَ أَهْلِهِ! وَإِلَّا فَمَنْ سَمِعَ قَوْلَ مُوسَى لأَهْلِهِ وَهُوَ فِي الظُّلْمَةِ الصَّحْرَاوِيَّةِ الشَّاتِيَةِ وَهُوَ يُسِرُّ لَهُمْ. . . ؟! هَكَذَا أَثْبَتَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ لِأَهْلِهِ فِي أَشْرَفِ وَأَرْفَعِ وَآخِرِ كِتَابٍ: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠].

رِسَالَةُ الوَمْضَةِ: كَفَى السِّرَ أَنْ يَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

لَا تَتَهَاوَنْ بِسِرِّكَ، وَتَخَافَتْ بِقَوْلِكَ، حَتَّى مَعَ أَهْلِكَ. .

لَا . . ، تَذَكَّرْ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ . .

كَمْ سَيُظْهِرُ اللَّهُ لِعَبْدِهِ فِي صَحَائِفَه مِنْ أَقْوَالٍ عَظِيمَةٍ قَالَهَا فِي خُفْيَةٍ مَعَ أَهْلِهِ أَوْ صَحْبِهِ وَغَيْرِهِمْ . .

نَعَمْ . . لَمْ يُسَجِّلْهَا بِالقُرْآنِ لِتَقْرَأَهَا أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ . . وَلَكِنْ سَجَّلَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي سِجِلٍّ سَيُنْشَرُ عَلَى الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ .

رِسَالَةٌ تَقُولُ: التَّقْوَى وَالْقَوْلُ السَّدِيدُ : شَرْطَانِ ضَرُورِيَّانِ لِلْصَّلَاحِ :

اتَّقِ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتَ ، وَقَوِّمْ لِسَانَكَ مَا اسْتَطَعْتَ ؛ رِعَايَةً لمُسْتَقْبَلِكَ وَقَدَرِكَ ، وَقَلْبُكَ أَبَداً مُعَلَّقٌ بِاللَّهِ ، فَلَعَلَّ اللَّهَ يُجْرِي عَلَى لِسَانِكَ أَعْظَمَ الْأَقْدَارِ وَأَحَبَّهَا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ لِيُحَقِّقَهَا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى يَدَيْكَ وَعْداً قَادِماً مُحَقَّقاً وَأَنْتَ لَا تَدْرِي ، فَتَقُولُ يَوْمَهَا : يا لَلْعَجَبِ ، كَيْفَ نَطَقْتُ بِقَدَرِي وَأَنَا لَا أَدْرِي ؟

كَيْفَ أَجْرَى اللَّهُ عَلَى يَدَيَّ الفَتْحَ العَظِيمَ ، وَمَا فُتِحَ لِي - آنَذَاكَ - بِفَهْمِ تِلْكَ الكَلِمَاتِ ؟ أَوْ يَقُولُ مَنْ يَأْتِي بَعْدَكَ :

سُبْحَانَ مَنْ أَنْطَقَ فُلَاناً بِحُسْنِ خَاتِمَتِهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي! سُبْحَانَ مَنْ بَشَّرَنَا وَفَتَحَ لَنَا عَلَى لِسَانِ فُلَانٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَنَحْنُ لَا نَدْرِي.. !

رِسَالَةٌ تَقُولُ: قَدْ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ حَفِظَ اللَّهَ فِي قَوْلِهِ الطَّيِّبِ بَيْنِهِ وَبَيْنَ أَهْلِهِ... فَحَفِظَهُ اللَّهُ لَهُ وَذَكَرَهُ لِلْعَالَمِينَ، وَأَعْطَاهُ أَعْظَمَ مِمَا رَجَاهُ.

إِيَّاكَ أَنْ تَتَسَاهَلَ فِي هَذَيْنِ الضَّابِطَيْنِ لِيُجْرِيَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِكَ الخَيْرَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي، وَيُصْلِحَ لَكَ دُنْيَاكَ وَعَمَلَكَ وَعَمَلَ الآخَرِينَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي.. إِنَّهَا «التَّقْوَى وَالقَوْلُ السَّدِيدُ»، أَلَمْ تَقْرَأْ قَوْلَ رَبِّنَا سُبْحَانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١]؟

* * *

الْحَزْمُ، وَالإِعْلَامُ، وَالتَّطْمِينُ

هَلِ العَجَبُ مِنْ أَمْرِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَهْلِهِ بِصَرَاحَةٍ وَحَزْمٍ ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ فِي هَذَا الْمَكَانِ الْمَخُوفِ، أَمِ العَجَبُ مِنْ بَيَانِ مُوسَى عَلَيه السَّلَامُ ثَمَرَةَ ذَهَابِهِ لِأَهْلِهِ رِعَايَةً لَهُمْ مِنَ الْخَوْفِ، وَرِفْقاً بِهِمْ فِي الْبَرْدِ الَّذِي أَصَابَهُمْ فَقَالَ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾؟

أَمْ العَجَبُ مِنْ طَاعَةِ الزَّوْجَةِ، وَسِتْرِهَا حَتَّى لَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - عَنْهَا فِي هَذَا الشَّأْنِ كَلِمَةً وَاحِدَةً فِي عَرْضِ مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِمَا أمر ذَهَابِهِ إلى النَّارِ، مع أَنَّه ذَكَرَ لَهَا قَبْلَ الزَّوَاجِ كَلاماً لِلْبِنْتَيْنِ مَعَ أَبِيهَا ومَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ . . . ، فَكَأَنَّهُ لَا جَوَابَ لَهَا بَعْدَ الزَوَاجِ إِلَّا الطَّاعَةُ.

رِسَالَةُ الوَمْضَةِ: الْحَزْمُ وَالْمُشَارَكَةُ

كَمْ تَكْمُلُ الرُّجُولَةُ إِذَا جَمَعَ صَاحِبُهَا مَا بَيْنَ الحَزْمِ وَالْمُشَارَكَةِ، فَمُوسَى قَالَ حَازِماً غَيْرَ مُتَرَدِّدٍ: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾، مُبَيِّناً لَهُمُ السَّبَبَ ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾، مُوَضِحاً لَهُمْ غَايَةَ

الـذَّهَـابِ ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه: ١٠]، مُحَدِّداً لَهُمْ أَنَّ مَوْعِدَ الْعَوْدَةِ هُوَ إِنْجَازُ الْمُهِمَّةِ ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾، وَأَشْـرَكَـهُـمْ فِـي الـثَّـمَـرَةِ: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، وَلَمْ يُظْهِرْ حِرْمَانَ نَفْسِهِ مِنَ القَصْدِ، فَقَالَ: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾..

فَكَمْ سَيُشَارِكُه أَهْلُهُ فِي هَذِهِ الْمُهِمَّةِ وَهُمْ فِي مَكَانِهِمْ؟

كَمْ سَيَبْقَى قَلْبُ الزَّوْجَةِ مُعَلَّقاً بِنَجَاحِ مُهِمَّةِ الزَّوْجِ؟

كَمْ سَيَدْعُونَ اللَّهَ لَهُ حَتَّى يَعُودَ ؟

كَمْ سَتَكُونُ عَوْدَتُهُ مُبْهِجَةً لَهُمْ حَتَّى لَوْ لَمْ يُنْجِزْ شَيْئاً ؟

كَيْفَ وَقَدْ جَاءَ بِكُلِّ شَيْءٍ؟!

❁ ❁ ❁

إِلَّا الزَّوْجَةُ سَمَّاهَا الْأَهْلَ

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ آلَ مُوسَى كُلٌّ بِوَصْفِهِ؛ فَذَكَرَ الْأُمَّ بِوَصْفِهَا هَذَا فَقَالَ: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾، وَذَكَرَ الْأُخْتَ بِوَصْفِهَا فَقَالَ: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾، وَذَكَرَ هَارُونَ بِوَصْفِ الْأُخُوَّةِ فَقَالَ: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ﴾، لَكِنَّهُ عَبَّرَ عَنِ الزَّوْجَةِ بِـ(الْأَهْلِ) بِقَوْلِ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾[1]..

أَمِ الْعَجَبُ مِنْ تَسْمِيَةِ الزَّوْجَةِ بِالنِّسْبَةِ لِزَوْجِهَا «امْرَأَة» حَتَّى لَوْ كَانَ زَوْجُهَا فِرْعَوْنَ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾، وَمَا قَالَ: (أَهْلُ فِرْعَوْنَ).. وَلَا سَمَّاهَا بِاسْمِ أَهْلِهَا، هَكَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ وَقَالَ: ﴿ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾، والأمر في هذا واسع ويحتمل.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: حَقُّ الْأَهْلِ:

إِذَا ذُكِرَ الْأَهْلُ قَبْلَ الزَّوَاجِ لَمْ يَطْرَأْ إِلَّا الْوَالِدَانِ وَالأُسْرَةُ،

---

(١) وفي الحديث: «واللَّه ما علمت على أهلي إلا خيراً» رواه البخاري (٢٥١٨).

وَإِذَا ذُكِرَ الْأَهْلُ بَعْدَ الزَّوَاجِ كَانَ أَوَّلُ مَا يَطْرَأُ عَلَى الذِّهْنِ هِيَ الزَّوْجَةُ، فَلَيْسَتِ الزَّوْجَةُ لِبَاساً يُرْمَى، أَوْ قِرْطَاساً يُشَقُّ وَيُحْرَقُ..

فَلْيُعْطِ الصَّالِحُونَ هَذَا الْوَصْفَ الْإِلَهِيَّ لِلزَّوْجَةِ حَقِيقَتَهُ وَمِصْدَاقِيَّتَهُ فِي حَيَاتِهِمْ؛ فَإِنَّ الزَّوْجَةَ إِذَا شَعَرَتْ أَنَّهَا الْأَهْلُ حَقّاً لَمْ تُقَدِّمْ أَهْلَهَا عَلَى زَوْجِهَا فِي الْخَيْرِ..، وَإِنَّ الزَّوْجَ إِذَا وَضَعَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ أَعْطَاهُمْ مَا كَانَ يُعْطِيْ مَنْ يَعُدُّهُمْ أَهْلاً، وَتَغَاضَى عَنْ كُلِّ عَيْبٍ يُحْتَمَلُ فِيهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلٌ، وَأَصْبَحَ الاسْتِمْتَاعُ فِي ذُرْوَتِهِ؛ لِأَنَّهُمْ قَدَرُهُ الحَبِيْبُ. وَهَكَذَا يَكُونُ جَوَابُ الأَهْلِ عَلَى هَذَا الْإِحْسَانِ. إِنَّ كَوْنَهُمْ قَدْ أَصْبَحُوا أَهْلًا لَمْ يُلْغِ الأَهْلَ الْأُوَلَ، إِنَّمَا وَسَّعَ دَائِرَةَ الْأَهْلِيَّةِ.

❊ ❊ ❊

تَقْدِيمُهُ أَخَاهُ عَلَى نَفْسِهِ

عَجِبْتُ لِمَحَبَّةِ مُوسَى عليه السلام لِأَخِيهِ هَارُونَ، وَتَقْدِيمِهِ إِيَّاهُ عَلَى نَفْسِهِ حِينَ قَالَ: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤].

وَكَانَ بِإِمْكَانِ مُوسَى عليه السلام فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنْ يَطْلُبَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُفْصِحَ لِسَانَهُ مِثْلَ أَخِيهِ أَوْ أَكْثَرَ..، لَكِنَّهُ طَلَبَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَحُلَّ عُقْدَةً وَاحِدَةً، وَلَوْ سَأَلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ لأُعْطِيَهُ كَمَا قَالَ ذَلِكَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ(١)، لِيَكُونَ ذَلِكَ عُذْراً - وَاللَّهُ يُحِبُّ العُذْرَ - فِي طَلَبِهِ الرِّسَالَةَ لأَخِيهِ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٥ - ٢٨] فَأَعْطَاهُ اللَّهُ الاثْنَتَيْنِ، حَلَّ لَهُ عَقْدَ اللِّسَانِ، وَأَرْسَلَ مَعَهُ أَخَاهُ لِيُتِمَّ لَهُ الإِعْلَامَ وَكَمَالَ البَيَانِ.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: الْأَخُ الْأَخُ

كَمْ يَخْسَرُ الرَّجُلُ حِينَ يَخْسَرُ أَخَاهُ لِأَجْلِ زَوْجِهِ أَوْ

(١) ابن كثير (٣/ ١٩٧).

وَلَدِهِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ نَقُولَ لِأَجْلِ مَالِهِ وَتِجَارَتِهِ؟!

مَنْ يَخْسَرُ أَخَاهُ لِأَجْلِ وَلَدِهِ أَوْ زَوْجِهِ فَإِنَّمَا يُوَرِّثُ أَبْنَاءَهُ الشِّقَاقَ - وَهُمْ إِخْوَةُ الْمُسْتَقْبَلِ - إِذْ هُوَ قُدْوَتُهُمُ الْيَوْمَ لِلْغَدِ، وَمَا مِنْ مَثَلٍ قُدْوَةٍ يَضْرِبُهُ الرَّجُلُ لِأَبْنَائِهِ عَلَى أَهَمِّيَّةِ وَحْدَتِهِمْ وَأُلْفَتِهِمْ مِثْلُ وَحْدَتِهِ وَأُلْفَتِهِ مَعَ إِخْوَتِهِ هُوَ.. لَا تَقُولُوا: هَذَا مَعْنًى بَعِيدٌ! فَمَاذَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَطْلُبَ مُوسَى لِأَخِيهِ الرِّسَالَةَ، وَمَا طَلَبَهَا لِعَقِبٍ قَادِمٍ، وَلَعَلَّ زَوْجَهُ كَانَتْ حَامِلاً؟ أَوْ مُؤَمِّلاً حَمْلاً، فَمَا طَلَبَ لِزَوْجِهِ شَيْئاً وَهِيَ مَعَهُ فِي رِحْلَتِهِ..

أَلَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ. حَتَّى وَإِنْ كَانَ طَلَبَ شَيْئاً لَهَا فَإِنَّ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَاضِحٌ تَمَامَ الْوُضُوحِ، والْمَظْنُونُ أَنَّهَا تَدْخُلُ فِي ضِمْنِ الْخَيْرَاتِ الَّتِي لِزَوْجِهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَمَا مِنْ حِمَايَةٍ مِنَ الْأَبْنَاءِ الْعَاقِّينَ إِذَا كَبِرُوا عِنْدَ إِرَادَتِهِمُ الْعُدْوَانَ عَلَى أَبِيهِمْ مِثْلُ الْتِجَاءِ الأَبِ لِإِخْوَانِهِ، وَلَا يَقُولَنَّ أَحَدٌ إِنَّ الْعَكْسَ صَحِيحٌ، فَإِنَّ إِخُوةَ الْأَبِ فِي الْكِبَرِ تَكُونُ قَدْ ذَهَبَتْ عَنْهُمْ فَوْرَةُ الشَّبَابِ، وَتَخَاصُمُ الْأَقْرَانِ، وَتَحَوَّلَ التَّخَاصُمُ إِلَى ذِكْرَيَاتٍ وَتَسْلِيَةٍ.

❊ ❊ ❊

تَرْكُهُ الطِّفْلَ الوَلِيدَ

هَلِ العَجَبُ مِنْ تَبْقِيرِ فِرْعَوْنَ بُطُونَ الْأُمَّهَاتِ فِي بُطُونِ البُيُوتِ أَمِ العَجَبُ مِنْ تَرْكِهِ قَصْرَهُ وَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا طِفْلٌ وَحِيدٌ؟!

أَمِ الْعَجَبُ مِنْ غَلَبَةِ عَاطِفَةِ فِرْعَوْنَ نَفْسِهِ، وَالأَمْرُ يَخُصُّ مَصِيرَهُ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾، فَهِيَ الْغَلَبَةُ الَّتِي لَا تُطَاقُ..، غَلَبَةُ الْمَحَبَّةِ عَلَى الفَرْعَنَةِ، وَالْحِقْدِ وَالانْتِقَامِ..

رِسَالَةُ الوَمْضَةِ: اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ:

إِنْ ذَكَرْتَ أَمْرَ فِرْعَوْنَ فِي مِصْرَ أَوْ غَيْرِهَا، وَاعْتَقَدْتَ أَنَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ عَلَى حِسَابِ مُعْتَقَدِكَ: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾!، خُذْ بِمَا شِئْتَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَشْرُوعَةِ، وَلَا تَرْكَنْ لِأَيِّ سَبَبٍ، مُعْتَقِداً أَنَّ اللَّهَ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ..، وَسَتَرَى...، أَمْرُ اللَّه أَمْ أَمْرُ فِرْعَوْنَ؟!

سُبْحَانَ مَنْ يُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ! أَفَلَا يُقَلِّبُ عَاطِفَةَ فِرْعَوْنَ وَمَشَاعِرَهُ. . ، يَحْمِيكَ سُبْحَانَهُ بِهِ مِنْهُ، وَلَا يُمَكِّنُ شَظْيَةً مِنْ نَارِهِ، وَلَا شَعْرَةً مِنْ سِحْرِهِ، وَلَا تَنْفُذُ إِلَيْكَ قَطْرَةً مِنْ سُمِّهِ، وَأَخِيراً. . ، فَإِنَّهُ هُوَ مَنْ سَيَغْرَقُ بِالْأَنْهَارِ حَيْثُ كَانَ يُفَاخِرُ بِهِا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ.

❋ ❋ ❋

عِبَادَتُهُمْ حَتَّى بَعْدَ التَّحْرِيفِ

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ تَدْمِيرِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَحْرِيقِهِ لِلْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ، وَعَدَمِ إِرْجَاعِهِ الذَّهَبَ لِأَصْحَابِهِ، أَوْ إِنْفَاقِهِ فِي وُجُوهِ الخَيْرِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧]، أَمِ الْعَجَبُ مِنْ عِبَادَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَهُ بَعْدَ خَسَارَتِهِمْ لِذَهَبِهِ، وَبَعْدَ إِحْرَاقِهِ بِكُلِّيَّتِهِ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ﴾ [البقرة: ٩٣]؟!

أَلَّا تَرَى لَوْ أَنْ مُوسَى مَزَّقَ العِجْلَ الذَّهَبِيَ مِزَقاً، وَقَطَّعَهُ إِرْباً، وَقَسَّمَ تِلْكَ القِطَعَ إِلَى قِطَعٍ وَقِطَعٍ، ثُمَّ قَسَّمَ تِلْكَ القِطَعَ عَلَى فُقَرَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ سَوْفَ يَتَبَرَّكُونَ بِهَا إِلَى حَدِّ العِبَادَةِ، وَيَعْتَقِدُونَ بِهَا إِلَى حَدِّ التَّأْلِيهِ، وَيَتَوَارَثُونَهَا وَلَداً بَعْدَ وَالِدٍ إِلَى أَنْ يَنْقَطِعُوا. . . ، فَكَيْفَ لا يُحَرِّقُهُ مُوسَى، وَيَنْسِفُ رَمَادَهُ فِي البَحْرِ حَتَّى لا يَبْقَى مَا يُجْمَعُ مِنْهُ. . . ، فَهُوَ أَعْرَفُ بِقَوْمِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلام، هَذَا هُوَ الفِقْهُ، وَهُوَ الحَزْمُ، وَهِيَ الْغَيرَةُ الْحَقَّةُ عَلَى التَّوْحِيدِ إلى يوم القيامة.

رِسَالَةُ الوَمْضَةِ: إِيَّاكَ وَلَهْوَ الْقَلْبِ!

إِذَا انْشَغَلْتَ بِشَيءٍ غَيْرِ اللَّهِ فَلْتَشْتَغِلْ جَوَارِحُكَ، أَمَّا قَلْبُكَ فَلَا..

اجْمَعْ لَهْوَكَ وَاجْرُدْهُ جَرْداً، وَانْظُرْ فِي كُلِّ لَهْوٍ دَخَلَ قَلْبَكَ فَاقْطَعْهُ، فَلَرُبَّما تَهَاوَنْتَ بِهِ فَقَطَعَكَ..

أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

فَلَهْوُ الْقُلُوبِ سَلَبَهَا وَضَيَّعَهَا، وَهُوَ يَعْنِي ذَهَابَ الْخُشُوعِ مِنْهَا، وَذَهَابَ تَوَجُّهِهَا نَحْوَ اللَّهِ، وَهُوَ مَنْ إِلَيْهِ الْمُنْتَهَى..

كَانَ تَحْرِيقُ الْعِجْلِ كَافِياً لِأَنْ يَحْرِقُوهُ فِي قُلُوبِهِمْ، فَلَا يَبْقَى إِلَّا رَمَادُهُ، وَكَانَ نَسْفُ رَمَادِهِ كَافِياً لأَنْ تُنْسَفَ آخِرُ ذَرَّاتِهِ مِنَ الْقُلُوبِ، لَكِنْ لَمَّا أُشْرِبَتِ الْقُلُوبُ حُبَّهُ أَصْبَحَ شَرَابُهُ فِي ذَرَّاتِ الْقَلْبِ وَفِي تَكْوِينِهِ، فَصَعُبَ قَلْعُهُ إِلَّا بِقَلْعِ الْقَلْبِ مِنْ أَصْلِهِ..، وَهَلْ كَانَ التِّيهُ إِلَّا عِقَاباً وَاسْتِبْدَالاً؟!

العَجَلَةُ

هَلِ العَجَبُ مِنَ اخْتِيَارِ السَّامِرِيِّ الشِّرْكَ الجَدِيدَ وَهُوَ «العِجْلُ»، لِيَكُونَ المَعْبُودَ لِلْقَوْمِ الَّذِي اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ إِلَّا قَلِيلًا، أَمِ العَجَبُ مِنَ اجْتِمَاعِ المُوَاصَفَاتِ وَالأَحْدَاثِ وَالأَسْبَابِ فِي العَجَلَةِ، فَـ«العَجَلَةُ»[١] كَانَتْ صِفَةَ مُوسَى[٢] فِي ذَهَابِهِ لِرَبِّهِ وَتَرْكِهِ قَوْمَهُ وَرَاءَهُ بَعِيداً حَيْثُ قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، وَقَدْ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾، وَبِالعَجَلَةِ قَضَى مُوسَى فِي اليَوْمِ الأَوَّلِ عَلَى الظَّالِمِ الفِرْعُونِّي، وَكَادَ أَنْ يَبْطِشَ فِي اليَوْمِ الثَّانِي بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا فَاسْتَدْرَكَ.

---

(١) لم يصح أن العجل مشتق من العجلة وإن قال به البعض، وهذا مما استدركناه في هذه الطبعة لمشورة ناصحين، جزاهم اللَّه خيراً، وفي التاج/ عجل: والعِجْل ولد البقرة. قال الراغب: «تُصُوِّر فيه العَجَلةُ إذا صار ثوراً. . .» وليس هذا بالصواب.
قال الدكتور الخطيب: «واجتهاد الراغب مردود».

(٢) لكنَّهَا عَجلةٌ فيهَا خَيرٌ.

وَبِالعَجَلَةِ لَمْ يَسْتَطِعْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَبْراً مَعَ الخِضْرِ أَكْثَرَ مِمَّا صَبَرَ فَخَتَمَ لَهُ الخِضْرُ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، وَمَا كَانَ ذَاكَ نَقْصاً فِي مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحَاشَاهُ، إِنَّمَا هِيَ الخِلْقَةُ الَّتِي اَسْتَثْمَرَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نِعْمَ الاسْتِثْمَارِ.. وَكَانَتْ لَهُ زِينَةً وَضَرُورَةً كَمَا المِلْحُ فِي الطَّعَامِ لِظَرْفِهِ وَقَوْمِهِ. أَمَّا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ شَيْءٌ آخَرُ.

وَ«العَجَلَةُ» هِيَ صِفَةُ عَمَلِ السَّامِرِيِّ؛ إِذْ إِنَّهُ يَجْرِي وَرَاءَ جِبْرِيلَ فِي البَحْرِ، وَيَأْخُذُ مِنْ آثَارِهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾، وَ«العَجَلَةُ» صِفَةُ فِرْعَوْنَ حِينَ اخْتَارَ السَّيْرَ سَرِيعاً دُونَ أَنْ يَتَرَيَّثَ وَرَاءَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَدَخَلَ البَحْرَ وَرَاءَهُ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾، وَهِيَ صِفَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ اسْتَعْجَلُوا عَلَى مُوسَى، فَقَالُوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، وَ«العَجَلَةُ» هِيَ صِفَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ تَرَاءَى الجَمْعَانِ، فَقَالَ أَصْحَابُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾.

رِسَالَةُ الوَمْضَةِ: أَصْحَابُ الْعَجَلَةِ هَلَكُوا:

كَثِيراً مَا يُبْتَلَى الْعَالِمُ الرَّبَّانِيُّ الْمُرَبِّي بِقَوْمٍ صِفَتُهُمُ

الْعَجَلَةُ، وَكُلُّ مُسْتَعْجِلٍ عَادَةً مَا يَأْخُذُ قَائِدَهُ الْمُتَرَيِّث بِأَمْرَيْنِ: تَبْرِيرَاتٌ تَقْتَضِي التَّعْجِيلَ، وَتَصْوِيرُ التَّأَخُّرِ فَوَاتاً للخَيْرِ، وَالثَّانِي: حَمَاسَةٌ جَارِفَةٌ لِرَأْيِهِ يَصْعُبُ أَنْ يُوقِفَهَا عَادَةً مَنْ لَا يَمْلِكُ قُوَّةً فَذَّةً، وَسُلْطَةً نَافِذَةً..

أَرَأَيْتَ مَاذَا صَنَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِهَارُونَ حِينَ حَاوَلَ مَنْعَهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ..؟

وَهَلْ رَأَيْتَ مَاذَا صَنَعَ مُوسَى بِهَارُونَ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَمَّا رَجَعَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَبِينَ أَمْرَهُ..؟

ثُمَّ لَمَّا عَلِمَ اسْتَغْفَرَ لِنَفْسِهِ وَلأَخِيهِ..

فَلْيَزْدَدْ أَهْلُ الرَّيْثِ رَيْثاً إِذَا أُرِيدَ مِنْهُمُ الْعَجَلَةُ «ورُبَّ عجلةٍ وهبتْ رَيْثاً»..

وَمَا رَأَيْتُ مَرَّةً صَفْقَةً تِجَارِيَّةً أَوْ نَحْوَهَا أُرِيدَ لهَا التَّحْوِيلُ الْعَاجِلُ أَو الكَفَالَةُ الفَوْرِيَّةُ إِلَّا كَانَتْ تَحْمِلُ وَرَاءَهَا أَمْراً مُخِيفاً، وَهَذَا الْأَمْرُ غَالِباً مَا يَحْمِلُ جَهَالَةً أَوْ خَلَابَةً..

وَيَكْفِي هَذِهِ الطَّرِيقَ ذَمّاً أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ مَصْدَرَهَا الدُّنْيَا، فَيُسَمِّيهَا بِهَذَا الاسْمِ «العَاجِلَةَ» فَيَقُولُ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ

يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

وَاللَّهُ يَأْمُرُ نَبِيَّهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧، ٥٨].

* * *

تَغيَّرَتِ الْمَعَالِمُ وَلَمْ تتغيَّرْ قُلُوبُهُمْ!

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ نَتْقِ الْجَبَلِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ وَرَفْعِهِ فَوْقَ رُؤُوسِهِم: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١]..، أَمِ الْعَجَبُ مِنْ عَدَمِ تَغَيُّرِ قُلُوبِهِمْ وَقَدْ غُيِّرَتْ مَعَالِمُ الْأَرْضِ وَهُمْ يَشْهَدُونَ..؟

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: وُجُوبُ الْبَلَاغِ

حَقّاً، إِنَّ الْهِدَايَةَ بِيَدِ اللَّهِ، فَبَيْنَما قَالَ اللَّهُ تَعالَى عَنْ قُلُوبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] وَأَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَى قَسْوَتِهَا وَعَدَمِ تَفَتُّحِهَا لِلْهِدَايَةِ عَلَى خِلَافِ الْحِجَارَةِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ رَفْعُ الْجَبَلِ بِرُمَّتِهِ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ، وَمَا تَغَيَّرَتْ

قُلُوبُهُمْ، فَأَنَّى لهَؤُلَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا. . ؟!

وَمَعَ كُلِّ هَذَا فَمَا أَيْأَسَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّداً ﷺ مِنْ هِدَايَةِ الْيَهُودِ بَلْ كَلَّفَهُ بِتَبْلِيغِهِمْ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ مَعَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وَلأَجْلِ هَذَا الْقَلِيلِ الَّذِي عَلِمَهُ اللَّهُ فَدَعْوَتُهُمْ وَاجِبَةٌ، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ لَرَفَعَ وُجُوبَ دَعْوَتِهِمْ كَمَا رَفَعَهَا عَنْ رَسُولِهِ نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

رِسَالَةٌ تَقُولُ: أَفَيَلِيقُ بِدَاعِيَةٍ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَيْأَسَ مِنْ قَوْمِهِ وَهُمْ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟

أَمْ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتْرُكَ دَعْوَةَ النَّصَارَى وَهُمْ بِعِلْمِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ الأَقْرَبُ مَوَدَّةً: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢] يَا لَلْوَاجِبِ عَلَيْنَا مَا أَعْظَمَهُ. . . وَيَالَتَفْرِيطِنَا مَا أَعْظَمَهُ؟!

وَاجَهُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا وَاجَهُوهُ بِهِ، وَمَعَ هَذَا اسْتَمَرَّ

حَتَّى مَاتَ عَلَى ذَلِكَ! وبلَّغ - سُبْحَانَهُ - مُحَمَّداً بِأَخْلاقِهِمْ وَأَمرهُ بِإِبْلاغِهِم، وَمَاتَ مَسْمُوماً بِسُمِّهِمْ. . . ! ثُمَّ جِئْنَا بَعْدَ ذَلِكَ وَوَرِثْنَا وَاجِبَ إِبْلاغِهِمْ، وَوَاجِبَ الثَّأْرِ مِمَّنْ عَانَدَ مِنْهُمْ - وَهَذَا هُوَ الأَصْلُ فِيهِمْ - ثَأَراً لِقَتْلِهِمْ رَسُولَنَا ﷺ، فَهَلْ يَنْسَى صَاحِبُ الدَّعْوَةِ دَعْوَتَهُ؟! أَمْ يَنْسَى صَاحِبُ الثَّأْرِ ثَأْرَهُ؟!

* * *

مُرَاعَاةُ اللَّه وَمُرَاعاةُ رَسُولِهِ ﷺ

هَلِ العَجَبُ مِنْ إِسْرَاعِ النَّبِيِّ ﷺ فِي صَلَاتِهِ إِذَا سَمِعَ بُكَاءَ صَبِيٍّ مُرَاعَاةً لِقَلْبِ امْرَأَةٍ تَخَافُ عَلَى وَلَدِهَا.. **أَمِ العَجَبُ** مِنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣]، فَعَمَلُ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ بِبُكَاءٍ يُسْمَعُ، وَعَمَلُ اللَّهِ كَانَ بِقَلْبٍ يَحْزَنُ..، فَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مَنِ اسْتَدَلَّ عَلَى قَلْبِ الْأُمِّ بِبُكَاءِ الصَّبِيِّ، وَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَحْتَاجُ لِدَلِيلٍ عَلَى فَرَاغِ قَلْبِ الأُمِّ! سُبْحَانَهُ..!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: الْحَظِ اللُّطْفَ الْخَفِيَّ واشْكُرْ:

لِلَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَلَيْنَا مِنَ الْمِنَنِ مَا لَا يُحْصَى، لَكِنَّنَا لَمَّا لَمْ نَرَ أَثَرَ بَعْضِهَا عَلَى مَظَاهِرِنَا نَسِينَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْنَا بِهَا، فَكَمْ مَرَّةٍ كَادَتْ تَزِيغُ قُلُوبُ رِجَالٍ، وَكَادَ أَثَرُ الزَّيْغِ يَظْهَرُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، أَوْ عَلَى قَرَارَاتِهِمْ، أَوْ عَلَى

جَوَارِحِهِمْ. . لَكِنَّ تَثْبِيتَ اللَّهِ لِتِلْكَ الْقُلُوبِ وَرَبْطَهُ - سُبْحَانَهُ - عَلَيْهَا جَعَلَ الْمَوْقِفَ الْمُزَلْزِلَ يَمُرُّ بِسَلَامٍ، وَالفِتْنَةَ تَمْضِي، وَالْمَكْرَ يَبْطُلُ، كَأَنْ لَمْ يَكُنْ شَيءٌ، بَيْنَما كَانَ الْأَمْرُ فِي غَايَةِ الصُّعُوبَةِ، وَمَا هِيَ إِلَّا فَتْرَةٌ حَتَّى نَسِيَ ذَلِكَ الْفَضْلَ الَّذِي لَا يُحْصَى، وَلَرُبَّمَا لَمْ يَنْتَبِهُوا لَهُ حَتَّى فِي لَحْظَتِهِ وَذَلِكَ لِلُطْفِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ عَلَى عَبْدِهِ، فَسُبْحَانَهُ مِنْ رَبٍّ كَرِيمٍ جَلِيلٍ. . شَكُورٍ لَطِيفٍ خَبِيرٍ، عَفُوٍّ يُحِبُّ العَفْوَ. .

❋ ❋ ❋

أَخْطَرُ تَهْدِيدٍ لِمُوسَى السِّجْنُ

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ بَطْشِ فِرْعَوْنَ بِالسَّحَرَةِ وَغَيْرِهِمْ مَعَ عَدَمِ مَسَاسِهِ بِمُوسَى عليه السلام ، **أَمِ العَجَبُ** مِنْ عَدَمِ إِيذَائِهِ مُوسَى مَعَ أَنَّهُ الْوَلِيدُ الَّذِي رَبَّاهُ فِي قَصْرِهِ، ثُمَّ جَاءَهُ كَبِيراً، فَعَرَفَهُ وَعَرَّفَهُ بِنَفْسِهِ مُعْلِناً لَهُ أَنَّهُ رَسُولٌ نَبِيٌّ؟

أَمِ الْعَجَبُ مِن اعْتِذَارِهِ لِمُوسَى بِقَوْلِهِ: ﴿لَمَجْنُونٌ﴾؟

وَإِلَّا فَمَا مَصِيرُ مُوسَى عِنْدَ فِرْعَوْنَ لَوْ قَالَ فِرْعَوْنُ عَنْهُ إِنَّهُ عَاقِلٌ عَامِدٌ غَيْرَ مَجْنُونٍ؟

أَمِ العَجَبُ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَشَدَّ مَصِيرٍ يُهَدِّدُ بِهِ فِرْعَوْنُ مُوسَى السِّجْنُ، فَيَقُولُ: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، مَعَ أَنَّهُ قَالَ لِلسَّحَرَةِ عَلَى رَغْمِ أَنَّهُمْ أَتْبَاعٌ لِمُوسَى عليه السلام : ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤].

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: لَنْ يُمْكَّنَ الْعَدُوُّ:

أَيَمْضِي قَرَارُ فِرْعَوْنَ فِي مُلْكِ اللَّهِ بِخِلَافِ إِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى؟!

أَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِمَخْلُوقٍ مَشِيئَةٌ ضِدَّ مَشِيئَةِ اللَّهِ تعَالَى..؟!

أَمْ يُمَكَّن لِفِرْعَوْنَ مِنَ الْعُدْوَانِ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]؟!.

وَيقُولُ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

أَفَمَنْ كَانَ مَعَ مُوسَى وَلَمْ يَمَسَّهُ شَيءٌ لَا يَكُونُ مَعَ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

وَيقُولُ: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].

عَجَباً، كَيْفَ يَتَزَلْزَلُ إِيْمَانُ الَمُؤْمِنِ مِنْ أَثَرِ صَوْلَجَةٍ، وَبَهْرَجَةٍ، وَدَمْلَجةٍ، وَعِنْدَهُ مَا عِنْدَ مُوسَى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

❃ ❃ ❃

وِرَاثَةُ التَّنَاقُضِ

عَجَباً لِلْقُرْآنِ، كَيْفَ أَظْهَرَ تَنَاقُضَ فِرْعَوْنَ وَكَذِبَهُ، فَهُوَ يَقُولُ لِلْمَلَإِ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، لَكِنَّهُ سَرْعَانَ مَا يَقُولُ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] وَهَلِ الْمَجْنُونُ يُعَاقَبُ؟!

بَلْ، مَاذَا يُسَمَّى مَنْ يُعَاقِبُ الْمَجْنُونَ؟!

أَمِ الْعَجَبُ كَيْفَ أَظْهَرَ اللَّهُ بَعْدَ قَلِيلٍ تَنَاقُضَ فِرْعَوْنَ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]؟!

هُنَاكَ قَالَ مَجْنُونٌ، وَهُنَا قَالَ عَنْهُ بِأَنَّهُ عَلِيمٌ!

فَهَلِ العَجَبُ مِنْ تَنَاقُضِ فِرْعَوْنَ أَمِ العَجَبُ مِنْ بَقَاءِ سُنَّةِ التَّنَاقُضِ فِي كُلِّ مَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِ مِنَ الفَرَاعِنَةِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ..؟!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: اضْطِرَابٌ لاضْطِرَابِ الْمَنْهَجِ:

لَيْسَ فِي الْوُجُودِ أَحَدٌ أَكْثَرَ تَوَافُقاً وَاتِّفَاقاً مَعَ نَفْسِهِ وَمَعَ

آرَائِهِ مِنْ أَوَّلِ حَيَاتِهِ إِلَى آخِرِهَا مِنَ الْمُلْتَزِمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ فِي أُطْرُوحَاتِهِ.

أَمَّا غَيْرُ هَؤُلَاءِ فَمَنْهَجُهُمْ الاضْطِرَابُ وَالاخْتِلَافُ، وَرَبُّنَا يَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فَبِمَا أَنَّ هَؤُلَاءِ يَأْخُذُونَ مِنْ غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَغَيْرُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا أُخِذَ مِنْهُمَا مَنَاهِجُ مُتَضَارِبَةٌ فِي دَاخِلِهَا وَخَارِجِهَا، فَلَا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ أَثَرُهَا عَلَى أَصْحَابِهَا أَعْظَمَ الظُّهُورِ.. حَتَّى لَوْ كَانَ أَعْلَى الرُّؤوسِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ حَوْلِهُ مِنَ الْمُسْتَشَارِينَ الْمُتَخَصِّصِينَ الكَثِيرُ الكَثِيرُ.

* * *

الإِجَابَةُ قَبْلَ الدُّعَاءِ

عَجِبْتُ لِسَبْقِ الْإِجَابَةِ الدُّعَاءَ، وَوُصُولِ طَلَائِعِ الْإِجَابَةِ قَبْلَ رَفْعِ الدُّعَاءِ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

فَخُرُوجُهُ قَدْ تَمَّ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ أَوَّلُ خُطَى النَّجَاةِ، فَجَاءَ بَعْدَ الْخُرُوجِ الدُّعَاءُ.

وَهَكَذَا الْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ - سُبْحَانَهُ - عَنْ مُوسَى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢].

فَتَوَجُّهُهُ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ هُوَ أَوَّلُ خُطَى الْهِدَايَةِ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ الَّتِي سَأَلَها رَبَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَسُبْحَانَهُ مِنْ رَبٍّ عَلِيمٍ عَظِيمٍ كَرِيمٍ، سَمِيعٍ مُجِيبٍ، وَدُودٍ قَرِيبٍ.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: أَيُّهُمَا أَسْبَقُ: الدُّعَاءُ أَمِ الْإِجَابَةُ؟

ادْعُ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - فَلَعَلَّ مَا دَعَوْتَ بِهِ قَدْ نَزَلَتْ إِجَابَتُهُ

وَأَنْتَ لَا تَدْرِي . .

ادْعُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَلَعَلَّكَ قَدْ خَطَوْتَ نَحْوَ الْإِجَابَةِ خُطُوَاتٍ، وَلَعَلَّ اللَّهَ سَيَّرَكَ نَحْوَ مَا أَنْزَلَ مِنْ إِجَابَتِهِ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي .

لَكِنْ أَخْبِرْنِي : مَنْ لَمْ يَدْعُ اللَّهَ تَعَالَى كَيْفَ تَتَقَدَّمُ لَهُ الْإِجَابَةُ؟

❊ ❊ ❊

ومضات العجب مع قصة سليمان عليه السلام

من القرآن الكريم

تَجْرِي بِأَمْرِهِ

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١]، أَمِ الْعَجَبُ أَنَّ حَمْلَهَا، وَعَصْفَهَا، وَشِدَّتَهَا، وَخِفَّتَهَا، وَسُكُونَهَا، وَزِيَادَةَ ذَلِكَ وَنُقْصَانَهُ، كُلُّ ذَلِكَ جُعِلَ بِأَمْرِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.. ﴿عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: (عَاصِفَةً تجري بِأَمْرِنَا).

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: سُبْحَان الْوَهَّابِ[1]:

رُبَّمَا تَكُونُ ذَكِيّاً، وَيَكُونُ وَلَدُكَ الَّذِي مِنْ صُلْبِكَ غَيْرَ ذَكِيٍّ، فَمِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ تَهَبَ مِنْ عَقْلِكَ ذَكَاءً لِوَلَدِكَ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيم، وَرُبَّما تَكُونُ قَوِيّاً وَصَدِيقُكَ الضَّعِيفُ بِجِوَارِكَ يُرِيدُ أَنْ يَحْمِلَ شَيْئاً.. فَمِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ تَمْنَحَهُ شَيْئاً مِنْ قُوَّتِكَ لِيُصْبِحَ قَوِيّاً بِذَاتِهِ دُونَ أَنْ تَمَسَّ شَيْئاً أَوْ

(١) قد ذكر الشيخ الشعراوي رحمه الله أصل هذه الفكرة عند تفسير: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ﴾، ومنه انطلقت فكرة هذه الومضة خاصة عندي.

تُحرِّكَ شَيْئاً أَوْ تَحْمِلَ مَعَهُ؛ لِأَنَّ قُوَّتَكَ قَاصِرَةٌ عَلَيْكَ، وَهَكَذَا ذَكَاؤُكَ وَبَقِيَّةُ صِفَاتِكَ. . .، أَمَّا اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - فَلَا. .

فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ حِينَ شَاءَ أَعْطَى أَمْرَ الإِحْيَاءِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَحْيَا الطَّيْرَ، وَأَعْطَاهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَصَنَعَ مَا صَنَعَ، وَهُوَ - سُبْحَانَهُ - مَنْ يَشْفِي حَقِيقَةً، وَقَدْ أَعْطَى الشِّفَاءَ الْحَقِيقِيَّ - وَلَيْسَ العِلَاجَ الطِّبِّيَّ - لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ - سُبْحَانَهُ - الْآمِرُ الْمُطَاعُ، وَكُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرٍ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، وَهُنَا يَجْعَلُ - سُبْحَانَهُ - أَمْرَ الرِّيحِ بِيَدِ سُلَيْمَانَ، وَلَمْ يُحِلْ سُلَيْمَانَ عَلَى مَلَكٍ أَوْ غَيْرِهِ، فَقَدْ أَصْبَحَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ مَنْ يَأْمُرُ الرِّيحَ فَتُطِيعُ. . .

أَلَيْسَ مِنْ صِفَاتِهِ: الْوَهَّابُ سُبْحَانَهُ. . .، فَالْوَهَّابُ لِمَا يَشَاءُ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَالْوَهَّابُ بِسَبَبٍ وَبِغَيْرِ سَبَبٍ، وَالْوَهَّابُ بِغَيْرِ حَدٍّ وَلَا حِسَابٍ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩].

فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، مَا أَعْظَمَ غَفْلَةَ العِبَادِ عَنِ الحَقَائِقِ وَانْشِغَالَهُمْ بِالمَظَاهِرِ وَالصُّوَرِ!

* * *

أَيْنَ النِّعَمُ مِنَ الشُّكْرِ؟

هَل الْعَجَبُ مِنْ طَلَبِ سُلَيْمَانَ شُكْرَ كُلِّ هَذِهِ النِّعَم الَّتِي مَنَّ اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِ، **أَم العَجَبِ** مِنْ طَلَبِ سُلَيْمَانَ شُكْرَ النِّعَم الَّتِي مَنَّ اللَّهُ بِهَا عَلَيَّ وَالِدَيْهِ عَلَى رَغْم عَظَمَتِهَا وَكَثْرَتِهَا وَغَرَابَتِهَا، فَقَالَ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] أَم العَجَبُ مِنْ قَبُولِ اللَّهِ جُهْدَ الْعَبْدِ الضَّعِيفِ وَشُكْرَهُ الَّذِي هُوَ عَلَى قَدْرِهِ، وَلَوْلَا قَبُولُهُ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ مِنَ العَبْدِ لَمَا ذَكَرَهُ عَنْ عَبْدِهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: غَايَتُكَ شُكْرُهُ سُبْحَانَهُ:

مَا مِقْدَارُ النِّعَم الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكَ بِالنِّسْبَةِ لِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى دَاوُدَ وَسُلَيْمانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؟ إِنَّهَا لَا تُذْكَرُ بِجِوَارِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمَا. . وَمَعَ هَذَا امْتَدَحَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالشُّكْرِ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى قَبُولِهِ شُكْرَهُمَا مُقَابِلَ كُلِّ مَا أَنْعَمَ سُبْحَانَهُ.

رِسَالَةٌ تَقُولُ: مَنْ تَصَوَّرَ الشُّكْرَ مُكَافَأَةً حَقِيقِيَّةً لِلنِّعْمَةِ فَقَدْ أَبْخَسَ النِّعْمَةَ قَدْرَهَا، وَلَمْ يَعْرِفْ لِرَبِّهِ - سُبْحَانَهُ - حَقَّهُ.. الْعِبْرَةُ لَيْسَتْ بِشُكْرِكَ ذاته، إِنَّمَا الْعِبْرَةَ بِقَبُولِ اللَّهِ شُكْرَكَ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِهِ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ، وَلِذَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»**[1].

فَلْيُوقِفِ الْعَبْدُ غَايَةَ حَيَاتِهِ عَلَى شُكْرِ اللَّهِ، فَقَدْ وَقَفَ الشَّيْطَانُ حَيَاتَهُ الطَّوِيلَةَ عَلَى صَدِّ النَّاسِ عَنْ شُكْرِ اللَّهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ عَنْهُ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٢- ١٧].

وَلْيَشْعُرِ الْعَبْدُ بِعَجْزِهِ الْحَقِيقِيِّ عَنِ الشُّكْرِ الْحَقِيقِيِّ،

(١) «صحيح مسلم» باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب.

فَذَلِكَ هُوَ الشُّكْرُ الحَقِيقِيُّ، كَمَا رُوِيَ أَنَّ مُوسَى قَالَ: «رَبِّي، أَيُّ عِبَادَةٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شُكْرِي، قَالَ مُوسَى: لأَشْكُرَنَّكَ». . وَذَهَبَ مُوسَى يَعْمَلُ جَاهِداً، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ فَتْرَةٍ قَالَ: «رَبِّي، هَلْ شَكَرْتُكَ؟ قَالَ: لَا»، فَذَهَبَ مُوسَى، ثُمَّ عَادَ، فَقَالَ: «هَلْ شَكَرْتُكَ يَا رَبِّ؟ فَقَالَ اللَّهُ: لَا»، فَذَهَبَ ثُمَّ عَادَ، وَهَكَذَا كَانَ الجَوَابُ، فَقَالَ مُوسَى: «رَبِّ، عَجَزْتُ عَنْ شُكْرِكَ! فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: الْآنَ شَكَرْتَنِي»[١]. هَذَا هُوَ الشُّكْرُ الحَقِيقِيُّ، إِنَّهُ الإِحْسَاسُ بِالْعَجْزِ عَنِ الشُّكْرِ مَعَ أَدَاءِ مَا يَسْتَطِيعُ الْعَبْدُ مِنَ الشُّكْرِ، وَمَعَ أَنَّنِي أَحْسِبُهَا مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ لَكِنْ مَا أَبْلَغَ مَا تَحْمِلُهُ مِنْ عِبْرَةٍ!

❊ ❊ ❊

(١) ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١/ ٧).

دُعَاءٌ بِالْوَزْعِ للشُّكْرِ

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ مَعْرِفَةِ سُلَيْمَانَ عليه السلام نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِدْرَاكِهِ لِحَقِّهَا، **أَمِ الْعَجَبُ** مِنْ طَلَبِ سُلَيْمَانَ مِنْ رَبِّه أَنْ يَزِعَهُ وَزْعاً[(١)] لِشُكْرِهَا: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ﴾ فَالْمَعْرِفَةُ وَحْدَهَا لَا تَكْفِي، وَالْاعْتِرَافُ لَا يَكْفِي، إِنَّهُ يُرِيدُ الْعَمَلَ شُكْراً وَالشُّكْرَ عَمَلاً، وَهَذَا تَعْرِيفُ الشُّكْرِ، وَهَذَا فَارِقُهُ الْأَهَمُّ عَنِ الْحَمْدِ، وَهُوَ مَا نَصَّ عَلَيْهِ رَبُّنَا فِي آيَةٍ أُخْرَى نَصّاً بِقَوْلِهِ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ﴾ [سبأ: ١٣].

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: اشْكُرْ نِعَمَ اللَّهِ عَلَى وَالِدَيْكَ:

هَلْ كَانَ دَاوُدُ وَالِدُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مُقَصِّراً فِي شُكْرِ رَبِّهِ - وَهُوَ النَّبِيُّ الْمَلِكُ عليه السلام، رَأْسُ آلِ دَاوُدَ الْكِرَامِ؟!

حَاشَاهُ، وَمَعَ هَذَا كَانَ سُؤَالُ سُلَيْمَانَ عليه السلام أَنْ يَزَعَهُ اللَّهُ

---

(١) أوزعته بالشيء: أغريته فأُوزع به فهو مُوزَعٌ به، أي مُغْرىً به، والمصدر «وَزُوعاً» [اللسان مادة (وزع)].

تَعَالَى الشُّكْرَ عَنْهُ وَعَنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَقَالَ: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ [النمل: ١٩]، فَنِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى الْوَالِدَيْنِ أَصْلُ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ - أَيُّهَا الْوَلَدُ - فَلَا تَغْتَرَّ، وَلَا تَغْفَلْ.

وَإِنَّ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ أَنْ تَشْكُرَ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَنْكَ وَعَنْهُمَا.

الرِّسَالَةُ تَقُولُ: إِذَا كَانَ هَذَا شُكْرُ مَنْ شَكَرَ نِيَابَةً عَمَّنْ شَكَرَ، فَكَيْفَ بِالْوَاجِبِ الْمُتَحَتِّمِ عَلَى مَنْ قَصَّرَ نَحْوَ مَنْ قَصَّرَ.. أَلَا مَا أَعْظَمَ حَقَّ الآبَاءِ عَلَيْنَا فِي شُكْرِ اللَّهِ حَتَّى إِنْ شَكَرُوا، فَكَيْفَ إِنْ قَصَّرُوا..؟!

إِرْثُ الشُّكْرِ يَتَحَمَّلُهُ الْأَبْنَاءُ وإِنْ أَدَّاهُ الْآبَاءُ...، فَإِنْ لَمْ يُؤَدِّهِ الْآبَاءُ تَضَاعَفَ الشُّكْرُ عَلَى الْأَبْنَاءِ...، وَلَمْ يَسْقُطْ بِفِسْقِ الآبَاءِ أَوْ تَقْصِيرِهِمْ.

فَاللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى شُكْرِكَ، وَذِكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ.

❊ ❊ ❊

تَسْخِيرُ الرِّيْحِ

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ تَسْخِيرِ هَذِهِ الطَّاقَةِ الْكَوْنِيَّةِ الْهَائِلَةِ «الرِّيْحِ» لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ تَحْمِلُهُ وَتَحْمِلُ مَنْ يَأْمُرُهَا بِحَمْلِهِ.

أَمِ الْعَجَبُ مِنْ عَدَمِ تَسْخِيرِ اللَّهِ الْمَلائِكَةَ لِتَحْمِلَ سُلَيْمَانَ، وَهُوَ - سُبْحَانَهُ - الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الْقَائِلُ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

أَمْ أَنَّ تَسْخِيرَ الْمَلَائِكَةِ لَا يَتَنَاسَبُ مَعَ تَسْخِيرِ الشَّيَاطِينِ الَّتِي سُخِّرَتْ لِسُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقوله: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾، **أَمْ لِيَكُونَ** هَذَا التَّسْخِيرُ لِلنَّاسِ بِدَايَةَ تَسْخِيرِ الرِّيحِ فِي سَفَرِ النَّاسِ عَنْ طَرِيقِ الْهَوَاءِ، كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ فِي هَذَا الزَّمَانِ بِالطَّائِرَاتِ، كَمَا كَانَتْ بِدَايَةُ تَسْخِيرِ الْمَعَادِنِ هُوَ مَا وَهَبَ اللَّهُ تَعَالَى لِأَبِيهِ دَاوُدَ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لِلنَّاسِ؟!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: كُلٌّ يَتَعَبَّدُ بِحَسَبِ نِعْمَتِهِ:

رِسَالَةٌ تَقُولُ: هَذِهِ هِيَ الْمَمْلَكَةُ الْجَامِعَةُ بَيْنَ الْعِلْمِ الَّذِي

فَاقَ عَصْرَهَا وَالْعُصُورَ التَّالِيَةَ، الْمَمْلَكَة ذَاتُ الْقُوَّةِ الَّتِي فَاقَتْ قُوَى المَمَالِكِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الْمَمْلَكَةُ الَّتِي زَادَتْ كَثْرَةً بِمَا فِيهَا مِنَ الأُمَمِ الأُخْرَى عَلَى كُلِّ مَمَالِكِ الْأَرْضِ، وَمَعَ هَذَا فَهِيَ الْمَمْلَكَةُ الْمُتَّحِدُ عِلْمُهَا وَقُوَّتُهَا وَكَثْرَتُهَا فِي عُبُودِيَّةِ اللَّهِ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى.

رِسَالَةٌ تَقُولُ: لَنْ يَزْدَادَ الْمُؤْمِنُ الحَقُّ بِنَعِمِ اللَّهِ إِلَّا شُكْراً لِلَّهِ، وَلَنْ يَزْدَادَ بِهَا إِلَّا تَوَاضُعاً لِلَّهِ وَإِنْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ، وَرَأَى مَا تَحْتَهُ مِنْ أَصْنَافِ الخَلَائِقِ قَدْ سُخِّرَت لَهُ.

سُبْحَانَ مَنْ فَتَحَ الرَّصِيدَ لِصَاحِبِ هَذِهِ المَمْلَكَةِ بِغَيْرِ حُدُودٍ، فَقَالَ: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾! وَسُبْحَانَ مَنْ حَفِظَ قَلْبَ عَبْدِهِ، وَحَبَسَهُ عَلَى شُكْرِهِ، فَلَمْ يَسْتَخْدِمَ نِعْمَةً وَاحِدَةً فِي غَيْرِ مَرْضَاتِهِ! فَلَذَّةُ النِّعْمَةِ الْحَقَّةِ بِشُكْرِهَا، وَشُؤْمُهَا بِكُفْرِهَا.

❊ ❊ ❊

نِعْمَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ جَمْعِ اللَّهِ تَعَالَى لِعَبْدَيْهِ؛ الْأَبِ وَالابْنِ نِعْمَتَيْنِ مُتَضَادَّتَيْنِ، فَكَانَ لِلْأَبِ تَلْيِينُ أَقْسَى الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ الْحَدِيدِ وَالْفُولَاذِ وَالْمَعَادِنِ الَّتِي أَصْبَحَتْ بِيَدَيْهِ مِثْلَ الطِّيْنِ، يُشَكِّلُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، أَمِ الْعَجَبُ مِنَّةُ اللَّهِ عَلَى الْوَلَدِ، فَكَانَ لَهُ تَسْخِيرْ الرِّيْحِ، وَهِيَ أَلْيَنُ وَأَلْطَفُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهِيَ الَّتِي لَا تتَمَاسَكُ فِيمَا يَظْهَرُ إِطْلَاقاً، وَلَا تُمْسِكُ مَا فِيهَا إِطْلَاقاً، فَجَعَلَهَا لِعَظِيمِ تَمَاسُكِهَا تَحْمِلُ الْحَدِيدَ وَالْمَعَادِنَ وَمَا عَلَيْهَا وَمَنْ عَلَيْهَا مَهْمَا كَثُرُوا وَثَقُلُوا وَبَعُدُوا..؟!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: «اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ»:

قُدْرَةُ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - لَيْسَتْ قَالَباً لَا يَصْنَعُ إِلَّا نَوْعاً وَاحِداً، بَلْ هِيَ الْقُدْرَةُ الْمُطْلَقَةُ الْمَشِيئَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ كُلَّمَا كَرَّرْتَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ

شَيءٍ قَدِيرٌ». . فَهُوَ حِينَ يُعْلِمُكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ إِنَّمَا يَرْغَبُ أَنْ تَدْعُوَهُ فِي كُلِّ شَيءٍ. . وَلَا تَقِسِ الْأُمُورَ بِقُدْرَتِكَ، فَتُحْجِمَ، أَوْ بِحَجْمِكَ فَتَسْتَكْثِرَ وَتَسْتَعْظِمَ. .

هَذَا الْوُجُودُ مِنْ فَوْقِكَ. . مِنْ تَحْتِكَ. . مِنْ حَوْلِكَ. . مِنْ دَاخِلِكَ. . يَنْطِقُ بِأَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ. . الْمَاءُ وَالنَّارُ مِنْ فَوْقِكَ يَجْتَمِعَانِ، فَيَنْزِلُ الْمَطَرُ! الْأَثْقَالُ وَالْأَحْمَالُ تَسِيرُ بِهِ الرِّيحُ وَكَالرِّيحِ، وَعَلَى الْمَائِعِ، وَلَا تَغْرَقُ فِي الْمَاءِ! الطَّيْرُ صَافَّاتٌ، وَالطَّائِرَاتُ سَابِحَاتٌ فِي الْهَوَاءِ بِأَحْمَالِهَا وَأَثْقَالِهَا وَلَا تَسْقُطُ. . ! آيَاتٌ مُتَضَادَّاتٌ فِي الْعَقْلِ، مُتَّحِدَاتٌ فِي الدِّلَالَةِ عَلَى الْوَحْدَانِيَّةِ، وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ. . فَلَا تَلْتَفِتْ بِعَيْنَيْكَ لِكُلِّ شَيءٍ، وَيَغْفَلْ قَلْبُكَ عَنْ أَعْظَمِ شَيءٍ. .

* * *

سَعَةُ التَّسْخِيرِ مَعَ عِلْمِهِ بِكُلِّ شَيءٍ

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ عِلْمِ سُلَيْمَانَ الَّذِي اتَّسَعَ، حَتَّى وَرِثَ عِلْمَ أَبِيهِ، وَزَادَ تَسْخِيرُ الْجِنِّ وَالرِّيْحِ، **أَمِ الْعَجَبُ** مِنَ اخْتِتَامِ اللَّهِ الآيَةَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١] بِكُلِّ شَيءٍ.. فَسُبْحَانَهُ!

فَأَكْبَرُ شَيْءٍ وَأَصْغَرُ شَيْءٍ عِنْدَهُ سَوَاءٌ؛ فَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ، أَحَاطَ عِلْماً بِالْهُدْهُدِ وَأَيْنَ ذَهَبَ، وَمَاذَا قَالَ، وَبَلْقِيسَ وَذَرَّاتِ عَرْشِهَا، حَرَكَةِ الرِّيْحِ وَجُزْئِيَّاتِها وَتَوازُنِهَا وَهِيَ تَحْمِلُ مَا تَحمِلُ، وَحَرَكَةِ الْجِنِّ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَفِي أَيِّ مَكَانٍ، وَدَابَّةِ الْأَرْضِ وَهِيَ تَنْخِرُ الأَشْيَاءَ ثُمَّ تَنْخِرُ الْمِنْسَأَةَ، كُلِّ شَيءٍ مِنْ غَيْرِ أَدْنَى اسْتِثْنَاءٍ، فَلَا يَذْهَلَنَّكَ الْإِعْجَابُ بِهَذَا الشَّيءِ الَّذِي سَمِعْتَ عَنْ خَالِقِ كُلِّ شَيءٍ، وَالْعَالِمِ بِكُلِّ شَيءٍ.. وَهَكَذَا: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

فَسُبْحَانَهُ مِنْ رَبٍّ عَظِيمٍ عَلِيمٍ!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: لَا تَشْغَلَنَّكَ الْمَوْجُودَاتُ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَشْغَلُهُ شَيْءٌ عَنْكَ:

عِلْمُهُ - سُبْحَانَهُ - بِمُلْكِ سُلَيْمانَ الَّذِي عَقَّبَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ كَعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ فِي كُلِّ مُلْكِهِ الْعَظِيمِ جُزْءاً جُزْءاً: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾.

فَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْ تَفْسِيرِهَا أَنْ عُقِّبَ بِهَا عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ مُلْكِ الْمَلِكِ الْعَلَّام. . .، فَالْكُلُّ سَوَاءٌ، وَمَا مُلْكُ سُلَيْمَانَ إِلَّا مِنْ مُلْكِهِ، مَا زَادَ وَمَا نَقَص، وَمَا أَرَانَا مِنْ عِلْمِهِ الظَّاهِرِ - سُبْحَانَهُ - بِمُلْكِ سُلَيْمَانَ إِلَّا دَلِيلاً عَمَّا أَخْبَرَنَا بِعِلْمِهِ بِمُلْكِهِ كُلِّهِ مِمَّا لَمْ تَرَهُ الْعَيْنَانِ.

فَسُبْحَانَهُ! لَا يَشْغَلُهُ عِلْمُهُ بِمَا فِي مُلْكِ سُلَيْمَانَ الْمَحْصُورِ فِي مَمْلَكَتِهِ فِي زَمَنِهِ عَنْ عِلْمِهِ - سُبْحَانَهُ - بِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَبِمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَبِمَا فِي وَرَقَةٍ مِنْ شَجَرَةٍ وَحِيدَةٍ فِي صَحْرَاءَ، عَنْ وَرقَةٍ فِي شَجَرَةٍ فِي غَابَةٍ كَثِيفَةٍ خَضْرَاءَ، لَا يَشْغَلُهُ انْقِضَاءُ أَجَلِ سَمَكَةٍ فِي مُحِيطٍ. . عَنْ تَصْرِيفِ لَحْمِهَا رِزْقاً مَقْسُوماً مَصْرُوفاً لِأَسْمَاكٍ خُلِقَتْ مِنْ جَدِيدٍ. . .، كُلٌّ يَأْخُذُ رِزْقَهُ الْمَعْلُومَ

مِنْهَا لِيَحْيَا حَيَاةً جَدِيدَةً فِي دَوْرَةٍ لِلْحَيَاةِ مَحْدُودَةٍ.

لَا يَشْغَلُهُ رِزْقُ سَبُعٍ فِي الصَّحْرَاءِ بِصَيْدِهِ أَرْنَباً يَأْكُلُهُ، عَنْ رِزْقِ أَرْنَبٍ مِنْ عُشْبَةٍ كُتِبَ لهَا أَنْ تَكُونَ رِزْقَهُ مِنْ بَيْنِ مَا لَا يُحْصَى مِنَ الأَعْشَابِ.

❊ ❊ ❊

الهُدْهُدُ وَدَوْرُهُ

عَجِبْتُ مِنْ «**الهُدْهُدِ**» وَالدَّوْرِ الَّذِي قَامَ بِهِ، فَهُوَ الَّذِي بِسَبَبِهِ «**هَدَّ**» اللَّهُ عَرْشَ بَلْقِيسَ الكَافِرَ..

وهُوَ الَّذِي «**تَهَادَى**» أَوَّلَ مَرَّةٍ بِالبَحْثِ عَلَى عَادَتِهِ حَتَّى وَصَلَ الْيَمَنَ، فَرَأَى ضَلَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، فَعَادَ أَدْرَاجَهُ، وَبَلَّغَ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ...

«**الهُدْهُدُ**» هُوَ مَنْ عَادَ بِخَبَرِ «**الْهَدِيَّةِ**»...

وَهُوَ الَّذِي «**هَدَّدَهُ**» سُلَيْمَانُ بِالتَّعْذِيبِ وَالقَتْلِ، ومع هذا لَمْ يُبَالِ، وَقَالَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾...

وَهَلْ سَمِعَ الْخَلْقُ بِمَخْلُوقٍ أَعْجَمَ «**هُدِيَ**» إِلَى بَلَدٍ مُشْرِكٍ فِي غُدُوِّهِ أَوْ رَوَاحِهِ فَكَانَ سَبَباً «**لِهِدَايَةِ**» ذَلِكَ الْبَلَدِ؛ حُكَّاماً وَمَحْكُومِينَ مِثْل «**الهُدْهُدِ**»؟!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: الثِّقَةُ الْمُثْمِرَةُ:

تَصَوَّرْ، كَيْفَ ارْتَجَفَ الطَّيْرُ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ،

وَهَذِهِ الْأُمَمُ الْمَحْشُورَةُ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ، وَهِيَ تَسْمَعُ هَذَا التَّهْدِيدَ الْمُرْعِبَ مِنَ الْمَلِكِ الرَّسُولِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١]؟!

تَصَوَّرْ، كَيْفَ تَنَاقَلَتِ الطُّيُورُ وَغَيْرُهَا الْخَبَرَ حَتَّى أَوْصَلَتْهُ أَوْ لَمْ تُوصِلْهُ إِلَى الْهُدْهُدِ، كَانَ الْمُتَوَقَّعُ أَنْ يَأْتِيَ الْهُدْهُدُ يَرْتَجِفُ، لَكِنْ صَدَقَ مَنْ قَالَ: «مَنْ لَمْ يُخْطِئْ لَمْ يَخَفْ» فَأَيُّ ثِقَةٍ وَاجَهَ بِهَا **الْهُدْهُدُ التَّهْدِيدَ**؟

إِنَّهُ لَمْ يَعْتَذِرْ، وَلَمْ يضطرب، وَلَمْ يُحَاوِلِ التَّخْفِيفَ مِنَ الحُكْمِ، بَلْ لَمْ يَنْشَغِلْ بِهِ، لَكِنَّهُ أَشْغَلَ المَلِكَ بِمَشْرُوعِهِ، وَمَشْرُوعُهُ هُوَ مَمْلَكَةُ سَبَإٍ. وَكَانَ مَشْرُوعُهُ مَشْرُوعَ الأُمَّةِ..

وَكَانَ لَهُ مَا أَرَادَ مِنْ إِيمَانِهَا..

رِسَالَةٌ تَقُولُ: عَجِبْتُ لِانْشِغَالِ النَّاسِ بِالرِّسَالَةِ الْفَانِيَةِ عَنِ الرِّسَالَةِ الْبَاقِيَةِ..، فَالرِّسَالَةُ الَّتِي هُمْ مُنْشَغِلُونَ بِهَا هِيَ رِسَالَةُ الْوَرَقِ أَوِ الْجِلْدِ الْفَانِي، وَفِي كَيْفِيَّةِ حَمْلِ الْهُدْهُدِ لَهَا، وَإِلْقَائِهَا، وَأَيْنَ وَقَفَ؟ كُلُّ هَذَا ذَهَبَ بِذَهَابِ تِلْكَ

الرِّسَالَةِ وَذَهَابِ أَصْحَابِهَا جَمِيعاً، وَأَمَّا الَّذِي بَقِيَ فَهُوَ مَوْضُوعُ الرِّسَالَةِ، وَهَذِهِ هِيَ الرِّسَالَةُ الحَقِيقِيَّةُ المُوَجَّهَةُ لَنَا، تِلْكَ هِيَ: نَظْرَةُ الدَّوَابِّ لَنَا إِنْ عَصَيْنَا اللَّهَ تَعَالَى حَتَّى وَإِنْ لَمْ تُخْبِرْنَا؛ لِأَنَّنَا مَا عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ..، نَظْرَتَهَا وَمَقْتَهَا لِلْمُشْرِكِينَ وَإِنْ لَمْ يُقْرَأْ ذَاكَ المَقْتُ بِرِسَالَةٍ..

لَقَدْ بَلَّغَ اللَّهُ خَلْقَهُ بِهَذَه الرِّسَالَةِ حِينَ سَجَّلَ مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْقِصَّةِ مَوْقِفَ الطَّيْرِ وَالدَّوَابِّ مِنْهُمْ..، فَلَا يَحْتَاجُونَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عليهما السلام لِيَقْرَأُوا رَسَائِلَ الْكَائِنَاتِ الْأُخْرَى لَهُمْ..

رِسَالَةٌ فِيهَا مَوْضُوعُ غَيْرَةِ الدَّوَابِّ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَاسْتِثَارَةٌ لِأَصْحَابِ الْمَنْطِقِ وَالْعَقْلِ، **رِسَالَةٌ فِيهَا غَيْرَةُ سُلَيْمانَ** للَّه رَبِّ الْعَالَمينَ، وَفِيهَا تَسْخِيرُ الْمُلْكِ وَالْمَمْلَكَةِ وَأَعْظَمِ مَا عِنْدَ الْمَلِكِ مِنَ الْقُوى لِدَعْوَةِ اللَّهِ غَيْرَةً عَلَى دِينِهِ..، وَكُلٌّ بِحَسَبِ مَا آتَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ.

رِسَالَةٌ فِيهَا التَّنْوِيعُ فِي الدَّعْوَةِ وَالْخِطَابِ، وَفِيهَا أَنَّ فِي الرِّسَالَةِ مَا لَيْسَ فِي الْمُشَافَهَةِ، وَكَمْ مِنْ أَبٍ يَعْجزُ عَنْ نُصْحِ وَلَدِهِ، أَوْ وَلَدٍ يَعْجِزُ عَنْ نُصْحِ أَبِيهِ، أَوْ صَاحِبٍ

عَنْ صَاحِبِهِ، فَإِذَا مَا كَتَبَ الرِّسَالَةَ فُتِحَتْ لَهُ الْأَبْوَابُ، وَحَدَّدَ فِيهَا الْخِطَابَ، بَعْدَ بَرَاعَةِ الاسْتِهْلَالِ، وَحُسْنِ التَّقْدِيم وَتَلْيِينِ الجَوَابِ، وَهَلْ كَانَ شَيءٌ أَعْظَمَ مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ؟! وَهَلْ كَانَتْ مُعْجِزَةُ المُصْطَفَى ﷺ إِلَّا هَذَا الكِتَابَ الكَرِيمَ؟!

رِسَالَةٌ تَقُولُ: هَؤُلَاءِ الْأَقْوِيَاءُ كُلٌّ يَعْرِضُ أَقْصَى مَا عِنْدَهُ، وَالْمَلِكُ الْعَادِلُ الْعَالِمُ النَّبِيُّ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَخْتَارُ الجَوَابَ الأَنْسَبَ لِسُؤَالِهِ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾؟

الْمَمْلَكَةُ الَّتِي لَا تُهْضَمُ فِيهَا طَاقَةٌ، فَالْجَمِيعُ مُسْتَنْفَرُونَ فِي أَيِّ وَقْتٍ، لِلَّهِ عَابِدُونَ فِي كُلِّ وَقْتٍ - سُبْحَانَهُ..

رِسَالَةٌ تَقُولُ: مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ إِلَّا أَنْ يَحْمِلَ وَرَقَةً حَمَلَ وَرَقَةَ رِسَالَةِ دَعْوَةٍ وَأَوْصَلَهَا، وَأَمَّا مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْمِلَ العَرْشَ بِرُمَّتِهِ وَيَنْقُلَهُ مِنْ لَحْظَتِهِ حَمَلَهُ وَأَتَى بِهِ إِلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

* * *

لَا يَقْبَلُ الأَنْبِيَاءُ الرِّشْوَةَ عَلَى الدَّعْوَةِ

أَيُّ اسْتِنْكَارٍ بَلَغَ بِنَبِيِّ اللَّهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَرَى مِنَ الْمُجَوْهَراتِ مَا يَخْطَفُ الْعَيْنَ وَالْجِنَانَ...؟ لَكِنْ أَيْنَ مَا يُرِيدُهُ هُوَ مِمَّا تُرِيدُهُ هِيَ؟! أَيْنَ الْمَنْطِقُ مِنَ الْمَنْطِقِ؟

لَا... لَا الْتِقَاءَ وَلَا قَاسِمَ مُشْتَرَكاً مَا بَيْنَ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَعِبَادَةِ الشَّمْسِ، وَاللَّهُ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، وَرُسُلُهُ أَبْعَدُ النَّاسَ عَنْ قَبُولِ شَيْءٍ...، لَا، وَلَوْ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ فِي مُقَابِلِ أَقَلَّ شِرْكٍ...؛ وَلِذَا أَعْرَضَ عَنْ عَرْضِهَا لَمَّا عَرَفَ عَرْضَهَا...، وَعَرَضَ عَرْضَهُ عَلَى عَمَالِقَةِ مَمْلَكَتِهِ طَالِباً أَقْوَى الْعُرُوضِ وَأَسْرَعَهَا...، وَأَكْثَرُهَا حَسْماً...، مُحَدِّداً غَايَتَهُ بِعَرْشِهَا. فَلِلَّهِ مَا أَعْظَمَهَا مِنْ غَيْرَةٍ!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: مُرَاجَعَةُ الْإِخْلَاصِ:

رِسَالَةٌ تَقُولُ: رُبَّمَا يَعْجَبُ الْمَرْءُ لِعَدَم قَبُولِ الْأَنْبِيَاءِ مَالًا وَعِوَضاً مِنَ الأَقْوَامِ عَلى رَغْمِ فَقْرِ الكَثِيرِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ...،

لَكِنْ أَيَعْجَبُ المَـرْءُ إِذَا أَعْطَى السَّيِّدُ خَادِمَهُ فَأَغْنَاهُ عَنِ الطَّلَبِ، فَرَدَّ العَرْضَ الَّذِي يَعْرِضُ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَعَدَّهُ رِشْوَةً؟ فَكَيْفَ نَعْجَبُ مِنْ رَغْبَةِ الأَنْبِيَاءِ عَنْ عَطَايَا النَّاسِ، وَإِعْلَانِهِمْ لأَقْوَامِهِمْ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾؟!

أَفَتَرَاهُمْ يَنْهَوْنَ عَنِ الرِّشْوَةِ بَيْنَ النَّاسِ، ثُمَّ يَقْبَلُونَهَا مِنَ النَّاسِ، وَهُمْ يَقْبِضُونَ أُجُورَهُمْ مِنَ اللَّه..؟!

كَمْ نَسْتَغْرِبُ مِنْ عَدَمِ إِثْمَارِ غَرْسِنَا عَلَى رَغْمِ طُولِ مُدَّتِهِ، وَكَثْرَةِ تَكَالِيفِ غَرْسِهِ وَرِعَايَتِهِ؟

كَمْ نَقُولُ بِأَلْسِنَتِنَا: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾، وَنَحْنُ نَقْبِضُ الرَّشَاوَى عَلَى الدَّعْوَةِ بِصُوَرٍ مُخْتَلِفَةٍ، بَلْ نَحْنُ نَطْلُبُ الرِّشْوَةَ - لَيْلَ نَهَارَ - فِي صُوَرِ الشُّهْرَةِ، وَالْوَجَاهَةِ، وَكَسْبِ الْأَصْوَاتِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا نَسْتَغْرِبُ، كَيْفَ لَمْ نَحْصُدْ ثِمَاراً بَعْدُ!

رُبَّمَا يُبَاحُ لَنَا فِقْهاً عَمَلِيّاً أَنْ نَأْخُذَ الْأُجُورَ عَلَى بَعْضِ

أَعْمَالِنَا الشَّرْعِيَّةِ. . . ، لَكِنْ أَيَسْتَغْرِقُ ذَلِكَ كُلَّ أَعْمَالِنَا. . ؟ أَتَكُونُ هِيَ سِمَةُ دَعْوَتِنَا؟ نَبْدَأُ بِأَخْذِ الْأُجُورِ فِيمَا نَحْتَاجُ، ثُمَّ نَتَوَسَّعُ شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّى نَدْخُلَ فِي مَرْحَلَةِ الِاسْتِكْثَارِ وَالِاسْتِثْمَارِ، وَالِانْشِغَالِ عَنِ الْغَايةِ بِحُجَّةِ أَنَّ ذَلِكَ لِأَجْلِ الْغَايَةِ. . . ! صُحُفٌ تَجَارِيَّةٌ. . . ، مَحَطَّاتٌ إِعْلَامِيَّةٌ اسْتِثْمَارِيَّةٌ. . . ، تَسْجِيلَاتٌ قُرْآنِيَّةٌ مَالِيَّةٌ. . . ، وَمَدَارِسُ. . . ! مَلَايِينُ تَجُرُّ إِلَى مَلَايِينَ. . . ، وَوَادٍ مِنْ ذَهَبٍ والقلب متعلق بِوَادٍ وَوَادٍ. . . !

لِمَ لَا تَكُونُ تِلْكَ الْمَشَارِيعُ وَقْفاً لِلَّهِ عَلَى الْغَايَاتِ. . . ؟ لِمَ أَصْبَحْنَا حُرَّاساً لِلْأَمْوَالِ وَكَانَ الْمَقْصَدُ أَنْ تَحْرُسَنَا وَتَحْرُسَ دِينَنَا الْأَمْوَالُ؟ لَقَدْ وَقَعَ تَخَوُّفُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ بَسْطِ الدُّنْيَا.

❊ ❊ ❊

كَيْفَ سَكَتَ سُلَيْمَانُ عَلَى العَرْضِ الأَوَّلِ؟!

عَجِبْتُ لِسُكُوتِ سُلَيْمَانَ عَلَى عَرْضِ عِفْرِيتِ الْجِنِّ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ عَلَى رَغْمِ أَنَّ العَرْضَ كَانَ عَجِيباً حَقّاً: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾ [النمل: ٣٩].. حَتَّى جَاءَ الْعَرْضُ الثَّانِي، فَانْكَشَفَ الْفَارِقُ، وَلِلْقَارِئِ أَنْ يَتَصَوَّرَ مَاذَا لَوْ لَمْ يَذْكُرْ ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ عَرْضَهُ؟! فَيَالَانْتِظَارِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا أَعْظَمَهُ! فَمَنْ كَانَ سَيُطِيقُ بَعْدَ هَذَا العَرْضِ الانْتِظَارَ؟

وَكَمْ كَانَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ مَعْرِفَةٍ بِجُنْدِهِ! وَكَمْ كَانَ سُلَيْمَانُ عَامِلًا بِالشُّورَى عَلَى رَغْمِ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ السُّلْطَانِ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ، وهَلْ يُنَاسِبُ اخْتِبَارَ الْقُدْرَاتِ - خَاصَّةً إِلَّا أَنْ يَمْنَحَهُمْ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَمِيعاً الْفُرْصَةَ لِإِظْهَارِ قُدْرَاتِهِمْ..؟

رِسَالَةُ الوَمْضَةِ: سَخِّرُوا مَا عِنْدَكُمْ لِلَّهِ:

مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْتَخْلِصَ رِسَالَةَ هَذِهِ الْوَمْضَةِ حَقّاً فَلْيَتَصَوَّرْ

مَجْلِسَ سُلَيْمانَ عليه السلام تَصَوُّراً مُقَرِّباً إِيَّاهُ مِنَ الْحَقِيقَةِ، كَأَنَّهُ فِيهِ أَوْ كَأَنَّهُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ، وَهَذِهِ مَنْزِلَةُ الْإِحْسَانِ فِي كُلِّ شَيءٍ، وَلْيَتَصَوَّرْ - عِنْدَهَا - هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعُظْمَى مُجْتَمِعَةً، وَقَدْ طَرَحَ عَلَيْهَا سُلَيْمانُ مَطْلَبَهُ الْمُحَدَّدَ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾..

نَحْنُ لَا نَدْرِي أَيَّ الْعُرُوضِ كَانَتْ قَبلَ هَذَيْنِ الْعَرْضَيْنِ؟ رُبَّما لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ عُرُوضٌ، حَتَّى جَاءَ هَذَانِ العَرْضَانِ: عَرْضُ الْعِفْرِيتِ، وَعَرْضُ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ، فَكَانَ الاخْتِيَارُ عَلَى العَرْضِ الْأَخِيرِ، وَكَانَ الْأَخِيرُ وَفِيّاً بِمَا قَالَ، صَادِقاً فِيمَا وَعَدَ، وَكَانَ عَرْشُ بَلْقِيسَ صُورَةً وَحَقِيقَةً فِي فَلَسْطِينَ مِنَ اليَمَنِ بَيْنَ يَدَيْ سُلَيْمانَ عليه السلام . . .

وَهَلْ مِنْ رِسَالَةٍ أَبْلَغُ مِنْ هَذِهِ الرِّسَالَةِ إِلَى أَصْحَابِ الْمُلْكِ أَنْ سَخِّرُوا أَمْلَاكَكُمْ وَكُلَّ مَا سَخَّرَ اللَّهُ تَعَالَى لَكُمْ، فَكَمَا جَعَلَ اللَّهُ أَمْرَكُمْ نَافِذاً عَلَيْهِمْ اجْعَلُوا أَمْرَ اللَّه نَافِذاً عَلَيْكُمْ، وَأَنَّ هَذِهِ عُبُودِيَّتُكُمُ الحَقَّةُ، وَهِيَ أَعْظَمُ مَا افْتُرِضَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْعِبادَاتِ الْخَاصَّةِ بِكُمْ، أَمَّا الْعِبادَاتُ الْمُشْتَرَكَةُ مَعَ الْعِبَادِ فَتِلْكَ عِبَادَاتٌ مَفْرُوغٌ مِنْهَا، وَلَا

يُحْتَاجُ إِلَى التَّنْبِيهِ عَلَيْهَا، وَأَنَّ هَذَا هُوَ شُكْرُكُمْ مِنْ مَوْقِعِكُمْ، وَهَذَا حَقُّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكُمْ.

رِسَالَةٌ تَقُولُ: إِنَّ الْمُلْكَ إِذَا لَمْ تُسَخِّرْهُ لِلَّهِ سَخَّرْتَهُ عُبُودِيَّةً لَكَ وَلِهوَاكَ.

رِسَالَةٌ تَقُولُ: إِنَّكَ إِنْ كُنْتَ عَبْداً للَّه حَقّاً، مُعَبِّداً مُلْكَكَ فِي سَبِيلِ اللَّه، سَخَّرَ اللَّهُ لَكَ أَصْلَحَ خَلْقِهِ وَأَشَرَّهُمْ مَعاً..، كَمَا سَخَّرَ لِسُلَيْمانَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ، وَسَخَّرَ لَهُ عَفَارِيتَ الشَّيَاطِينِ، أَمَّا إِذَا سَخَّرْتَهَا فِي تَعْبِيدِهَا لِنَفْسِكَ تَلَاعَبَتْ بِكَ عَفَارِيتُ الشَّيَاطِينِ! وَإِلَّا فَمَنْ كَانَ يَتَصَوَّرُ مِنْ قَبْلُ أَنَّ عَفَارِيتَ الشَّيَاطِينِ تُسَخَّرُ لِبَشَرٍ..؟!

وَإِنَّهُ مَهْمَا كَانَ جُنُودُكَ وَحَرَسُكَ أُولِيْ قُوَّةٍ وَأُولِيْ بَأْسٍ شَدِيدٍ، وَكَانُوا مُخْلِصِينَ لَكَ قَائِلِينَ بِصِدْقٍ: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣]، فَإِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، وَلَنْ يَحْفَظُوا عَرْشَكَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ مَنْقُولٌ عَنْكَ، أَوْ أَنَّكَ مَنْقُولٌ عَنْهُ.

رِسَالَةٌ تَقُولُ: سَخِّرْ كُلَّ مَا آتَاكَ اللَّهُ مِنْ فِكْرٍ وَمَالٍ وَقُوَّةٍ

لِنُصْرَةِ دِينِهِ بِقَدْرِ مَا سَخَّرَ اللَّهُ لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ. . كُلٌّ بِحَسْبِ اسْتِطَاعَتِهِ، وَلَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفساً إِلَّا وُسْعَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِوُسْعِ كُلِّ نَفْسٍ، وَهُوَ الْقَائِلُ: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾.

وَهُوَ الْقَائِلُ فِي الاسْتِطَاعَةِ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. .

وَلِذَا كَانَ إِعْدَادُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِبَلْقِيسَ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ قُوَّةٍ، وَقَدْ سَخَّرَ قُوَّةَ الْفِكْرِ أَوَّلًا، وَالْجُنْدِ ثَانِياً، وَمَا تَبِعَ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ تُعْطِي الْمَعْنَى الصَّحِيحَ لِلاسْتِطَاعَةِ وَللطَّاقَةِ، فَبَيْنَما الكَثِيرُونَ يَنْحُونَ إِلَى الْأَعْذَارِ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ مُجَارَاةَ الْعَدُوِّ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وَالْبَعْضُ يَتَوَقَّفُ عَنِ الْإِعْدَادِ أَصْلاً ظَانّاً أَنَّ لَهُ فِي هَذِهِ الآيَةِ حُجَّةً. . بَيْنَمَا الْأَمْرُ عَلَى عَكْسِ ذَلِكَ. .

أَمَّا مَنْ يُرِيدُ حَقَّ اللَّهِ وَيُرَاقِبُهُ فَإِنَّهُ يَفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ مَا عَمِلَهُ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ يَأْتِيَ بِأَقْوَى مَا عِنْدَهُ مِنْ قُوَّةٍ، مُسْتَكْشِفاً كُلَّ أَسْرَارِ الْقُوَّةِ

وَنِقَاطِهَا فِي مَمْلَكَتِهِ، ثُمَّ يُسَخِّرُهَا نُصْرَةً لِلَّهِ، وَخِدْمَةً لِدِينِهِ، فَإِنَّ ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ تَعْنِي: تَوَقَّفُوا عِنْدَ آخِرِ اسْتِطَاعَتِكُمْ، أَمَّا إِذَا لَمْ تَسْتَفْرِغُوا كُلَّ طَاقَتِكُمْ وَتَخَلَّفْتُمْ فَمَا لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ عُذْرٍ؛ لِأَنَّكُمْ لَمْ تَسْتَوْفُوا حَدَّ الاسْتِطَاعَةِ.

***

تَغَيُّرُ رَأْيِ بَلْقِيسَ!

عَجِبْتُ لِتَغَيُّرِ رَأْيِ بَلْقِيسَ، وَأَثَرِ الْبِطَانَةِ عَلَى الْقَرَارِ: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٢٩ - ٣٠]، هَذَا أَوَّلُ اسْتِشَارَتِهَا، وَأَوَّلُ ظُهُورِ فِرَاسَتِهَا الصَّحِيحَةِ فِي الرِّسَالَةِ، وَلَكِنَّهُم حِينَ قَالُوا: ﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣] غَيَّرَتْ فـ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤، ٣٥].

وعَجِبْتُ لاخْتِيَارِ سُلَيْمانَ عَرْشَ بَلْقِيسَ دُونَ أَيِّ شَيءٍ آخَرَ فِي مَمْلَكَتِهَا، فَكُلُّ الْمَمْلَكَةِ تَحُومُ حَوْلَ الْعَرْشِ، هُوَ قِوَامُهَا، وَهُوَ مُخُّهَا، وَهُوَ رُوحُهَا، وَهِيَ مِنْ حَوْلِهِ تُدَافِعُ حَتَّى تَمُوتَ..، فَإِذَا ذَهَبَ الْعَرْشُ فَقَدِ انْفَرَطَ العِقْدُ، وَزَالَ الحُكْمُ والتَّحَكُّمُ، فَلَا قِيمَةَ لِشَيءٍ بَعْدَهُ، وَمَنْ أَخَذَ الْعَرْشَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ الْخَارِقَةِ فَلَا أَمَلَ بِمُقَاوَمَتِهِ..! وَمَن أَخَذَ الْعَرْشَ كَانَ أَحَقَّ بِالتَّبَعِيَّةِ.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: اسْتِثْمَارُ أُولِي الْقُوَّةِ:

بِهَذَا النَّوْعِ مِنَ الرِّجَالِ حَكَمَتْ «بَلْقِيسُ» الْمَرْأَةُ، وَمَلَكَتْ وَسَادَتْ قَوْمَهَا: ﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، وَبِهَذَا النَّوْعِ مِنَ الْوَلَاءِ: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣]، كَوَّنَتْ «بَلْقِيسُ» مَمْلَكَةً وَاجَهَتْ بِهَا الْمَخَاطِرَ الْخَارِجِيَّةَ، وَكَذَا الدَّاخِلِيَّةَ، أَمَّا كَوْنُهَا لَمْ تُقَاوِمْ قُوَّةَ سُلَيْمَانَ؛ فَإِنَّ قُوَّةَ سُلَيْمَانَ خَارِجَ الْقِيَاسِ..

«بَلْقِيسُ» حُجَّةٌ عَلَى كُلِّ من يَتَضَاعَفُ وَيَتَمَاوَتُ أَمَامَ الْمُلُوكِ الْآخَرِينَ مِنْ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ..! فَهَلْ أَضْعَفُ مِنْ رَجُلٍ يُوصَفُ بِأَنَّهُ امْرَأَةٌ؟ لَكِنَّهَا مَعَ هَذَا عَرَّضَتْ جُنْدَهَا لِلاخْتِبَارِ الْعَسِيرِ، فَكَانُوا رِجَالَ الْمَوقِفِ الصَّعْبِ، وَكَانَ وَلاؤُهُمْ هُوَ الْمَطْلُوبُ، وَكَانَ مَوْقِفُ مَلِكَتِهِمْ هُوَ الْمَوْقِفُ الْمُنَاسِبُ، فَكَمْ مِنَ الرِّجَالِ مَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْجُنْدِ مَا عِنْدَ «بَلْقِيسَ»، لَكِنَّهُ لَا يَحْمِلُ نَفْسِيَّةَ بَلْقِيسَ الْمَرْأَةِ فِي مُوَاجَهَةِ الْمَوْقِفِ، فَيُهْزَمُ الْبَلَدُ، لَا لِقُوَّةِ الْعَدُوِّ وَلَا لِضَعْفِ جُنْدِ هَذَا الْبَلَدِ، إِنَّمَا لِأَنَّ قَلْبَ رَجُلِهِمْ أَقَلُّ فِي رَبَاطَةِ الْجَأْشِ مِنْ قَلْبِ الْأُنْثَى فِي الْمَوْقِفِ بِدَرَجَةٍ!.

***

اسْمُ الدَّابَّةِ وَاسْمُ المِنْسَأَةِ

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ صَنِيعِ الدَّابَّةِ بِالْمِنْسَأَةِ، أَمِ الْعَجَبُ فِيمَا ادَّخَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَسْمَاءِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ بِمَا يُنَاسِبُ مَا كَتَبَهُ فِي قَدَرِهِ سُبْحَانَهُ، «**فَالدَّابَّةُ**» دَبَّتْ لِهَذَا الْمَلِكِ الْأَوْحَدِ، فِي هَذِهِ الْأَرْضِ، إِذْ هُوَ بَيْنَ كُلِّ مَا حَوْلَهُ مِنْ جِنٍّ عَجِيبٍ لَهُمُ اطِّلَاعٌ - فِيمَا يَظْهَرُ - عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَتَحَرَّكُ، **أَمِ الْعَجَبُ** مِنْ أَنَّ **(الْمِنْسَأَةَ)** هِيَ الَّتِي أَنْسَأَتْ إِظْهَارَ الْحَقِيقَةِ الْأَصْعَبِ فِي تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ الْكُبْرَى، وَهُوَ مَوْتُ مَلِكِهَا؟

وَهَلِ الْعَجَبُ أَنِ اخْتَارَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - أَصْغَرَ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ كي تَهْدِمَ أَعْظَمَ مَمْلَكَةٍ، أَمِ الْعَجَبُ أَنْ يَخْتَارَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - هَذِهِ الطَّرِيقَةَ الَّتِي يُظْهِرُ بِهَا مَوْتَ أَعْظَمِ مُلُوكِ الْأَرْضِ، حَيْثُ يَخِرُّ مِنْ عَلَى مِنْسَأَتِهِ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَكَأَنَّ الْمَمْلَكَةَ كُلَّهَا خَرَّتْ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ؟

فَأَيُّ شَهَادَةٍ أَكْبَرُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾

مِنْ هَذِهِ الشَّهَادَةِ. . وَذَلِكَ فِي حَقِّهِ سُبْحَانَهُ. . وَأَيُّ شَهَادَةٍ أَكْبَرُ مِنْ هَذِهِ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: كَمْ مِنْ رِسَالَةٍ فِي طَرِيقَةِ قَبْضِ رُوحِ سُلَيْمَانَ:

رِسَالَةٌ إِلَى كُلِّ الْمُلُوكِ فِي الدُّنْيَا، وَكُلُّهُمْ دُونَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، احْتَرِسُوا أَوْ لَا تَحْتَرِسُوا، فَإِنَّ الْمَوْتَ آتِيكُمْ بِمَا تَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ كَالمِنْسَأَةِ! وَلَرُبَّمَا يَخْتَفِي فِيمَا تُخِيفُونَ النَّاسَ بِهِ كَالْعَصَا..!

وَرُبَّمَا يَكُونُ فِي أَوْجِ عُرُوضِكُمُ الْعَسْكَرِيَّةِ أَوِ احْتِفَالَاتِكُمُ الفَخْرِيَّةِ..

وَلَعَلَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ فِي قَبْضِ رُوحِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنَعَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ - بِحَمْدِ اللَّهِ - مِنْ عِبَادَةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إِذْ ظَهَرَ أَوْجُ ضَعْفِهِ وَهُوَ فِي أَوْجِ مُلْكِهِ وَذُرْوَةِ مَهَابَتِهِ، وَظَهَرَ ضَعْفُ جُنْدِهِ وَغَفْلَتُهُمْ؛ إِذْ أُخِذَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَهُمْ فِي ذُرْوَةِ عَمَلِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ، فَلَا أَدْرِي هَلِ الْعَجَبُ مِنْ هَذِهِ الرِّسَالَةِ الْبَلِيغَةِ، أَمِ الْعَجَبُ مِنْ رِسَالَةٍ أُخْرَى لِلْجُنْدِ

أَنْفُسِهِمْ وَلِعَوَالِمِهِمْ جَمِيعاً: أَلَّا تَغْتَرُّوا، وَفَكِّرُوا بِالْمَوْتِ جَيِّداً، فَهَذَا سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي شَاهَدْتُمْ مِنْ سُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ نَظِيرٌ مِنْ قَبْلُ وَلَا مِنْ بَعْدُ أَبَداً، شَاهَدْتُمْ مَوْتَهُ، وَشَاهَدْتُمْ بِأَعْيُنِكُمْ كَيْفِيَّةَ مَوْتِهِ..، فَهِيَ رِسَالَةٌ بَلِيغَةٌ لَا تُنْسَى: أَنْ لَا تَغُرَنَّكُمْ قُوَّتُكُمْ فَتَطْغَوْا عَلَى بَقِيَّةِ خَلْقِ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ سُلَيْمانَ؛ فَإِنَّ الْمَوْتَ آتِيكُمْ مِنْ بَابِ أَوْلَى، وَإِنَّكُمْ أَعْجَزُ مِنْ أَنْ تَحْرُسُوا أَنْفُسَكُمْ..!

وَهُوَ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى؛ فَإِنَّ صِفَةَ هَذِهِ الْمِيتَةِ هِيَ أَحَبُّ مَا تَكُونُ مِنَ الصِّفَاتِ لِسُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهِيَ طَرِيقَةُ الْخَاشِعِينَ فِي الاسْتِجَابَةِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ فِي أَعْظَمِ حَالَاتِ الذِّلَّةِ، وَهُوَ الْخَرُّ لِلسُّجُودِ، كَمَا قَالَ عَنْ أَبِيهِ: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾، وَقَالَ عَنْ عِبَادِهِ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، وَهَا هُوَ يَسْتَجِيبُ لِأَمْرِ رَبِّهِ خَارّاً مِنْ عَلَى مِنْسَأَتِهِ عَلَى الأَرْضِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

* * *

كَيْفَ فَاتَ عِلْمُ هَذِهِ؟!

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ قُوَّةِ جِنِّ سُلَيْمَانَ، وَعِلْم عِفْرِيتِ الْجِنِّ، وَعِلْم مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ؟! أَمِ الْعَجَبُ مِنْ دَلَالَةِ دَابَّةِ الْأَرْضِ لَهُمْ عَلَى أَعْظَم حَدَثٍ يُهِمُّهُمْ وَهُوَ مَوْتُ سُلَيْمانَ الَّذِي فَاتَ عِلْمُهُ عَفَارِيتَ الْجِنِّ، وَفَاتَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ.. وَفَاتَ الطَّيْرَ وَكُلَّ الْجُنُودِ، فَسُبْحَانَ عَلَّامِ الْغُيُوبِ، كَيْفَ جَعَلَ أَعْظَمَ سِرٍّ فِي أَضْعَفِ الْخَلْقِ؟!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: الْمَنَعَةُ مِنَ الْمَوْتِ:

اتَّكِئْ عَلَى مَا تَشَاءُ، وَاهْتَم بِمَنْ تَشَاءُ، فَلَرُبَّمَا سَرَى لَكَ الْمَوْتُ، فِيمَا تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ اعْتِمَادَ سُلَيْمَانَ عَلَى مِنْسَأَتِهِ.. فَهِيَ رِسَالَةٌ تَقُولُ: لَوْ مَنَعَ أَحَداً حَرَسُهُ مِنَ الْمَوْتِ لَمَنَعَتِ الْأُمَمُ الَّتِي أَحَاطَتْ بِسُلَيْمَانَ الْمَوْتَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ!

كَمْ كَانَ لِتِلْكَ الْمِنْسَأَةِ الَّتِي اعْتَادَ سُلَيْمانُ أَنْ يُمْسِكَهَا بِيَدِهِ مِنْ مَهَابَةٍ فِي نَفْسِ الْأُمَمِ الْمُسَخَّرَةِ؟ وَهَا هُوَ يَبْقَى طِوَالَ تِلْكَ الْفَتْرَةِ وَالْجِنُّ وَغَيْرُهُمْ فِي اسْتِنْفَارٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَسُلَيْمَانُ

قَدْ مَاتَ، وَقَدْ أَصْبَحَتِ **الْمِنْسَأَةُ** نَخِرَةً؛ فَلَمْ تَعُدْ تَحْتَمِلُ اتِّكَاءَةَ أَعْظَمِ مَلِكٍ؛ فَانْهَارَتْ وَانْهَارَ وَرَاءَهَا، وَمَا عَادَتْ أَثَراً يُورَّثُ.

رِسَالَةٌ تَقُولُ: سُبْحَانَ مَنْ لَمْ تَغِبْ عَنْهُ دَابَّةُ الْأَرْضِ! فَهِيَ تَأْكُلُ بِمِقْدَارٍ لِتَنْتَهِيَ إِلَى الْأَجَلِ الْمَحْدُودِ، لَا تَسْتَأْخِرُ لَحْظَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُ.. فَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا الْمَوْضُوعَ، وَنَظَرَ فِيمَا لَا يُحْصَى مِنْ دَوَابِّ الْأَرْضِ تَنْخَرُ فِي الْمَوْضِعِ الْوَاحِدِ مِنْ مِنْسَأَةِ سُلَيْمَانَ عليه السلام عَلِمَ عِلْمَ الْيَقِينِ بِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاباً، فَكَيْفَ يَخْفَى أَحَدُنَا عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ؟!

رِسَالَةٌ تَقُولُ: لَمْ يَسْرِ الْمَوْتُ مَعَ الدَّابَّةِ إِلَى سُلَيْمَانَ عليه السلام، وَإِنَّما أَظْهَرَتِ الدَّابَّةُ مَوْتَهُ، أَمَّا الْمَوْتُ فَقَدْ قَضَى عَلَيْهِ مُنْذُ زَمَنٍ، وَلَا أَحَدَ يَعْلَمُ مِنْ جُنْدِهِ، فَكَيْفَ لَمْ تَنْتَبِهِ العَفَارِيتُ لِمَلَائِكَةِ الْمَوْتِ حِينَ قَبَضَتْ رُوحَ سَيِّدِهَا.

رِسَالَةٌ تَقُولُ: لَا تَشْغَلْ نَفْسَكَ بِذَاتِ الْمَوْتِ، وَاشْغَلْ نَفْسَكَ بِرَبِّ الْمَوْتِ وَحُسْنِ الْخَاتِمَةِ، وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ..

* * *

ومضات العجب مع إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من القرآن الكريم

خَوْفاً عَلَى التَّوْحِيدِ لَا عَلَى نَفْسِهِ

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ شَجَاعَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقُوَّتِهِ فِي الحَقِّ وَلِلْحَقِّ؛ فقَبْلَ أَنْ يُحطِّمَ الأَصْنَامَ قَالَ لِسَدَنَتِهَا: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، فَقَدْ أَظْهَرَ الْفَاعِلَ، وَأَضْمَرَ تَحْدِيدَ تَوْقِيتِ الْفِعْلِ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَمْنَعُوهُ مِنْ أَنْ يُدَمِّرَهَا، وَكَأَنَّهُ يَدُلُّهِمْ عَلَى نَفْسِهِ بَعْدَ أَنْ يَفْعَلَهَا؟!

أَمِ الْعَجَبُ مِنْ تَحَيُّنِ إِبْرَاهِيمَ الفُرْصَةَ، فَوَجَدَهَا فِي يَوْمِ الزِّيْنَةِ فَاهْتَبَلَهَا؟! وَلَعَلَّ هَذَا سِرُّ إِخْبَارِهِ لَهُمْ بِهَا قَبْلَ أَنْ يَفْعَلَهَا دُونَ تَوْقِيتٍ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: لَوْ كَانَ الخَوْفُ مِنْكُمْ على نَفْسِي لمَا أَخْبَرْتُكُمْ سَلَفاً، وَلَكِنَّ الخَوْفَ أَنْ تَمْنَعُونِي، وَلِذَا اخْتَرْتُ يَوْمَ انْشِغَالِكُمْ - يَوْمَ الزِّينَةِ .. .؟!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: مَا أَحْسَنَهُ مِنْ كَيْدٍ!

وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ: أَلَا مَا أَحْسَنَهُ مِنْ كَيْدٍ! وَمَا أَكْرَمَهُ وَمَا أَبْرَكَهُ!

وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لِلْمَلأ: إِيَّاكُمْ أَنْ تُسَجِّلُوا القَضِيَّةَ ضِدَّ مَجْهُولٍ بِحُجَّةِ عَدَمِ وُجُودِ الطَّرَفِ الْفَاعِلِ، وَعَدَمِ العُثُورِ عَلَى أَدِلَّةٍ، بَلْ أَنَا الْفَاعِلُ لَها قَصْداً مُقَدِّماً.. اسْمَعُوهَا أَيُّهَا القَوْمُ جَمِيعاً مُقَدَّماً؛ فَإِذَا عَلِمْتُمْ بِهَذَا فَاعْلَمُوا أَنِّي إِنَّمَا حَطَّمْتُهَا إِيمَاناً بِاللَّهِ وَكُفْراً بِهَا، وَأَعْلِنُوا ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا صِدْقَ مَا حَذَّرْتُكُمْ مِنْهُ مِنْ قَبْلُ لِلنَّاسِ بِأَنْفُسِكُمْ، وَهِيَ أَنَّهَا عَاجِزَةٌ عَنْ نَفْعِ أَنْفُسِهَا، أَوْ دَفْعِ الضُّرِّ عَنْهَا، فَأَنَّى لَهَا أَنْ تَنْفَعَكُمْ!

وَهَذَا مَا قَرَّرَهُ إِبْرَاهِيمُ خُطْوَةً خُطْوَةً، حِينَ أَرَادُوا إِحْرَاقَهُ:

﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ

فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩ - ٧٣].

❊ ❊ ❊

دِقَّةُ التَّوْقيتِ

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ عَدَمِ اسْتِعْجَالِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَحْطِيمِ الْأَصْنَامِ فِي أَيِّ يَوْمٍ؟ أَمِ الْعَجَبُ فِي دِقَّةِ اخْتِيَارِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَوْعِدِ الْكَارِثَةِ الَّتِي سَتَحُلُّ عَلَيْهِمْ، فَاخْتَارَ لَهُمْ يَوْمَ الزِّينَةِ لِتَتَضَاعَفَ الْمُصِيبَةُ.. فَالْمُصِيبَةُ يَوْمَ الْفَرَحِ لَيْسَتْ كَالْمُصِيبَةِ فِي غَيرِهِ؟! وَصَدَقَ اللَّهُ إِذْ قَالَ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

رِسَالَةُ الوَمْضَةِ: الْمَصْلَحَةُ مَصْلَحَةُ الدِّينِ لَا النَّفْسِ:

حِسَابُ الْمَصْلَحَةِ عِنْدَ رُسُلِ اللَّهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ خَاصَّةً، وَعِنْدَ مَنْ يَسِيرُ عَلَى طَرِيقَتِهِمْ بِشَكْلٍ عَامٍّ لَا عَلَاقَةَ لَهُ بِمَصْلَحَةِ النَّفْسِ، أَوْ بَقَاءِ حَيَاتِهِ لِعُمُرٍ أَطْوَلَ، أَوْ تَخْفِيفِ نَوْعِيَّةِ الْعَذَابِ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَتَعَرَّضَ لَهُ، فَضْلاً أَنْ يَحْسُبُوا حِسَاباً لِلتَّعْذِيبِ وَعَدَمِهِ..

فَلَوْ كَانَ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَسَبَ لَهُمْ وَلِعَذَابِهِمْ حِسَاباً لَمَا أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ سَيَكِيدُ أَصْنَامَهُمْ إِذَا

وَجَدَ خَلْوَةً، وَقَالَ: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

كَمَا أَنَّهُ لَوْ كَانَ مُسْتَعْجِلاً مُتَهَوِّراً، وَحَاشَاهُ، لمَا دَقَّقَ الْمَوْعِدَ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ.. لَكِنَّهُ أَهْدَرَ مَصْلَحَةَ نَفْسِهِ حِينَ جَاءَتْ مَصْلَحَةُ التَّوحِيدِ فِي الإِعْلَانِ عَنْ نَفْسِهِ..

وهَكَذَا فَعَلَ الغُلَامُ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الأُخْدُودِ حِينَ دَلَّهمْ عَلَى مَقْتَلِهِ، وَطَرِيقَةِ قَتْلِهِ، بَعْدَمَا اخْتَارَ الْيَوْمَ، وَاخْتَارَ المِيدانَ، واخْتَارَهُ أَمَامَ الْحُشُودِ، وَلَوْ حَسَبَ لِنَفْسِهِ حِساباً، أَوْ أَرَادَ مُجَرَّدَ الشَّهَادَةِ لَفَعلَهَا مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ حَاوَلُوا قَتْلَهُ..

وَحِينَ انْهَزَمَ النَّاسُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلعَدُوِّ، وَتَقَدَّمَ عَلَى بَغْلَتِهِ مُعَرِّفاً بِاسْمِهِ وَنَسَبِهِ مُعرِّضاً نَفْسَهُ لِأَخْطَرِ الْمَخَاطِرِ مَعَ أَنَّهُ مَقْصُودُهُمُ الْأَوَّلُ..

وَلَوْ حَسَبَ لِبَقَائِهِ حِسَاباً لمَا فَعَلَ ذَلِكَ، إِنَّمَا هِيَ مَصْلَحَةُ الْإِسْلَام وَطَلَبٌ لِأَعْلَى دَرَجَاتِ الرِّضْوانِ، وَإِنْ تَعَرَّضَ هُوَ ﷺ لِلقَتْلِ الَّذِي يَحْسِبُهُ النَّاسُ مُحَقَّقاً، وَيَحْسَبُونَ الاخْتِفَاءَ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ ضَرُورَةً حَتَّى تَهْدَأَ الْعَاصِفَةُ كَمَا يُقَالُ..!

* * *

لَمْ يُصَادِرِ اسْمَ الوَلَدِ[(١)]

كَمْ مِنْ عَجَبٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٨].

هَلِ الْعَجَبُ مِنَ الدُّعَاءِ بِالقَبُولِ وَهُوَ يَبْنِي قِبْلَةَ الدُّنْيَا كُلِّهَا واللَّهُ هُوَ الَّذِي دلَّه عَلَى مَوْضِعِهَا، وَهُوَ مَنْ أَمَرَهُ بِبِنَائِهَا، ومع هذا حمل همّ قبولها؟!

أَمِ الْعَجَبُ مِنْ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يُلْغِ وَلَدَهُ الصَّغِيرَ فِي الدُّعَاءِ، عَلَى أَنَّهُ أَبُوهُ ومن ثم فهو يَدْخُلُ مَعَهُ - كَمَا يُخْفِي الآبَاءُ أَبْنَاءَهُم عَادَةً فِي ذَلِكَ؟! - بَلْ جَعَلَ دُعَاءَهُ لِوَلَدِهِ نَصّاً وَلَيْسَ ضِمْناً، فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾، وصدق،

---

(١) قَدْ ذَكَرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ بَعْضَ هَذِهِ الوَمْضَةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

فقد كان ولده هذا أمة، وكانت من ذريته خير أمة.

أَمِ الْعَجَبُ مِنْ تعميم إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الدُّعَاءَ لِذُرِّيَّتِهِ كُلِّهَا فِي مَوْطِنٍ آخَرَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ لِيشْمَلَ إِسْمَاعِيلَ وَذُرِّيَّتَهُ وَإِخْوَانَهُ وَذَرَارِيهِمْ، بَيْنَمَا خَصَّ هُنَا إِسْمَاعِيلَ وَذُرِّيَّتَهُ بِالدُّعَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: خَفْقُ الْقَلْبِ الضَّارِعِ:

كَأَنَّ الْمُتَدَبِّرَ لِلآيَاتِ يَسْتَمِعُ خَفْقَ قَلْبِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِالرَّجَاءِ مَعَ الْإِشْفَاقِ، وَذَلِكَ مِنْ مَنْزِلَةِ الْإِحْسَانِ، فَهُمَا إِذْ يَرْفَعَانِ الدُّعَاءَ بِأَلْسِنَتِهِمَا، وَيَخْفِقُ قَلْبُهُمَا بِالدُّعَاءِ، كَأَنَّهُمَا إِذْ ذَاكَ يَرَيَانِ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - عِنْدَ كُلِّ مَا يُسَمَّى رَفْعاً لِلْبَيْتِ..

هَكَذَا الْأَمْرُ مَعَ كُلِّ لَبِنَةٍ يَضَعَانِهَا، فَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ - لَمْ يَذْكُرْ أَنَّ دُعَاءَهُمَا كَانَ عِنْدَ ابْتِدَاءِ الْبَيْتِ كَدَعْوَةٍ رَافَقَتِ النِّيَّةَ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ الانْتِهَاءِ مِنَ الْبِنَاءِ كَاسْتِغْفَارٍ يُلْحَقُ بِالعِبَادَةِ.. لَا، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾، ثُمَّ أَفْعَالُ الْمُضَارِعِ وَالْمُسْتَقْبَلِ الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا الآيَةُ الكَرِيمَةُ فَهُمَا أَمْرَانِ تَذْكِيرٍ، وَاستمرارٍ فِيمَا مَضَى حَيْثُ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩].

فَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾ فِيهِ الاسْتِمْرَارِيَّةُ فِي هَذَا الدُّعَاءِ الضَّارِعِ، بَلْ هَذَا اللِّسَانِ الرَّافِعِ، بَلْ هَذَا الْقَلْبِ الْمُحْسِنِ الْخَاشِعِ، الرَّاجِي الْمُشْفِقِ الْمُضْطَّرِّ.. فِي كُلِّ مَا يُسَمَّى **رَفْعاً**، فَهُوَ قَلْبٌ حَاضِرٌ عِنْدَ كُلِّ لَبِنَةٍ.

فَمَا أَنْسَبَ **رَفْعَ** هَذِهِ المَعَانِي العُظْمَى مَعَ **رَفْعِ** هَذِهِ اللَّبنَاتِ العُظْمَى.

فَيَاللَّهِ! كَمْ وَضَعَا مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَانِ، وَكَمْ وَضَعَا مِنَ الرَّجَاءِ الَّذِي لَا مُنْتَهَى لَهُ، وَالخَوْفِ وَالْإِشْفَاقِ.. كَمْ وَكَمْ وَضَعَا بَيْنَ اللَّبِنَةِ وَاللَّبِنَةِ، وَفَوْقَ اللَّبِنَةِ وَتَحْتَ اللَّبِنَةِ، وَفِي لُبِّ اللَّبِنَةِ وَعَجِينَتِهَا..

فَرِسَالَةُ هَذِهِ الوَمْضَةِ تَقُولُ: مَا أَنْسَبَ الرَّفْعَ لِلرَّفْعِ:

هَذَا طَرِيقُ بَقَاءِ الرِّفْعَةِ.. بَقَاءِ الْأَعْمَالِ، بَقَاءِ الْبِنَاءِ.. نُمُوِّ الْبَذْرِ، وَحَيَاةِ الْغَرْسِ.. فَبِقَدْرِ مَا نَسْقِيهِ مِنْ هَذَا السِّقَاءِ بِقَدْرِ مَا يَبْقَى، فَهُوَ سِقَاءُ الْبَقَاءِ، وَإِلَّا فَعُمُرُهُ عُمُرُ أَيِّ بِنَاءٍ فِي الْأَرْضِ..

اسْقِ كِتَابَتَكَ إِذْ أَنْتَ تَكْتُبُ مِنْ رُضَابِ إِخْلَاصِكَ وَصِدْقِكَ وَإِحْسَانِكَ..، اسْقِ كَلَامَكَ إِذْ أَنْتَ تَخْطُبُ وَتَعِظُ وَتَنْصَحُ..، اسْقِ بِنَاءَكَ إِذْ أَنْتَ تَبْنِي وَتُذَكِّرُ..، اسْقِ صَدَقَاتِكَ إِذْ أَنْتَ تَتَصَدَّقُ..، اسْقِ مَنَامَكَ وَقِيَامَكَ وَحَرَكَتَكَ وَسُكُونَكَ من إخلاصك..

رِسَالَةٌ تَقُولُ: إِيَّاكَ أَنْ تُذْهِلَكَ كَثْرَةُ عَمَلِكَ، وَعُلُوُّ بِنَائِكَ عَنِ الْعَلِيِّ الَّذِي تُرْفَع لَهُ أَعْمالُكَ سُبْحَانَهُ، فَالْكَعْبَةُ، وَهِيَ الْكَعْبَةُ، مَعَ عَظَمَتِهَا وَمَهَابَتِهَا مَا أَخَذَتِ الْتِفَاتَةً مِنَ الْخَلِيلِ وَوَلَدِهِ، كَمَا فِي هَذَا الْخِطَابِ، بَلْ هُوَ الْقَلْبُ الْمُعَلَّقُ بِرَبِّ الْبَيْتِ سُبْحَانَهُ؛ وَلِذَا بَقِيَ الْبَيْتُ وَسَيَبْقَى إِلَى أَبَدِ الْآبِدِينَ؛ لِأَنَّهُ رُبِطَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَقَبِلَهُ اللَّهُ كَذَلِكَ، وَنَسَبَهُ لِنَفْسِهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وَقَالَ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣].

أَيْنَ الْبَيْتُ مِنَ الْبَيْتِ؟!

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ طَرْدِ (آزَرَ) وَلَدَهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ الْوَلَدُ الْمُحِبُّ الْبَارُّ مِنْ بَلَدِهِ وَبَيْتِهِ؟! أَمِ الْعَجَبُ كَيْفَ أَبْدَلَ اللَّهُ الوَلَدَ عَنْ بَيْتِ أَبِيهِ بِبَيْتِهِ هُوَ سُبْحَانَهُ، فَهُوَ يَبْنِيهِ وَاللَّهُ يُبْقِيهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، فَأَيْنَ بَيْتُ آزَرَ الْيَوْمَ مِنْ بَيْتِ اللَّهِ الْعَتِيقِ؟!

رِسَالَةُ الوَمْضَةِ: مَنْ يُعْفَ مِنَ الاخْتِبَارِ فِي بَيْتِهِ وَمَعَ أَهْلِهِ بَعْدَ الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ؟!

حَقّاً.. إِنَّنَا نَتَعَبَّدُ اللَّهَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، لَكِنَّ هَذِهِ الْعِبَادَةَ إِذَا تَعَارَضَتْ مَعَ تَوْحِيدِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - قُدِّمَ عَلَيْهَا التَّوْحِيدُ، وَإِذَا كَانَتْ طَاعَةُ الْوَالِدَيْنِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ أُطِيعَ اللَّهُ وَعُصِيَ الْوَالِدَانِ، وَلِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ اخْتَارَ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - بِغَيْرِ تَرَدُّدٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - بِغَيْرِ حَدٍّ..

رِسَالَةٌ تَقُولُ: لَيْسَ مَقَامُ الْأَنْبِيَاءِ جَاءَ بِغَيْرِ تَكَالِيفَ وَتَبِعَاتٍ حَتَّى فِي أَصْعَبِ الْعَلَاقَاتِ، وَلَمْ يُعْفَ الْأَنْبِيَاءُ مِنَ

الاخْتِبَارَاتِ الصَّعْبَةِ، بَلْ إِنَّ اخْتِبَارَاتِهِمْ أَصْعَبُ مَا تَكُونُ، وَلَكِنْ ذَهَبَ البَلَاءُ، وَبَقِيَ الرِّضْوَانُ وَالذِّكْرُ الحَسَنُ، ومِنْ فَضْلِ اللَّهِ أَنْ أَصْبَحَ الْمُتَأَخِّرُونَ أَمْثَالُنَا - عَلَى بُعْدِ مَا بيننا وَبَيْنَهُمْ مِنْ تَطَاوُلِ القُرُونِ - لَا يَذْكُرُونَ إِلَّا صَدَقَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الجَارِيَةَ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٨ - ١١١].

❊ ❊ ❊

كَمْ أَجْرُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الدُّنْيَا؟

كَمْ عَجِبْتُ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: ٢٧] وَهُوَ خَلِيلُهُ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام!

فَكَمْ عَمِلَ إِبْرَاهِيمُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الدَّائِمَةِ الَّتِي بَقِيَتْ وَتَبْقَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ!

وَلَكِنْ، كَمْ أَعْطَى اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ مُلْكِ الدُّنْيَا حَتَّى قَالَ اللَّهُ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾.. هَلْ كَانَ مِنْ هَذَا الأَجْرِ أَنْ جَعَلَ لَهُ قَصْراً؟ هَلْ كَانَ عِنْدَهُ أَمْوَالٌ وَخَيْلٌ، وَخَزَائِنُ وَمَا إِلَى ذَلِكَ..؟!

وَمَعَ هَذَا فَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ، وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾.

فَأَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا قَدْ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ عَلَى الوَفَاءِ وَالتَّمامِ.

فَالْعَجَبُ مِنْ دُعَاةٍ وَعُبَّادٍ يُرِيدُونَ عَلَى مَا بَذَلُوا أَجراً فِي الدُّنْيَا.. وَآخَرِينَ يَقَعُ فِي نُفُوسِهِمْ مِثْلُ هَذَا.! مَاذَا يُسَاوِي

عَمَلُكُمُ الصَّالِحُ الْبَاقِي بِجِوَارِ عَمَلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟! وَمَعَ هَذَا فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعالَى عَنْهُ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ حَقّاً، إِنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ دَارَ جَزَاءٍ.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: لَا تُفَرِّطْ فِي مُدَّخَرَاتِ الْآخِرَةِ:

أَرَأَيْتَ وَاحِداً قَبْلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَى الدُّنْيَا كَمَا أَعْطَاهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِدَاءً لِلَّهِ.. أَعْطَى الْوَالِدَ وَالْأَهْلَ... أَعْطَى الْبَيْتَ... أَعْطَى الزَّوْجَةَ وَالْوَلَدَ... أَعْطَى نَفْسَهُ... أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ! فَهَلْ أَعْطَى اللَّهُ أَحداً قَبْلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أَعْطَى إِبْرَاهِيمَ....، وَهَلْ أَبْقَى عَمَلَ أَحَدٍ، وَسَبْقَ أَحَدٍ، وَذِكْرَ أَحَدٍ....، وَبِنَاءَ أَحَدٍ....، وَذُرِّيَّةَ أَحَدٍ....، وَمَا إِلَى ذَلِكَ....، مَا أَعْطَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟!

فَمَا لِمَنْ يُصَلِّي عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلاةُ وَالسَّلام فِي كُلِّ صَلَاةٍ يَخْشَىٰ أَنْ يُعْطِيَ لِلَّهِ، وَلَا يَرُدَّ اللَّهُ لَهُ أَحْسَنَ مِمَّا أَعْطَى؟!

أَيُّ طَمَعٍ فِي كَسْبِ الدُّنْيَا مِنْ خِلَالَ الدِّينِ أَسْوَأُ مِنْ كَسْبِ طَالِبِ عِلْمٍ وَدَعْوَةٍ، أَوْ خَطِيبٍ أَوْ كَاتِبٍ أَوْ نَاصِحٍ يَأْخُذُ عَلَى

ذَلِكَ أَجْراً فِي الدُّنْيَا مُسْتَبْدِلاً هَذِهِ بِهَذِهِ، وَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ - يَقُولُ عَنْ خَلِيلِهِ مِنْ خَلْقِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾..

وَاللَّهِ، لَكَأَنَّ الْقَوْمَ الْيَوْمَ يُنْفِقُونَ بِمَا يَأْخُذُونَ مِنْ خَزَائِنِ أُجُورِ آخِرَتِهِمْ..؛ لِأَنَّ خَيْرَ النَّاسِ - الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَأَتْبَاعَهُمْ - قَدْ أَخَذُوا أُجُورَهُمْ كَامِلَةً فِي الدُّنْيَا.. وَادَّخَرُوا أُجُورَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ..، فَمَاذَا تُرِيدُ فَوْقَ أُجُورِ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام في الدُّنْيَا..؟!

خُذْ مَا تَشَاءُ فَوْقَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ مِنْ أُجُورِ آخِرَتِكَ ..

أَنَسِيتَ قَوْلَ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَا يُصِيبُ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئاً إِلَّا نَقَصَ مِنْ دَرَجَاتِهِ عِنْدَ اللَّه وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ كَرِيماً»(١).

رِسَالَةٌ تَقُولُ: أَيُّهَا الْعَالِمُ، أَيُّهَا الدَّاعِيَةُ، أَيُّهَا الْخَطِيبُ، أَيُّهَا الْكَاتِبُ، مَزِيداً مِنَ التَّنَازُلِ عَنْ أُجُورِ الدُّنْيَا وَالرِّضَا بِأُجُورِ الآخِرَةِ فِي أَعْمَالِ الْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ..

يَا أَتْبَاعَ الْأَنْبِيَاءِ: الأُجُورُ أَمَامَكُمْ فَنَمُّوهَا وَزِيدُوهَا، وَلَا

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا وصححه الألباني، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٢٢٠).

تُنْفِقُوا مِنْهَا حَبَّةً. . فَمَا يُنْفَقُ إِنَّمَا يُنْفَقُ مِنْ رَأْسِ مَالِكَ هُنَاكَ، وَمَا يُدَّخَرُ يَدْخُلُ فِي وَعْدِ اللَّهِ بِالمُضَاعَفَةِ وَالتَّنْمِيَةِ، لَكِنْ: أَتَكُونُ الْمُضَاعَفَةُ إِذَا لَمْ يَكُنْ رَأْسُ مَالٍ؟ وَكَيْفَ تَكُونُ مُضَاعَفَةٌ لِمَا أُنْفِقَ مِنْ رَأْسِ الْمَالِ؟

مَا أَفْقَهَ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ!

وَمَا أَفْقَهَ الزُّهَّادَ مِنَ الْخُلَفَاءِ وَالأَئِمَّةِ الصَّالِحِينَ حِينَ لَمْ يَرْضَوْا بِهَذِهِ الْمُبَادَلَةِ وَلَا بِجُزْءٍ مِنْهَا!

فَهَلِ الدُّنْيَا كُلُّهَا تُسَاوِي مَوْضِعَ سَوْطِ الْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ. . ؟!

وَهَلْ يَشْتَرِي أَهْلُ الْمَقَابِرِ كُلَّ الدُّنْيَا بِسَجْدَةٍ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. . ؟!

ضَعُوا أَمَامَ الَّذِينَ رَحَلُوا قَبْلَنَا خَزَائِنَهُم الْمُدَّخَرَةَ كُلَّهَا فِي كِفَّةٍ، وَضَعُوا دِرْهَماً وَاحِداً قَدْ أَنْفَقَهُ أَحَدُهُمْ في سَبِيلِ اللَّهِ خَالِصاً فِي كِفَّةٍ، وَخَيِّرُوهُمْ - خَيِّرُوا الآبَاءَ وَالْمُلُوكَ وَالْأَغْنِيَاءَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ رَحَلُوا وَتَرَكُوهَا - بَيْنَ الكِفَّتَيْنِ. . فَأَيَّ شَيءٍ يَخْتَارُونَ. . ؟!

إِذَنْ، فَمَا لَنَا لَا نَخْتَارُ لِأَنْفُسِنَا الآنَ. . . ، وَنَحْنُ فِي زَمَنِ الْإِمْكَانِ وَالْمُهْلَةِ، وَهُمْ فِي بَرْزَخِ الحِسَابِ، وَهَذِهِ رِسَالَتُهُمْ قَدْ وَصَلَتْنَا. . ؟!

* * *

ومضات العجب مع آدم عليه السلام

في القرآن الكريم

القُعُودُ وَالعَوْدَةُ إلى الجنَّةِ

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ عِتَابِ الْبَعْضِ عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خُرُوجَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَتَسَاؤُلِ هَؤُلَاءِ: لِمَ أُهْبَطَ آدَمُ إِلَى الْأَرْضِ؟ وَيَنْسِبُونَ الْإِهْبَاطِ إِلَيْهِ، أَمِ الْعَجَبُ مِنْ غَفْلَتِهِمْ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى سَلَفاً لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؟!

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ إِشْغَالِ الْبَعْضِ فِكْرَهُ بِخُرُوجِ الْأَبِ مِنَ الْجَنَّةِ إِشْغَالًا جَدَلِيّاً لَا نَفْعَ وَرَاءَهُ، أَمِ الْعَجَبُ مِنْ أَنَّهُمْ يَسِيرُونَ فِي هَذِهِ الْفِكْرَةِ وَرَاءَ إِبْلِيسَ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَخْبَرَهُمْ سَلَفاً بِالغَايَةِ مَنْ خَلْقِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ؟!

أَمِ الْعَجَبُ مِنَ اتِّبَاعِ أَكْثَرِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ إِبْلِيسَ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّهُ خَارِجٌ مِنَ الجَنَّةِ إِلَى غَيْرِ عَوْدَةٍ.. بَيْنَمَا عَادَ لَهَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟!.

فَهَلِ الْعَجَبُ مِنْ قُعُودِ بَعْضِ النَّاسِ عَنِ الْعَمَلِ لِأَكْلِ آدَمَ مِنَ الشَّجَرَةِ وَخُرُوجِهِ مِنَ الْجَنَّةِ، أَمِ الْعَجَبُ مِنْ عَدَمِ سَعْيِهِمْ لِلْعَوْدَةِ إِلَيْهَا وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى ذَلِكَ - بِإِذْنِ اللَّهِ - بَعْدَمَا عَادَ إِلَيْهَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَانِيَةً؟!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: مَسْكَنُ الذُّرِّيَّة الأَوَّلُ:

لَمْ يَسْكُنْ آدَمُ وَحَوَّاءُ وَحْدَهُمَا الْجَنَّةَ، بَلْ كَانَتِ الْجَنَّةُ هِيَ مَسْكَنَ آدَمَ وَكُلِّ الذُّرِّيَّةِ الَّتِي يَحْمِلُهَا فِي ظَهْرِهِ، وَالَّتِي اسْتَخْرَجَهَا اللَّهُ مِنْهُ فِي الْأَرْضِ فِي عَرَفَاتٍ.. وَلِذَا، فَإِنَّ الْحَنِينَ إِلَى الجَنَّةِ فِي الذُّرِّيَّةِ يَبْقَى أَبَداً لأَوَّلِ مَنْزِلٍ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ - تَعَالَى - لَنَا عَلَى هَذَا مَثَلاً نَرَاهُ..

تِلْكَ هِيَ أَنْوَاعٌ مِنَ الْأَسْمَاكِ تُسَمَّى (السَّالَمُون)، وَأَنْوَاعٌ مِنَ الْأَفَاعِي الْبَحْرِيَّةِ تَعِيشُ فِي (الْبُحَيْرَاتِ الشَّمَالِيَّةِ فِي مِصْرَ وَفِي غَيْرِهَا) فَتَذْهَبُ هَذِهِ لِتَضَعَ بُيُوضَهَا فِي (الْمُحِيطِ الأَطْلَنْطِي)، وَمَا أَنْ يَفْقِسَ الْبَيْضُ هُنَاكَ حَتَّى يَعُودَ الصِّغَارُ جَمِيعاً إِلَى مَوْطِنهِمُ الْأَصْلِيِّ الَّذِي لَمْ يَعِيشُوا فِيهِ أَبَداً إِلَّا فِي جِينَاتِ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ.. فَهَذِهِ الْحَيَوَانَاتُ الوَلِيدَةُ لَمْ تَحِنَّ إِلَى مَوْطِنِهَا الْأَصْلِيِّ فَحَسْبُ، وَإِنَّما حَنَّتْ وَسَارَتْ عَائِدَةً، وَلَمْ تَضِلَّ الطَّرِيقَ..

فَغَايَتُهَا هِيَ أَنْ تَبْلُغَ الْمَنْزِلَ الْأَوَّلَ..، وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ يَمُوتُ مِنْ تِلْكَ الصِّغَارِ مَنْ يَمُوتُ، وَيُؤْكَلُ مَنْ يُؤْكَلُ، الْمُهِمُّ أَنْ تَبْلُغَ الْغَايَةَ أَوْ تَمُوتَ دُونَهَا، فاللَّهُمَّ بَلِّغْنَا دَارَ

السَّلامِ بِسَلَامٍ.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: قَدْ شَرَّفَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - مَقَامَ هَذَا الصِّنْفِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي الْأَرْضِ بِقَوْلِهِ: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [البقرة: ٣٠]، فَكَيْفَ يَتَنَازَلُ الْإِنْسَانُ عَنِ الْمَقَامِ الْمُسَمَّى لَهُ سَلَفاً بـ «الخَلِيفَةِ» لِلْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تُشَارِكُهُ سُكْنَى الْأَرْضِ[١]... وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الجَنَّةَ دارَهُ... فَكَيْفَ يَشْغَلُهُ غَيْرُهُ عَنْهَا، أو يَرْضَى بِهَا بَدِيلاً...، كَيفَ لَا يَتْبَعُ الأَبْنَاءُ أَبَاهُمْ وَأُمَّهُمْ وَقَدْ عَادَا إِلَيْهَا، وَرَحَلَا إِلَى مَوطِنِهِمَا الأَصْلِي؟!.

❊ ❊ ❊

(١) انظر القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

الْإِهْبَاطُ إِلَى الْأَرْضِ لَا إِلَى النَّارِ

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَنْقُلْ أَبَوَيْنَا آدَمَ وَحَوَاءَ بِهَذَا الذَّنْبِ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى النَّارِ، لَكِنَّهُ نَقَلَهُما مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ، فَقَالَ: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، أَمِ الْعَجَبُ مِنْ لُطْفِ اللَّه إِذْ أَبْقَى الْجَنَّةَ لِآدَمَ وَحَوَّاءَ سَكَناً، فَقَالَ: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، وَجَعَلَ حَنِينَهُمْ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ أَبَداً لِأَوَّلِ مَنْزِلٍ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُمُ النَّارَ سَكَناً، فَهُمْ إِنْ عَادُوا لِلْجَنَّةِ فَهِيَ سَكَنُهُمْ، وَإِنْ ذَهَبُوا إِلَى النَّارِ - وَلَنْ يَذْهَبُوا - فَهُمْ غُرَبَاءُ، **أَمِ الْعَجَبُ** مِنَ اقْتِتَالِ النَّاسِ عَلَى قِطْعَةِ الْأَرْضِ هَذِهِ وَهِيَ حُطَامٌ مَعَ تَنَازُلِهِمْ عَنْ مَسْكَنِهِمُ الْأَوَّلِ - دَارِ النَّعِيمِ الْخَالِدَةِ؟!

أَمِ الْعَجَبُ مِنْ عَظِيمِ الْعَذَابِ الَّذِي عَاشَهُ آدَمُ وَحَوَّاءُ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّفْيِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْمُوحِشَةِ..

فكم هو الْفَارِقُ عظيم مَا بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالْأَرْضِ!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: طَرِيقُ الْعَوْدَةِ لِلْجَنَّةِ:

نَصَّ اللَّهُ عَلَى أَنَّ سَبَبَ خُرُوجِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْجَنَّةِ بِأَكْلَةٍ أَكَلَهَا، فَقَالَ: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٥ - ٣٦] فَمَا أَعْظَمَ وَأَكْثَرَ الْأَعَاجِيبَ فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ التَّامَّاتِ، وَفِي ابْتِدَاءِ الِاخْتِبَارَاتِ الْبَشَرِيَّةِ، وَجِمَاعِهَا فِي «أَكْلَةٍ»، لَكِنَّ **الْعَجَبَ** كَذَلِكَ مِمَّنْ يُرِيدُ الْعَوْدَةَ إِلَى الْجَنَّةِ وَهُوَ يَأْكُلُ أَضْعَافَ أَضْعَافِ مَا أَكَلَ أَبُوهُ مِمَّا نَهَاهُ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ أَكْلِ الْحَرَامِ وَأَكْلِ الْجَنَّةِ..!

أَوْ كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ بِالأَخْذِ بِأَسْبَابِ الْخُرُوجِ مِنْهَا..!

الْعَجَبُ مِنْ دَاعِيَةٍ أَوْ عَالِمٍ إِذَا طُرِدَ مِنْ بَلَدٍ لِأَجْلِ دِينِهِ يَيْأَسُ وَيَقْنَطُ، وَيَتْرُكُ الْعَمَلَ الْمُتَعَدِّي نَفْعُهُ، وَالدَّعْوَةَ إِلَى اللَّه مُسَوِّغاً تَخَاذُلَهُ الْجَدِيدَ - أَنْ لَا يَتَكَرَّرَ مَعَهُ الْحَالُ الْأَوَّلُ فِي ذَاكَ الْبَلَدِ - فَيَعِيشُ مَرْحَلَةً جَدِيدَةً طَابَعُهَا الْمُجَامَلَةُ عَلَى حِسَابِ الدِّيْنِ، وَالسُّكُوتُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَرُبَّمَا النِّفَاقُ!

* * *

أَكْلُ الْحَرَامِ وَأَكْلُ الْجَنَّةِ

هَلِ الْعَجَبُ كَيْفَ صَدَّقَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِبْلِيسَ فَأَكَلَ مَعَ شِدَّةِ التَّحْذِيرِ، أَمِ الْعَجَبُ مِنْ سَرَيَانِ أَثَرِ تِلْكَ اللُّقْمَةِ فِي آدَمَ مُبَاشَرَةً: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.

أَمِ الْعَجَبُ مِنْ تَسَاهُلِ الْآبَاءِ فِي طُعْمَةِ الْأَبْنَاءِ؟!

وهَلِ الْعَجَبُ مِنْ أَنَّهُمَا أَكَلَا مَعاً وَأُخِذَا بِالذَّنْبِ مَعاً، وَظَهَرَتْ آثَارُ الذَّنْبِ عَلَيْهِمَا مَعاً، وَأُهْبِطَا مِنَ الْجَنَّةِ مَعاً وَهُمَا الأُسْرَةُ الوَحِيدَةُ هُنَاكَ، أَمِ الْعَجَبُ مِنْ تَهَاوُنِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأُسْرَةِ الْوَاحِدَةِ بِالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ دَاخِلَ الأُسْرَةِ، وَهُمْ لَا يَخَافُونَ أَنْ يُؤْخَذُوا بِذُنُوبِهِمْ مَعاً..؟!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: هَوِيٌّ مِنَ الْمَكَانَةِ لَا الْمَكَانِ..

سُبْحَانَ اللَّهِ! الْأَكْلُ مِنَ الشَّجَرَةِ مَعْصِيَةٌ... وَكَشْفُ الْعَوْرَةِ مَعْصِيَةٌ... وَهَكَذَا جَرَّتِ الْمَعْصِيَةُ إِلَى مَعْصِيَةٍ،

وَمَضَتْ فِي الْخَلْقِ وَكَأَنَّها سُنَّةٌ جارِيَةٌ، لَا تُوقَفُ إِلَّا بِالْهِدَايَةِ لِتَوْبَةٍ مَقْبُولَةٍ . .

وَسُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ كَانَتْ لُقْمَةٌ أُخْفِيَتْ فِي الْجَوْفِ، فَسَرَى مَفْعُولُها إِلَى الظَّاهِرِ . . إِلَى الثِّيَابِ فَتَسَاقَطَتْ.

عَجِبْتُ لِابْنِ آدَمَ يَرَى مَاذَا صَنَعَتِ الْمَعْصِيَةُ بِأَبِيهِ . . وَأَيَّ مَكَانَةٍ فَوَّتَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصِرُّ عَلَيْهَا! أَيُرِيدُ ابْنُ آدَمَ أَنْ يَرَى بِعَيْنَيْهِ مَاذَا تَصْنَعُ بِهِ اللُّقْمَةُ الْحَرَامُ؟!

لَا تَنْتَظِرْ تَحَوُّلَكَ بِالْمَعْصِيَةِ الْيَوْمَ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، إِنَّمَا هُوَ تَغَيُّرُ الْمَكَانَةِ عِنْدَ اللَّهِ، وَهُبُوطُ الْمَقَامِ.

فِمِنْ أَثَرِ الْأَكْلَةِ عَمَّتْ عُقُوبَتُهَا عَلَى الْآكِلِ كُلِّهِ، وَهَوَتْ بِآدَمَ بَعِيداً، تُرَى كَيْفَ أَثَّرَ أَكْلُ ابْنِ آدَمَ الْحَرَام عَلَى الْقَلْبِ نَفْسِهِ؟ **فَالْعَجَبُ** مِمَّنْ يَرْجُو جَوَابَ دَعْوَتِهِ وَقَدْ عَمَّهُ الْحَرَامُ ظَاهِراً وَبَاطِناً، وَأَبُوهُ آدَمُ حِينَ أَكَلَ الْحَرَامَ أُبْعِدَ، وَإِجَابَةُ الدُّعَاءِ تَحْتَاجُ لِقُرْبٍ وَتَقَرُّبٍ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]،

وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ**»(١).

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ مَكْرِ إِبْلِيسَ الَّذِي أَذْهَلَ آدَمَ عَنْ كُلِّ مَا فِي الْجَنَّةِ، وَأَوْقَعَهُ فِي تِلْكَ الشَّجَرَةِ الْوَحِيدَةِ تَحْدِيداً بِحَيْثُ نَجَحَ فِي الْمُحَاوَلَةِ الْمَاكِرَةِ الْأُولَى، أَمِ الْعَجَبُ مِمَّا زَادَهُ إِبْلِيسُ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ حَتَّى هَذَا الْيَوْمِ بِطُولِ الْعُمُرِ مَعَ تَجَارِبَ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى مَعَ الْأَفْرَادِ وَالأُمَمِ، نَعُوذُ بِاللَّه مِنْهُ، أَمِ الْعَجَبُ مِنْ فَضْلِ اللَّه عَلَيْنَا الَّذِي حَصَّنَنَا مِنْهُ عَلَى رَغْمِ قِصَرِ أَعْمَارِنَا، وَضَعْفِ أَبْصَارِنَا، وَقِلَّةِ إِمْكَانِيَّاتِنَا الذَّاتِيَّةِ بِأَنْ نَسَبَنَا إِلَى نَفْسِهِ سُبْحَانَهُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]؟!

* * *

(١) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ»، بَابُ قَبُولِ الصَّدَقَةِ مِنَ الْكَسْبِ الطَّيِّبِ وَتَرْبِيَتِهَا.

ومضات متنوعة من كتاب اللَّه تعالى

لِمَ لَمْ تُصْهَرِ العِظَامُ؟

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ قَوْلِ اللَّه تَعَالَى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾، أَمِ الْعَجَبُ مِنْ عَدَمِ صَهْرِ تِلْكَ النَّارِ الْعِظَامَ، فَلَا أَعْرِفُ نَصّاً وَاحِداً يَذْكُرُ الْعِظَامَ بِالصَّهْرِ مَعَ أَنَّ الْأَرْضَ تَأْكُلُ كُلَّ عِظَامِ بَنِي آدَمَ إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ[١]؟!

وَلَوْ تُرِكَ الْأَمْرُ لِتِلْكَ النَّارِ لَمَا تَرَكَتْ شَيْئاً إِلَّا أَذَابَتْهُ، أَوْ بَخَّرَتْهُ، أَوْ حَلَّلَتْهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ..

كَيْفَ وَنَحْنُ نُشَاهِدُ مِثْلَ هَذَا مِمَّا هُوَ أَقَلُّ مِنْ نَارِ الْآخِرَةِ كَالتِّيزَابِ وَغَيْرِهِ..

لَكِنْ لَوْ ذَهَبَتِ الْعِظَامُ وَهِيَ هَيْكَلُ الإِنْسَانِ فَكَأَنَّ الْمُعَذَّبِينَ اسْتُبْدِلُوا بِأُنَاسٍ آخَرِينَ! فَلْتَبْقَ الْعِظَامُ كَمَا هِيَ، وَلْيَدُم الْعَذَابُ أَبَدَ الآبِدِينَ.. وَلْتَبْقَ الْأَشْكَالُ مَفْضُوحَةً مَعْرُوفَةً لِبَعْضِهِمُ الْبَعْضِ، وَلِأَهْلِ الْجَنَّةِ إِذَا نَظَرُوا إِلَيْهِمْ.

---

(١) متفق عليه: البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين.

فلو ذهبت العظام لتغير الهيكل والقوام، وتغير الوجه وهو الأساس. . ، فاللهم إنا نعوذ بك من النار.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: كَمَالُ الْعَذَابِ:

كَمْ مِنْ جَاهِلٍ يُعَذِّبُ، وَلَكِنَّهُ فِي عَذَابِهِ يَرْحَمُ مُعَذَّبَهُ. . كَطَاغِيَةٍ يَغْضَبُ فَيَنْتَقِمُ بِإِطْلَاقِ الرَّصَاصَةِ الأَخِيرَةِ، فَيَرْحَمُ الْمُعَذَّبَ؟

وَكَمْ مِنْ مُعَذِّبٍ يَخْتَارُ نَوْعاً مِنَ العَذَابِ يَتَمَنَّاهُ الْمُعَذَّبُ بِالنِّسْبَةِ لِغَيْرِهِ، أَوْ يُرَكِّزُ عَلَى عُضْوٍ يَرَى فِيهِ الْمُعَذَّبُ سَلَامَتَهُ بِالتَّرْكِيزِ عَلَيْهِ. . !

لَكِنْ، كَيْفَ إِذَا عَذَّبَ الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ سُبْحَانَهُ!! ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥ - ٢٦]. .

إِنَّ سَلَامَةَ الْعِظَامِ مِنَ الذَّوَبَانِ أَوِ الزَّوَالِ وَالتَّبْدِيلِ إِنَّمَا هِيَ سَلَامَةُ العَذَابِ مِنَ النُّقْصَانِ، فَلَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَزِيدَ عَلَى عَذَابِ اللَّهِ شَعْرَةً، كَكُلِّ أَفْعَالِ اللَّهِ، حَيْثُ تَتَّصِفُ بِالْكَمَالِ الْمُطْلَقِ. فَاللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الجَنَّةَ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ. .

❊ ❊ ❊

أَيْنَ البُيُوتُ مِنَ البُيُوتِ؟

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ قَوْلِ اللَّه لأُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُنَّ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾؟! **أَمِ الْعَجَبُ** مِنْ «بُيُوتِهِنَّ» الَّتِي هِيَ مُجَرَّدُ حُجْرَةٍ وَاحِدَةٍ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ.. **أَمِ الْعَجَبُ** مِنْ ضِيقِ نَفَسِ المُسْلِمَةِ الْيَوْمَ، وَضِيقِ صَدْرِهَا وَخُلُقِهَا، فَتَنْطَلِقُ خَارِجَةً مِنْ بَيْتٍ هُوَ أَوْسَعُ مِنْ مَجْمُوعَةِ حُجُرَاتِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ مُجْتَمِعَاتٍ؟! **أَمِ الْعَجَبُ** مِنْ طَلَبِ المسلمة اليوم المَزِيدَ فِي البَيْتِ، وَالمَزِيدَ خَارِجَ البَيْتِ..؟!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.

أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِأُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ، هَكَذَا نَقْرَؤُهَا طِوَالَ أَعْمَارِنَا، وَإِنَّهَا - وَاللَّهِ - لَكَذَلِكَ، وَلَكِنْ كَمْ يَحْمِلُ هَذَا التَّوْجِيهُ مِنَ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ مَعَانِي الرِّعَايَةِ لِبَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ وَلأَهْلِ بَيْتِهِ؟

إِنَّ الرَّجُلَ لَا يَجْرُؤُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاطِنِ عَلَى النُّصْحِ فِي مَوْضُوعِ العِرْضِ، وَذَلِكَ لِعَظِيمِ خُصُوصِيَّتِهِ، وَمَعَ أَنَّ الأَمْرَ بِهَذِهِ الْخُصُوصِيَّةِ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مَا خَاطَبَ الْأُمَّهَاتِ الـمُؤْمِنَاتِ عَنْ طَرِيقِ رَسُولِهِ ﷺ وَهُوَ زَوْجُهُنَّ بِقَوْلِهِ: (قُلْ)، وَإِنَّما خَاطَبَهُنَّ مُبَاشَرَةً، فَأَيُّ رِعَايَةٍ يَسْتَشْعِرُهَا صَاحِبُ الْبَيْتِ وَأَهْلُهُ مِثْلَ هَذِهِ الرِّعَايَةِ..؟!

رِسَالَةٌ تَقُولُ: تَأَمَّلُوا تَكْرِيمَ الْإِسْلَامِ للزَّوْجَةِ، فَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ - نَسَبَ الْبُيُوتَ هُنَا لهُنَّ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ صَاحِبُ البُيُوتِ هُوَ رَسُولُ اللَّه ﷺ نَفْسُهُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿بُيُوتِكُنَّ﴾.

رِسَالَةٌ تَقُولُ: انْظُرُوا لِقُبْحِ الخُرُوجِ مِنَ البُيُوتِ بِالنِّسْبَةِ لِلمَرْأَةِ - فِي أَصْلِهِ - حَيْثُ جَعَلَهُ اللَّهُ مُقَابِلاً لِلتَّبَرُّجِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

* * *

التَّكْرِيمُ فِي ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ فَضْلِ السُّؤَالِ فِي هَذَا الدِّينِ، وَفَتْح بَابِهِ حَتَّى مَعَ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَرَفْع أَمْرِه إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَقَبُولِ اللَّهِ لَهُ، وَإِنْزَالِ جَوَابِهِ عَلَى السَّائِلِينَ، وَتَثْبِيتِ ذَلِكَ خَالِداً فِي خَيْرِ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ؟!

أَمْ الْعَجَبُ مِنْ فَكِّ أَسْئِلَةِ الصَّحَابَةِ عَلَى الْآخَرِينَ رُمُوزاً مَا كَانَ لَهَا أَنْ تُفَكَّ بِغَيْرِ سُؤَالِهِمْ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ، **أَمْ الْعَجَبُ** مِنْ أَبْوَابِ الْمُنْكَرَاتِ وَالْخَبَائِثِ الَّتِي أُغْلِقَتَ بِسَبَبِ أَسْئِلَتِهِمْ وَأَوَّلُهَا أَمُّ الْخَبَائِثِ كَمَا فِي الْآيَةِ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]؟!

أَم الْعَجَبُ مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْرَاتِ الَّتِي تَفَتَّحَتْ بِأَسْئِلَتِهِمْ، وَأَعْظَمُهَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ

يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] فَمَا جَاءَ هَذَا الْإِذْنُ إِلَّا بَعْدَ سُؤَالٍ وَطَلَبٍ، وَقَدْ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ.

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾... بِتَسْجِيلِ سُؤَالِ الصَّحَابَةِ فِي الْقُرْآنِ، **أَمِ الْعَجَبُ** مِنْ تَكَفُّلِ اللَّهِ تَعَالَى بِإِجَابَتِهِمْ تَشْرِيفاً لِرَسُولِهِ ﷺ؛ إِذْ كَانَ مُنْتَهَى أَمَلِهِمْ أَنْ يُجِيبَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّهُ لَأَمَلٌ عَظِيمٌ، فَإِذَا بِرَبِّهِمْ سُبْحَانَهُ هُوَ مَنْ يُجِيبُهُمْ، وَتَشْرِيفاً أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ نَابَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْهُ فِي إِجَابَتِهِمْ، فَإِنَّ الآيَةَ تُصَرِّحُ بِأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، وَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: (يَسْأَلُونَنِي)، أَوْ (يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ).

وَمَعَ هَذَا التَّصْرِيح فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَنُصُّ هُوَ عَلَى الْإِجَابَةِ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ، فَأَيُّ مَقَام أَعْلَى مِنْ هَذَا الْمَقَام الشَّرْعِيِّ وَالتَّشْرِيعِيِّ، فَإِذَا سَمِعْتَ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ مُوَجَّهَةً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّه ﷺ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاذْكُرْ مَا ادَّخَرَ اللَّهُ

فِيهَا لِرَسُولِهِ ﷺ وَلأَصْحَابِهِ الَّذِينَ سَأَلُوهُ طَلَباً مِنْهُمْ لمِعْرِفَةِ مُرَادِ رَبِّهِمْ فِي هَذِهِ الأُمُورِ.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ﴾ [البقرة: ١٨٩].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ﴾ [البقرة: ٢١٥].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: كَمْ مِنْ فَارِقٍ بَيْنَ سُؤالٍ وَسُؤالٍ..؟!

كَمْ فِي اسْتِخْدَامِ أُسْلُوبِ السُّؤَالِ مِنْ خَيْرٍ؟

كَمْ فِيهِ لِلْمُسْتَعْجِلِ مِنْ دُرُوسٍ تَقُولُ: اسْأَلْ قَبْلَ أَنْ تُقَرِّرَ.. اسْأَلْ قَبْلَ أَنْ تُعَاتِبَ.. اسْأَلْ قَبْلَ أَنْ تُواجِهَ.. اسْأَلْ قَبْلَ أَنْ تُخَاصِمَ؟

كَمْ لِلدَّاعِيَةِ فِي ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ مِنْ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرَاتِ يَشُقُّ بِهَا دُرُوبَ الْأَفْكَارِ إِذَا ظَنَّ الْعِبَادُ أَنْ لَا طَرِيقَ إِلَّا أَنْ يَسِيرُوا عَلَى هَذِهِ السِّكَّةِ الْفُولَاذِيَّةِ؟!

وَكَمْ فِي ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ مِنْ تَحْوِيلِ تَفْكِيرِ الْجُلَّاسِ بِغَيْرِ

شُعُورٍ مِنْهُمْ إِلَى حَيْثُ يُحِبُّ اللَّهُ وَيَرْضَى؟!

وَكَمْ فِي مَنْهَجِيَّةِ السُّؤَالِ مِنْ تَوْقِيرٍ لِلْكِبَارِ عِلْماً أَوْ سِنّاً أَوْ مَكَانَةً وَتَحْوِيلِ قُوَّتِهِمْ وَثِقَلِهِمْ إِلَى جَانِبِكَ...، جَانِبِ الْحَقِّ الَّذِي تُرِيدُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا؟!.

رِسَالَةُ يَسْأَلُونَكَ: لِيَكُنْ سُؤالُكُمْ مِفْتَاحَ خَيْرٍ، مِغْلَاقَ شَرٍّ.

❊ ❊ ❊

أَيَرْفعُك هُوَ لِتُنَافِقَ غَيْرَهُ[(١)]

وَالْعَجَبُ كَيْفَ أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - قَدَّمَ النَّهْيَ عَنْ خَشْيَةِ النَّاسِ عَلَى الْأَمْرِ بِخَشْيَتِهِ - سُبْحَانَهُ؟ فَكَأَنَّهَا خَشْيَتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبٍ وَاحِدٍ...، بَلْ لَا تَبْتَدِأُ خَشْيَةُ اللَّهِ بِدُخُولِ الْقَلْبِ حَتَّى يَطْهُرَ مِنْ خَشْيَةِ النَّاسِ...، هَذِهِ إِشَارَةُ تَرْتِيبِ الْخَشْيَتَيْنِ: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِۚ﴾ [المائدة: ٤٤] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَكَذَا قَالَ فِي آيَةِ البَقَرَةِ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ [١٥٠].

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ خَطِيبٍ وَكَاتِبٍ وَدَاعِيَةٍ وَنَاصِحٍ يَقْرَأُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِۚ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ﴾ فَيَصْرِفُ وَصْفَ الشِّرَاءِ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى غَيْرِهِ، بَيْنَمَا هُوَ يَشْرِي بِكَلِمَةِ الْحَقِّ مَكَاسِبَ الْوَجَاهَةِ، وَالشَّفَاعَةِ، وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّقْرِيبِ، وَطَلَبِ الْمَزِيدِ مِنْ ذَلِكَ،

---

(١) رُبَّمَا لَا يَكُونُ فِي هَذِهِ الوَمْضَةِ جَدِيدُ عِلْمٍ، إِنَّمَا هُوَ تَجْدِيدُ عَهْدٍ وَعَمَلٍ، وَهَلْ المَقْصُودُ إِلَّا هَذَا؟!

أَم الْعَجَبُ مِنْ فِعْلِهِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلَا يَعُدُّهَا شِرَاءً؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ نُقُوداً. .؟! أَم الْعَجَبُ مِنْ تَخْصِيصِ بَعْضِ عُلَمَائِنَا عُلَمَاءَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِهَذَا الفِعْلِ وَهُوَ يَفْعَلُ فِعْلَهُمُ الَّذِي ذَمَّهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: إِيَّاكَ وَفَلْسَفَةَ النِّفَاقِ:

كَمْ يُحَاوِلُ بَعْضُ النَّاسِ أَنْ يُفَلْسِفَ نِفَاقَهُ، أَوْ يُجَوِّزَ مَا يَقْبِضُ فِي مُقَابِلِ وَلَائِهِ الْمُحَرَّمِ، وَكَلِمَتِهِ الْبَاطِلَةِ، وَخُطْبَتِهِ الضِّرَارِيَّةِ، وَمَقَالَتِهِ الْمُؤَلِّبَةِ، وَكِتَابَاتِهِ وَمَوَاعِظِهِ الْهَدَّامَةِ. . لَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُسَمِّي الْأَشْيَاءَ بِأَسْمَائِهَا، وَيَكْشِفُهَا عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَيُسَمِّي كُلَّ هَذَا التَّزْيِيفِ حِينَ يُظْهِرُ حَقِيقَتَهُ الْعَمَلِيَّةَ كُلَهَا، إِنَّهُ بَيْعُ آيَاتِ اللَّه، وَقَبْضُ ثَمَنٍ قَلِيلٍ مُقَابِلَهَا، فَأَيُّ رَجُلٍ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» يَرْضَى أَنْ يَبِيعَ الْقُرْآنَ بِالدُّنْيَا كُلِّهَا. .؟! هَؤُلَاءِ يَبِيعُونَهُ بِثَمَنٍ قَلِيلٍ،

فَأَيْنَ زَعْمُ حُبِّهِمُ الْقُرْآنَ، وَدِفَاعِهِمْ عَنِ الْقُرْآنِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ دَعَاوَىٰ. . ؟!

إِنَّ مِنْ أَنْوَاعِ الشِّرَاءِ بِآيَاتِ اللَّهِ: كِتْمَانَ آيَاتِ اللَّه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

❊ ❊ ❊

الْعَجَبُ عِنْدَ قَبْضِ الرُّوحِ!

هَلِ الْعَجَبُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

فَهَلِ الْعَجَبُ مِنْ بَسْطِ الْمَلَائِكَةِ أَيْدِيَهِمْ لِلْكَافِرِينَ بِالْعَذَابِ، لَحْظَةَ الْغَمَرَاتِ، فِي وَقْتٍ يَرْجُونَ فِيهِ أَنْ تُبْسَطَ لَهُمْ أَيْدٍ بِالإِنْقَاذِ فِي تِلْكَ الْغَمَرَاتِ..، أَمِ الْعَجَبُ مِنْ طَلَبِ الْمَلَائِكَةِ مِنْهُمْ إِخْرَاجَ أَنْفُسِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ﴾؟!

أَلَا مَا أَشَدَّ السَّكَرَاتِ! وَمَا أَطْوَلَ غَمَرَاتِهَا وَإِنْ ظَهَرَتْ أَنَّهَا قَصِيرَةٌ!

أَلَا مَا أَعْظَمَ مُعَانَاةَ مَنْ يُعَانِيهَا! وَمَا أَعْظَمَ غَفْلَةَ مَنْ حَوْلَهُ؟!

فَيَا لَلْعَجَبِ! كَيْفَ أَفْرَدَ اللَّهُ الْمَوْتَ وَجَمَعَ الْغَمَرَاتِ،

فَقَالَ: ﴿غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾[١]!

فَكَمْ مَرَّةٍ يَغْمُرُ هَذَا الْمُعَذَّبَ الْعَذَابُ؟

وَبِأَيِّ شَيءٍ يُغْمَرُ؟

وَكَمْ تَطُولُ غَمْرَتُهُ؟ وَكَيْفَ يَعُودُ مِنْهَا؟

وَكَيْفَ تَتَلَقَّاهُ الْغَمْرَةُ الَّتِي بَعْدَهَا، ثُمَّ الَّتِي تَلِيهَا، وَهَكَذَا، وَعِنْدَ أَيِّ حَدٍّ تُقْبَضُ رُوحُهُ..؟! إِنَّها لَا تُقَاسُ بِأَشَدِّ الْغَمَرَاتِ الَّتِي يَعْرِفُهَا الْبَشَرُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ غَمَرَاتُ الْحَيَاةِ، وَتِلْكَ غَمَرَاتُ الْمَوْتِ.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: اجْتِنَابُ أَسْبَابِ الْعَذَابِ:

مَا مِنْ مَوْقِفِ تَرْهِيبٍ يَذْكُرُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي أَحْوَالِ الْهَالِكِينَ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا لِيُنْجِيَ سُبْحَانَهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَا يَقَعُوا فِيهِ مِثْلَمَا وَقَعَ الْهَالِكُونَ.

هَذِهِ الصُّورَةُ مِنْ صُوَرِ قَبْضِ الرُّوحِ، يُنْزِلُها اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ؛ لِتَبْقَى إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ يَقْرَؤُهَا الْمُؤْمِنُونَ

(١) غمرات الموت: أي سكراته وكرباته (ابن كثير ٢/ ٢١٢).

فَيَحْذَرُوا مِمَّا وَقَعَ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ، وَذَلِكَ بِاجْتِنَابِ أَسْبَابِ ذَلِكَ الْعَذَابِ..، وَهُنَا يُبَيِّنُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ سَبَبَ هَذِهِ الْغَمَرَاتِ الَّتِي لَا يَتَصَوَّرُهَا أَحَدٌ مِنَ الْأَحْيَاءِ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

* * *

فَيَحْذَرُوا مِمَّا وَقَعَ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ، وَذَلِكَ بِاجْتِنَابِ أَسْبَابِ ذَلِكَ الْعَذَابِ. . ، وَهُنَا يُبَيِّنُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ سَبَبَ هَذِهِ الْغَمَرَاتِ الَّتِي لَا يَتَصَوَّرُهَا أَحَدٌ مِنَ الْأَحْيَاءِ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

* * *

رَجاءُ الْغَلَبَةِ بِأَمْرَيْنِ سَلْبِيَّيْنِ!

هَلِ الْعَجَبُ مِمَّا أَخْبَرَنَا اللَّهُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾، أَمِ الْعَجَبُ مِنْ رَجَائِهِمُ الْغَلَبَةَ بِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ كما قال سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ وَهُمَا أَمْرَانِ سَلْبِيَّانِ، أَيَكُونُ عَدَمُ السَّمَاعِ سَبَباً لِلْغَلَبَةِ.. أَمْ يَكُونُ اللَّغْوُ فِي الْحُجَجِ سَبَباً لِهَزِيمَةِ الْفِكْرِ، وَهَلْ يَصْنَعُ الْعَدَمُ غَلَبَةً أَوْ نَصْراً؟!

وَهَلِ الْعَجَبُ مِنْ شَهَادَةِ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ هَؤُلَاءِ لِلْقُرَآنِ بِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ مُوَاجَهَتُهُ أَبَداً، فَهُمْ لَمْ يَقُولُوا لِأَصْحَابِهِمْ: اسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ، وَرُدُّوا عَلَيْهِ، فَلَوْ كَانَ يُوجَدُ رَدٌّ عَلَيْهِ لَرَدُّوا عَلَيْهِ هُمْ، لَكِنَّهُمْ يَشْهَدُونَ بِأَنَّهُ لَا رَدَّ عَلى حُجَجِ الْقُرْآنِ.

أَمِ الْعَجَبُ مِنْ شَهَادَتِهِمْ لِأَصْحَابِهِمْ بِسَلَامَةِ الذَّوْقِ، وَالْقُدْرَةِ عَلَى الِاخْتِيَارِ، أَمْ الْعَجَبُ مِنْ أَنَّ شَهَادَتَهُمْ بِأَنَّ رُكَامَ الْكُفْرِ الَّذِي بَنَوهُ غُثَاءٌ، وَرَصِيدَهُمْ إِفَلَاسٌ، وَرُوحَ الْكُفْرِ زَاهِقَةٌ إِذَا جَاءَ الْقُرْآنُ؟

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: اسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ:

بِمَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَتَوَاصَوْنَ، فَيَقُولُونَ: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، فَوَصِيَّةُ اللَّه سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وَظَاهِرٌ مِنْ طَرِيقَةِ تِلْكَ الْوَصِيَّةِ الشِّرْكِيَّةِ أَنَّهَا وَصِيَّةٌ قِيَادِيَّةٌ، فَهِيَ لَيْسَتْ إِلَّا تَوْجِيهاً عَامّاً، وَتَوَجُّهاً مَنْهَجِيّاً لِلْمُشْرِكِينَ.. فَالْقَائِلُ آمِرٌ مُوجِّهٌ، وَصَاحِبُ كَلِمَةٍ وَمَنْهَجٍ؛ وَلِذَا جَاءَتْ بِصِيغَةِ الْأَمْرِ لِلْجُمُوعِ الْمُشْرِكَةِ: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟﴾.

❊ ❊ ❊

عَجْزُ جَمِيع العُقُولِ

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ أَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَى أَدْنَى الْعُقُولِ الْحَجَرِيَّةِ الْأُولَى - عَابِدَةِ الْحَجرِ - أَبْلَغَ إِقَامَةٍ حَتَّى أَشْهَدَهَا بِنَفْسِهَا عَلَى نَفْسِهَا . . . ، **أَمِ الْعَجَبُ** أَنْ أَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَى أَرْقَى العُقُولِ الْحَدِيثَةِ فِي شِرْكِهَا بِنَفْسِ الْحُجَج الأُولَى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾، فَلَا العُقُولُ الأُولَى أَعْجَزَتِ الْقُرْآنَ تَفْهِيمُهَا، وَلَا العُقُولُ الْحَدِيثَةُ أَعْجَزَتِ الْقُرْآنَ تَعْجِيزُهَا . . ، فَكَانَ الْقَاسِمُ الْمُشْتَرَكُ لِلاِثْنَيْنِ أَمَامَ الْقُرْآنِ هُوَ الْعَجْزُ . . ؟!

كُلُّ الحُجَج البَشَرِيَّةِ يُسْقِطُهَا النَّاسُ فَتْرَةً بَعْدَ فَتْرَةٍ إِلَّا الوَحْيَ، فَإِنَّ الأَيَّامَ لَا تَزِيدُ حُجَجَهُ إِلَّا بَلاغَةً . . . ، أَلَّا تَرى كَيْفَ تَتَّكَشَّفُ الغُيوبُ وَالعُلُومُ عَلَى آيَاتٍ عِلْمِيَّةٍ جَدِيدَةٍ فِي آيَاتِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وكَأَنَّ الأَنْبِيَاءَ بُعِثُوا بِهَا مِنْ جَدِيدٍ، وَلَيْسَ هَذَا إِلَّا من لُطْفِ اللَّهِ بِأُمَّةِ مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ ﷺ، فَمَا الحَاجَةُ لِشَخْصِ نَبِيٍّ إِذَا وُجِدَ القُرْآنَ وَهُوَ

يَفِيضُ لِكُلِ الأَجْيَالِ بِالمُعْجِزَاتِ؟ وَمَا الحَاجَةُ لِنَبيٍّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلامُ وَسُنَّتَهُ تَفِيضُ بِالمُعْجِزَاتِ؟

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: خِدْمَةُ الْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ

لَوْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ لَقُلْنَا: آمَنَّا وَصَدَّقْنَا، لَكِنَّهُ - سُبْحَانَهُ - قَالَ ذَلِكَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا أَبْلَغَ الْحُجَجِ الْبَالِغَةِ وَأَبْهَرَهَا وَأَظْهَرَهَا، وَهُوَ هَذَا الْقُرْآنُ..

فَكَمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ حُجَّةٍ بَالِغَةٍ إِذَا قَصَّرُوا فِي إِبْلَاغِ الْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ؟!

لَمْ يَطْلُبِ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ صِنَاعَةَ حُجَّةٍ بَالِغَةٍ حَتَّى يَتَكَلَّفُوا أَمْراً شَاقّاً، لَكِنَّهُ - سُبْحَانَهُ - يَسَّرَ لَهُمْ، وَأَعْطَاهُمُ الْحُجَّةَ الْبَالِغَةَ..

خُوطِبَ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْأَوَّلُونَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَإِلَى يَوْم الْقِيَامَةِ.. إِذاً، فَهِيَ بَالِغَةٌ عَلَى كُلِّ الْعُصُورِ، وَلِكُلِّ الْعُقُولِ وَالْأَجْيالِ..

بِمَا أَنَّ الْحُجَّةَ الْبَالِغَةَ قَدْ بَلَغَتْكُمُ فَإِنَّ عَلَيْكُمْ أَيُّها النَّاسُ أَنْ تُبَلِّغُوها، أَوْ تُمَهِّدُوا الطَّرِيقَ لَهَا لِتَصِلَ، وَهَذَا التَّمْهِيدُ رُبَّمَا

يَكُونُ بِمُقَدِّمَاتٍ، وَرُبَّمَا يَكُونُ بِالْكِتَابَةِ، وَرُبَّمَا يَكُونُ بِشَوَاهِدِ الْعِلْمِ وَالْوَاقِعِ، وَرُبَّمَا، وَرُبَّمَا، وَهَذَا هُوَ أَسْهَلُ مَا فِي الْأَمْرِ.

رِسَالةٌ تَقُولُ: أَيُّ مَغْبُونٍ هَذَا الَّذِي يُؤَجِّلُ خُصُومَةً لَهُ مَعَ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ انْتِظَارَ أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ؟

أَيُّ مَغْبُونٍ هَذَا الَّذِي يَعْصِي اللَّهَ وَيُرِيدُ أَنْ يُحَاجَّ اللَّهَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟

أَيُّ مَغْبُونٍ ذَاكَ الْمُتَّبِعُ هَوَاهُ بِالبَاطِلِ، الْمُسَوِّغُ لِنَفْسِهِ البَاطِلَ، الْمُغْتَرُّ بِغَلَبَةِ حُجَّتِهِ. . . ، وَاللَّه سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

* * *

وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ الْكَرِيمُ

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَجْهَ نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، أَمِ الْعَجَبُ مِنْ ذِكْرِ اللَّه رُؤْيَتَهُ وَجْهَ نَبِيِّهِ ﷺ فِي السَّمَاءِ، إِذْ نَبِيُّهُ ﷺ فِي الْأَرْضِ تَشْرِيفاً لَهُ؟! فَأَرْفَعُ مَا فِي جَسَدِهِ ﷺ فِي أَرْفَعِ مَكَانٍ - فِي السَّمَاءِ -، ثُمَّ إِنَّ إِثْبَاتَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ لَهُ مِنَ التَّشْرِيفِ مَا لَا يَبْلُغُ أَحَدٌ وَصْفَ مِقْدَارِهِ، فَضْلاً عَنْ بُلُوغِهِ، فَهَلَ تَرَى اللَّهَ تَعَالَى سَجَّلَ رُؤْيَةَ وَجْهِ أَحَدٍ فِي السَّمَاءِ غَيْرَ وَجْهِ رَسُولِ اللَّه ﷺ؟ فَاللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: السَّعْيُ الْفَرِيدُ:

مَعَ أَنَّ تَقَلُّبَ الْوَجْهِ فُسِّرَ بِأَمْرَيْنِ: فَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى حَقِيقَةِ الْوَجْهِ، وَأَنَّهُ ﷺ كَانَ بَعْدَ كُلِّ صَلَاةٍ يَنْظُرُ فِي السَّمَاءِ،

كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[١]، وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى إِرَادَةِ الْقَلْبِ وَرَغْبَتِهِ، وَعَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ[٢]، إِلَّا أَنَّ فِعْلَ التَّقَلُّبِ يُعْطِي الشَّرَفَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ. . ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ حِينَ يُخْبِرُنَا بِأَنَّ تَحْوِيلَ القِبْلَةِ إِنَّمَا جَاءَ بَعْدَمَا تَقَلَّبَ وَجْهُهُ ﷺ، فَإِنَّمَا يَرْبِطُ هَذَا الشَّرَفَ بِرَسُولِ اللَّه ﷺ ، وَأَنَّ كُلَّ مَنِ اتَّجَهَ إِلَى القِبْلَةِ فِي أَيِّ وَقْتٍ وَفِي أَيِّ مَكَانٍ إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ تَقَلُّبِ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَحْوِيلُهَا جَاءَ بِنَاءً عَلَى مَسْعَاهُ ﷺ.

رِسَالَةٌ تَقُولُ: لَوْ نُسِبَ تَقَلُّبُ الْوَجْهِ بَيْنَ النَّاسِ لَكَانَ فِي ذَلِكَ مَا كَانَ مِنَ احْتِمَالِ الذَّمِّ وَالمَدِيحِ، وَهَلْ يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ ذَمُّ ذَوِي الْوَجْهَيْنِ، وَلَوْ نُسِبَ التَّقَلُّبُ إِلَى الْأَرْضِ لَكَانَ السُّوءُ إِلَيْهِ أَرْجَحَ، لَكِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - أَثْبَتَ تَقَلُّبَ وَجْهِ حَبِيبِهِ ﷺ، وَنَسَبَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَجَعَلَهُ تَقَلُّباً فِي السَّمَاءِ، وَهَلْ فِي السَّمَاءِ إِلَّا الْخَيْرُ؟ فَلْيَهْنَأْ ذَلِكَ الْوَجْهُ الْكَرِيمُ فِي تَقَلُّبِهِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الْكَرِيمِ. . ، وَكَأَنَّهُ وَاحِدٌ

(١) انظر «السنن الكبرى» للبيهقي، باب استبيان الخطأ بعد الاجتهاد (ح٢٣٣٨).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» وغيره على قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

مِنْ سُكَّانِ السَّمَاءِ ﷺ.

رِسَالَةٌ تَقُولُ: التَّقَلُّبُ فِعْلٌ وَحَرَكَةٌ وَسَعْيٌ، فَكَانَ ذِكْرُ الْوَعْدِ بِالتَّحْوِيلِ ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ بَعْدَ ذِكْرِ ﴿تَقَلُّبَ﴾ وَجْهِهِ بِفِعْلِ الْمُضَارِعِ، وَلَمْ يَكُنْ تَحْوِيلُ القِبْلَةِ نَتِيجَةَ قُعُودٍ، كَمَا لَمْ يَكُنْ بِغَيْرِ سَبَبٍ..

وَجَاءَ «التَّقَلُّبُ» لِهَذَا الْمَوْضُوعِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَهُوَ السَّمَاءُ.. وَإِلَّا فَأَيُّ عَمَلٍ بَشَرِيٍّ يُمْكِنُ أَنْ يُثْمِرَ تَحْوِيلَ القِبْلَةِ أَوْ يَطَالَ السَّمَاءَ..؟!

فَهَلْ مِنْ وَسِيلَةٍ يُمْكِنُ أَنْ تُفْلِحَ بِالتَّغْيِيرِ إِلَّا هَذِهِ، وَهَذَا دَرْسٌ بَلِيغٌ إِلَى إِمْكَانِ الْغَرْسِ حَتَّى فِي السَّمَاءِ، وَإِمْكَانِ التَّغْيِيرِ حَتَّى فِي الْعَوَالِمِ الأُخْرَى..

فَأَيْنَ أَصْحَابُ الهِمَمِ لِيَتَلَقَّوْا هَذَا الدَّرْسَ الْعَظِيمَ..؟

وَأَيْنَ مَنْ أَعْجَزَهُمُ التَّغْيِيرُ فِي الْأَرْضِ، بَلْ أَعْجَزَهُمْ فِي أُسَرِهِمْ لِيَعُودُوا إِلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيءٌ، فَيُقَلِّبُوا وُجُوهَهُمْ فِي السَّمَاءِ مُتَضَرِّعِينَ، عَلَّ اللَّهَ يَنْظُرُ لَها فَيَمُنَّ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

❊ ❊ ❊

عَجَبُ النَّفْخَةِ!

هَلِ الْعَجَبُ فِي أَنْ جَعَلَ اللَّهُ نِهَايَةَ هَذَا الْعَالَمِ الْكَبِيرِ الْمَتِينِ الْمُحْكَمِ الَّذِي بَنَاهُ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ بِنَفْخَةٍ وَاحِدَةٍ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣]، أَمِ الْعَجَبُ فِيمَا تُشِيرُ إِلَيْهِ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ وَهِيَ النَّفْخَةُ إِلَى هَوَانِ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى اللَّه، وَضَعْفِهِ أَمَامَ قُدْرَةِ اللَّه حَتَّى إِنَّهُ لَا يَثْبُتُ أَمَامَ نَفْخَةٍ، أَمِ الْعَجَبُ فِي أَنْ جَعَلَ اللَّهُ قِيَامَ النَّاسِ لِرَبِّ الْعَالِمينَ بِنَفْخَةٍ عَامَّةٍ وَاحِدَةٍ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]؟!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: الْإِفَاقَةُ خَوْفَ النَّفْخَةِ:

فَلْيَأْخُذْ كُلُّ وَاحِدٍ مَا يَشَاءُ مِنَ الرِّسَالَةِ، فَإِنَّ مَنْ أَحَسَّ بِخَطَرٍ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى رَدِّهِ خَافَهُ، وَخَفَّفَ مِنْ وَقْعِهِ عَلَيْهِ، وَأَعَدَّ الْمَطْلُوبَ لَهُ، وَلَا يَزَالُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ يُنْذِرُنَا السَّاعَةَ، وَيُكَرِّرُهَا كَثِيراً، ثُمَّ يُبَيِّنُ لَنَا أَنَّ نِهَايَةَ الْعَالَمِ بِنَفْخَةٍ، وَأَنَّ بِدَايَةَ قِيَامِ السَّاعَةِ بِنَفْخَةٍ، وَأَنَّ النَّقْلَةَ إِلَى أَرْضِ الْحِسَابِ

بِنَفْخَةٍ، وَيُسَمِّي سُبْحَانَهُ هَذِهِ النَّفْخَةَ بِأَسْمَاءٍ، كُلُّ اسْمٍ يُظْهِرُ مِنْ خَطَرِهَا وَوَصْفِهَا وَمَفْعُولِهَا غَيْرَ مَا يُظْهِرُهُ الاسْمُ الآخَرُ؛ فَمَرَّةً يُسَمِّيهَا النَّفْخَةَ، وَمَرَّةً يُسَمِّيهَا الصَّيْحَةَ، وَمَرَّةً الصَّعْقَةَ، وَمَرَّةً الزَّجْرَةَ، وَمَرَّةً يَذْكُرُ فِعْلَهَا نَفْسَهُ، فَيَقُولُ: ﴿نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، وَمَرَّةً يَقُولُ: ﴿نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾..

أَفَلَا تَكُونُ رِسَالَةُ هَذِهِ النَّفْخَةِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ هُوَ الْحَذَرُ أَشَدَّ مَا يَكُونُ الْحَذَرُ مِنْ لَحْظَتِهَا؟

أَفَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ وَقْعُ ذِكْرِهَا عَلَى الْقَلْبِ الْإِفَاقَةَ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالْمُسَارَعَةِ بِالتَّوْبَةِ، وَالفِرَارَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ؟

أَفَلَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ رِسَالَةُ هَذِهِ الْوَمْضَةِ بَلْ هَذِهِ النَّفْخَةِ هِيَ أَنْ نُحَاوِلَ تَصَوُّرَهَا..، نَتَصَوَّرُ ابْتِدَاءَهَا وَانْتِهَاءَهَا، نَتَصَوَّرُ قُوَّتَهَا وَعُلُوَّهَا، طُولَهَا وَامْتِدَادَهَا، وَنَتَصَوَّرُ أَحْوَالَ النَّاسِ عِنْدَ سَمَاعِهَا، وَنَتَصَوَّرُ هَدْمَهَا الوُجُودَ وَنِظَامَهُ، كَيْفَ وَكُلُّ فِقْرَةٍ مِنْ هَذِهِ الْفِقْرَاتِ وَرَدَتْ بِهَا نُصُوصٌ وَاضِحَةٌ..

مَعَ أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ شَهِدَ لَحْظَةَ وِلَادَةِ الْكَوْنِ مِنَ النَّاسِ: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]، لَكِنَّ لَحْظَةَ نِهَايَةِ الْكَوْنِ

مَوْصُوفَةً بِدِقَّةٍ، وَسَيَشْهَدُهَا بَعْضُ الْخَلْقِ، فَاللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنَا مِمَّنْ يَشْهَدُهَا؛ فَإِنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ..

لَكِنْ، أَيْنَ الْمَفَرُّ مِنْ أَثَرِهَا عَلَى الْجَمِيعِ؟

وَأَيْنَ الْمَفَرُّ مِنْ نَفْخَةِ القِيَامِ لِرَبِّ الْعَالِمِينَ..؟!

كَمَا يَنْتَظِرُ الْعَبْدُ خَاتِمَتَهُ وَيَخَافُ مِنْهَا، وَيَنْتَظِرُ النَّفَسَ الْأَخِيرَ لَهُ فِي هَذَا الْوُجُودِ، هَا هِيَ النَّفْخَةُ كَأَنَّهَا النَّفَسُ الْأَخِيرُ لحَيَاةِ هَذَا الْكَوْنِ الْعَظِيمِ كُلِّهِ، فَمَا أَنْ تَنْتَهِيَ حَتَّى لَا يَبْقَى شَيءٌ.

فَأَيُّ أَثَرٍ لِخُرُوجِ الرُّوحِ عَلَى صَاحِبِهِ..؟!

كَذَلِكَ يَكُونُ أَثَرُ هَذِهِ النَّفْخَةِ عَلَى الوُجُودِ كُلِّهِ، وَخُرُوجِ الرُّوحِ الَّذِي هُوَ نَفْخَةُ مَلَكٍ فَيَهْلَكُ بَعْدَهَا الإِنْسَانُ.. كَهَلَاكِ الكَوْنِ بِالنَّفْخَةِ، وَهُمَا عِنْدَ اللَّهِ سَواء آيَةً أُخْرَى؟

كَفَى الْعِبَادَ إِعْدَاداً لَها، وَخَوْفاً مِنْهَا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُكَرِّرُ الْإِنْذَارَ بِهَا مِرَاراً..، وَيَصِفُهَا وَيَصِفُ مَا تَصْنَعُ بِالْوُجُودِ كُلِّهِ..، ويَذْكُرُ آثَارَهَا الْمُدَمِّرَةَ! وَأَمَّا مَا بَعْدَهَا فَالسَّاعَةُ، وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ..!

فَأَيُّ رِسَالَةٍ لِهَذِهِ الْوَمْضَةِ أَبْلَغُ مِنَ النَّفْخَةِ ذَاتِهَا؟

الْإِنْبَاتُ كَالْإِنْبَاتِ

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ إِذَا أَهْلَكَ الْعِبَادَ جَمِيعاً أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً عَلَيْهِمْ حَتَّى يَسْتَمِرَّ أَرْبَعِينَ.. فَيَنْبُتُونَ فِي الْأَرْضِ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَقُومُونَ للَّه رَبِّ الْعَالمِينَ..، أَم الْعَجَبُ مِنْ أَنَّ الْعِبَادَ يَنْسَوْنَ أَنَّهَا ذَاتُ الطَّرِيقَةِ الَّتِي خُلِقُوا بِهَا، فَرَحِمُ الأُمِّ يُسْقَى بِمَاءِ الرَّجُلِ، وَيَنْبُتُ الْوَلَدُ فِي رَحِم أُمِّهِ حَتَّى إِذَا أَتَمَّ أَرْبَعِينَ نَفَخَ الْمَلَكُ فِيهِ الرُّوحَ[1]..، فَمَا أَشْبَهَ الطَّرِيقَةَ بِالطَّرِيقَةِ، وَالمَرَاحِلَ بِالْمَرَاحِلِ، بَلْ وَالْأَسْمَاءَ بِالْأَسْمَاءِ! الْمَاءُ كَالْمَاءِ، وَالإِنْبَاتُ كَالإِنْبَاتِ، النَّفْخَةُ كَالنَّفْخَةِ، وَالْوِلَادَةُ كَالْوِلَادَةِ، وَلَكِنَّ الرَّحِمَ هُنَا رَحِمُ الأُمِّ، وَالرَّحِمُ هُنَاكَ هُوَ رَحِمُ الأُمِّ الكُبْرَى وَهِيَ الْأَرْضُ، وَهَؤُلَاءِ يَحْيَوْنَ بِنَفْخَةِ مَلَكٍ، وَأُولَئِكَ بِنَفْخَةِ الْمَلَكِ، وَصَدَقَ اللَّهُ إِذْ قَالَ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٧].

---

(١) متفق عليه: البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: لَا تَعْجَزْ:

عَجِبْتُ مِنَ الْعَاجِزِ كَيْفَ يُسَوِّغُ لِنَفْسِهِ عَدَمَ قُدْرَتِهِ عَنْ أَدَاءِ دَوْرِهِ أَوْ عَمَلِ أَيِّ شَيْءٍ لِأُمَّتِهِ وَهُوَ يَقْرَأُ فِي الْقُرْآنِ مَاذَا تَصْنَعُ النَّفْخَةُ؟!

فَالنَّفْخَةُ كَانَتْ مَطْلُوبَ الْقَائِدِ الْعَظِيمِ - ذِي الْقَرْنَيْنِ - لِيُقِيمَ أَعْظَمَ سَدٍّ يَدْفَعُ بِهِ أَعْظَمَ خَطَرٍ يَظْهَرُ عَلَى الْأَرْضِ إِلَى قُبَيْلِ قِيَامِ السَّاعَةِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦].

النَّفْخَةُ هِيَ مَا اسْتَطَاعَتْ صُنْعَهُ الْحَيَوَانَاتُ فِي نُصْرَتِهَا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالنَّفْخَةُ هِيَ صُورَةُ الْعُدْوَانِ لِلْوَزَغِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالَّذِي بِهِ لُعِنَ الْوَزَغُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. النَّفْخَةُ فَوْقَ السُّكُوتِ...، وَدَلِيلُ غَلَيَانِ الْغَيْرَةِ...، وَإِشَارَةُ الابْتِدَاءِ...، وَهَلْ انْفِجَارُ الْبُرْكَانِ إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا بِنَفْخَةٍ من باطن الأرض..؟ فَمَا لِمَنْ يَرَى هَوَانَ أُمَّتِهِ وَتَنَازُعَ قَصْعَتِهَا بَيْنَ الْأُمَمِ يَعْجَز عَنِ النَّفْخَةِ؟ وَهَلْ مِنْ بُرْكَانٍ يَنْفَجِرُ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ مِثْلُ تَوَحُّدِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى النَّفْخَةِ الصَّادِقَةِ الحَاذِقَةِ؟

الصِّرَاعُ عَلَى إِمَامَةِ النَّارِ

كَمْ مِنْ عَجَبٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤٠ - ٤١].

فَهَلِ الْعَجَبُ مِنْ أَلْفَاظِ الْإِمَامَةِ وَالْهِدَايَةِ مَعْ أَنَّهَا إِلَى النَّارِ وَفِي النَّارِ، أَمِ الْعَجَبُ مِنْ تَقَاتُلِ النَّاسِ عَلَى هَذِهِ الْإِمَامَةِ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ إِنَّمَا يَتَقَاتَلُونَ عَلَى الْإِمَامَةِ إِلَى النَّارِ؟ فَأَيْنَ مَنْ يُفِيقُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ؟ أَيَفْرَحُ هَؤُلَاءِ الأَئِمَّةُ بِطُولِ العُمُرِ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ إِنَّمَا يُعَدُّونَ إِعْدَاداً للإِمَامَةِ فِي الغَدَاةِ؟!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: لَا تُنَاصِرِ الْبَاطِلَ:

لَا يَذْكُرُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَصِيرَ فِرْعَوْنَ وَحْدَهُ، وَإِنَّمَا يَذْكُرُ جُنُودَهُ مَعَهُ فِي نَفْسِ الْأَخْذَةِ وَالنَّبْذَةِ وَالْمَصِيرِ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾، فَالرِّسَالَةُ هِيَ أَلَّا يَكُونَ الْمَرْءُ جُنْدِيّاً فِي الْبَاطِلِ، وَلَا يُعْذَرَنَّ أَحَدٌ بِجُنْدِيَّتِهِ

لِلْبَاطِلِ، فَلَوْلَا هَؤُلَاءِ الْجُنْدُ مَا تَفَرْعَنَ فِرْعَوْنُ، وَلَا أَصْبَحَ لِقَارُونَ قَرْنٌ، وَلَا رُفِعَتْ لِهَامَانَ هَامَةٌ. . . وَكُلُّ جُنُودِهِمْ كَانُوا ظَالِمِينَ، فَكُلُّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ، وَلَيْسَ فِرْعَوْنُ وَحْدَهُ، فَقَدْ قَالَ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠].

ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

رِسَالَةٌ تَقُولُ: لَا يُشْتَرَطُ لِلإِمَامَةِ أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ كَفِرْعَوْنَ، وَإِنَّما إِمَامَةُ الْبَاطِلِ أَنْوَاعٌ وَأَصْنَافٌ، فَلْيَحْذَرِ الْمُسْلِمُ أَنْ يَكُونَ رَأْساً فِي الْبَاطِلِ، أَوْ قَائِداً فِي مُعَادَاةِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، أَوْ يَكُونَ مِفْتَاحاً لِلشَّرِّ، مِغْلَاقاً لِلْخَيْرِ.

عَادَةُ الْجُنْدِ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ مُكْرَهُونَ. . لَا يَمْلِكُونَ إِلَّا الطَّاعَةَ وَالِاسْتِسْلَامَ، لَكِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمْ يَشْفَعْ لَهُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - أَشْرَكَهُمْ مَعَ فِرْعَونَ فِي صِفَاتِهِ، فَكَانَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْهَا. . .، فَحَكَمَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ ظَالِمِينَ، وَحَكَمَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ أَئِمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ. . ! فَكَيْفَ يَكُونُ الْجُنْدِيُّ ظَالِماً وَرُبَّمَا لَمْ يَظْلِمْ فِرْعَوْنُ بِهِ إِنَّمَا ظَلَمَ بِغَيْرِهِ مِنَ الْجُنْدِ؟ وَكَيْفَ يَكُونَ إِمَاماً إِلَى النَّارِ وَرُبَّمَا لَمْ يَتَكَلَّمْ

كَلِمَةً يَدْعُو بِهَا كَمَا هِيَ عَادَةُ الْجُنْدِ فِي السُّكُوتِ وَالاسْتِخْدَامِ وَقِلَّةِ الكَلَامِ؟! كُلُّ ذَلِكَ لَيْسَ مُهِمّاً إِنَّمَا وَصْفُ الْجُنْدِ يَحْمِلُ الْعِلَّةَ الْحَقِيقِيَّةِ. . . ، فَهُوَ الْمُجَنَّدُ لِهَذَا الأَمْرِ. . . ، الْمُجَنَّدُ لِفِرْعَوْنَ الَّذِي يَقُولُ وَيَخْطُبُ. . . ، يَقْتُلُ وَيَحْبِسُ وَيُشَرِّدُ. . . ، الْمُجَنَّدُ الَّذِي بِهِ يَفْعَلُ فِرْعَونُ مَا يَفْعَلُ، وَعَلَيْهِ يَسْتَنِدُ، وَإِلَيْهِ يَأْوِي وَيَرْكَنُ. . . ، وَبِكَثْرَتِهِمْ، وَمَظْهَرِهِمْ، وَقُوَّتِهِمْ يَغْتَرُّ وَيُخِيفُ وَيُهَدِّدُ.

❊ ❊ ❊

لمْ تَسْأَلِ الرِّزْقَ وَرُزِقَتْ عَجباً!

كَمْ مِنْ عَجَبٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [مريم: ٣٧].

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ رِزْقِ اللَّه تَعَالَى مَرْيَمَ وَهِيَ لَمْ تَسْأَلِ الرِّزْقَ حِينَ تَفَرَّغَتْ لِلْعِبَادَةِ، أَمِ الْعَجَبُ مِنْ طَلَبِ زَكَرِيَّا الْوَلَدَ لَمَّا رَأَى رِزْقَ مَرْيَمَ مِنَ الطَّعَامِ أَوِ الْفَاكِهَةِ، وَهُوَ الرَّجُلُ الْكَاسِبُ الْعَابِدُ..؟!

أَمِ الْعَجَبُ مِنْ إِعْطَاءِ مَرْيَمَ - بَعْدَ ذَلِكَ - رِزْقاً أَعْظَمَ وَهُوَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهِيَ لَمْ تَسْأَلْ هَذَا الرِّزْقَ، بَلْ هِيَ لَهُ كَارِهَةٌ، أَمِ الْعَجَبُ مِنْ كَوْنِ أَعْظَمِ مَا دَعَا لَهُ عِيسَى بَعْدَ التَّوْحِيدِ هُوَ تَرْكُ التَّقَاتُلِ عَلَى الْأَرْزَاقِ، وَالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَعِمَارَةِ الْآخِرَةِ..؟!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: أَثَرُ الْمِحْرَابِ:

لَفَتَ انْتِبَاهِي (الْمِحْرَابُ) فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ، أَوْ كَأَنِّي أُرِيدُ

الْقَوْلَ: إِنَّ الْوَمْضَةَ كَانَتْ مِنَ المِحْرَابِ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ..

انْظُرْ لِزَكَرِيَّا وَهُوَ الَّذِي كَفَلَهَا يَسْأَلُها: أَنَّى لَكِ هَذا؟

فَتُجِيبُ جَوَاباً عَجِيباً: قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّه؟

مَنْ عَلَّمَها ذَلِكَ؟ وَزَكَرِيَّا هُوَ الَّذِي كَفَلَهَا، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُوَ عَلَّمَهَا ذَلِكَ فَمَنْ يَكُونُ قَدْ عَلَّمَهَا..؟! وَالجَوَابُ: - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - إِنَّهَا تَرْبِيَةُ المِحْرَابِ وَكَفَى: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ**﴾.

فَهِيَ لَيْسَتْ بِالأَكُولَةِ الشَّرُوبَةِ النَّهِمَةِ، إِنَّمَا هِيَ الْعَابِدَةُ فِي المِحْرَابِ، الْمُتَفَرِّغَةُ لِخِدْمَةِ هَذَا الْمَسْجِدِ، فَكَانَ المِحْرَابُ هُوَ سَبَبَ الرِّزْقِ، وَالمِحْرَابُ هُوَ مُلْهِمُ هَذَا الْجَوَابِ - بَعْدَ اللَّه سُبْحَانَهُ - ، فَمَا يَنْطَبِعُ فِي النَّفْسِ مِنْ طُولِ الْبَقَاءِ فِي الْمَسْجِدِ أَعْظَمُ مِنَ الدُّرُوسِ وَغَيْرِهَا..

رِسَالَةٌ تَقُولُ: لَيْسَ لِقُدْرَةِ اللَّه حَدٌّ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ عَلَى قُدْرَتِهِ بِالضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ، فَإِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، وَلَا يُعْجِزُهُ شَيءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، فَهُنَا يَتَوَهَّمُ الْكَثِيرُونَ أَنَّ هَذِهِ مُعْجِزَةٌ، وَلَا يَجُوزُ طَلَبُ الْمُعْجِزَةِ

احْتِرَاماً لِلأَنْبِيَاءِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ مُعْجِزَةً خَاصَّةً بِالأَنْبِيَاءِ، وَمَا يَذْكُرُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ إِلَّا لِغَايَاتٍ عُظْمَى، مِنْهَا: ادْعُونِي حَتَّى فِي الرِّزْقِ فِي العُقْمِ، فَهُوَ - سُبْحَانَهُ - عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، وَمَا يُسَجِّلُهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ لِلتَّفَرُّجِ عَلَيْهَا أَوْ التَّعَجُّبِ مِنْهَا، وَتَنْتَهِي الذِّكْرَى عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ!

❊ ❊ ❊

عَجَبُ الدَّابَّةِ

عَجِبْتُ مِنْ إِخْرَاجِ اللَّهِ لِلنَّاسِ قُبَيْلَ السَّاعَةِ دَابَّةً: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

كَمْ لِلَّه فِيهَا مِنْ حِكْمَةٍ: فَهَؤُلَاءِ الْبَشَرُ الَّذِينَ بَعْدَ إِرْسَالِ كُلِّ هَذِهِ الْكَوْكَبَةِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَآخِرِهِمْ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ، مَا عَادُوا يَسْتَحِقُّونَ شَرَفَ إِرْسَالِ رَسُولٍ مِنْهُمْ إِنَّمَا دَابَّةٌ.

وَإِرْسَالُ الدَّابَّةِ لِأَنَّ الْأَكْثَرِيَّة الْمُطَبَقَةِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - قَدْ أَصْبَحُوا كَالدَّوَابِّ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ فَاللَّهُ يُرْسِلُ لِكُلِّ قَـوْم رَسُولًا مِنْهُمْ، وَإِرْسَالُ الدَّابَّةِ لِأَنَّـها لَيْسَتْ لِإِبْلَاغِ رِسَالَةٍ، وَإِلَّا لَكَانَ ذَلِك قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ، إِنَّمَا هُوَ لِإِبْلَاغِ خَبَرٍ مُعَيَّنٍ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ لِمَعْرِفَةِ رِدَّةِ فِعْلٍ..

وَالدَّابَّةُ لَيْسَتْ هِيَ الشَّيءُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ قَبْلَ قِيَام السَّاعَةِ مِمَّا لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ، فَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ

سَوْطَ الرَّجُلِ يُكَلِّمُهُ، وَأَنَّ فَخِذَهُ يُكَلِّمُهُ بِمَا فَعَلَ أَهْلُهُ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، لَكِنَّ الْقُرْآنَ قَدْ نَصَّ عَلَيْهَا دُونَ غَيْرِهَا، فَلَكَأَنَّ النَّصَّ عَلَيْهَا يُمَثِّلُ حَالَةَ الانْتِكَاسَةِ الَّتِي سوف تبلغها الْإِنْسَانِيَّةُ آنَذَاك، وَإِلَّا فَإِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُبَلِّغَهُمْ عَنْ طَرِيقِ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ طَرِيقِ النَّاسِ، كَمَا بَلَّغَ مِنْ قَبْلُ عَنْ طَرِيقِ الْأَنْبِيَاءِ. . .، لَكِنَّ الْبَلَاغَ لِمِثْلِ هَؤُلَاءِ يَكُونُ بِالدَّابَةِ، نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ.

قَالَ الحافِظُ ابنُ كثيرٍ: «هَذِهِ الدَّابَّةُ تَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ، وَتَرْكِهِمْ أَوَامِرِ اللَّهِ، وَتَبْدِيلِهِمْ الدِّينَ الحَقَّ»[1].

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: خَرْقُ إِجْمَاعِ الْمُنْكَرِ ضَرُورَةٌ:

إِنَّ هَذِهِ الدَّابَّةَ تَخْرُجُ وَلَا تَنْزِلُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَخْرَجْنَا﴾ وَهِيَ قَرِيبَةٌ كَأَنَّهَا بَيْنَهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ! وَلَكِنْ: بِأَيِّ شَيْءٍ مُعَلَّقٌ نُزُولُ الدَّابَّةِ؟

مَا تَوْقِيتُ خُرُوجِهَا؟

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٦/ ٢١٠).

الجَوَابُ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾، وَفِي هَذَا الْجَوَابِ أَنَّهُمْ لَيْسُوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَأُولَئِكَ ﵃ فِي مَأْمَنٍ مِنْهَا؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وَمَا قَالَ لِمَنْ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَيْهِمْ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وَلِذَا يَبْقَى الْعَبْدُ مُشْفِقاً أَنْ يَكُونَ وَقْتُهُ هُوَ وَقْتُ نُزُولِ الدَّابَّةِ، وَكُلُّ أَمَانٍ مِنْ هَذَا إِنَّمَا هُوَ عَلَامَةٌ مِنْ عَلَامَاتِ خُرُوجِهَا.. فَالأَمَانُ سَبَبٌ لِلْخَوْفِ، وَغَفْلَةُ النَّاسِ عَنْهَا كَذَلِكَ..

رِسَالَةٌ تَقُولُ: أَكْثَرُ مَا يُخِيفُ هُوَ إِطْبَاقُ النَّاسِ عَلَى الْمُنْكَرِ.. وَإِجْمَاعُهُمْ عَلَى بَعْضِ الْمُنْكَرَاتِ وَالسُّكُوتُ عَلَيْهَا، كَتَحَوُّلِ الْمَسَاجِدِ إِلَى مَسَاجِدِ ضِرَارٍ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ، وَتَرَاضِيهِمْ عَلَى مُنْكَرَاتٍ عَامَّةٍ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ.. وَاللَّهِ، إِنَّ ذَلِكَ مُخِيفٌ أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ فِي الزَّمَنِ أو المكان الَّذِي ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ **الرِّسَالَةُ تَقُولُ**:

لَا بُدَّ أَنْ يَخْرِقَ الْعَبْدُ الْإِجْمَاعَ عَلَى مُنْكَرٍ حَتَّى لَوْ كَانَ فِي مَجْمَعٍ أَوْ مَسْجِدٍ أَوْ سُوقٍ أَوْ مَا إِلَى ذَلِكَ، وَلَا بُدَّ مِنْ إِشْهَادِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى إِنْكَارِهِ طَلَباً لإِعْذَارِهِ، وَطَلَباً لِلنَّجَاةِ لِلْأُمَّةِ بِهَذَا الْإِنْكَارِ، وَالْخُطُورَةُ أَنْ يَفْتَرِضَ كُلُّ وَاحِدٍ أَنْ غَيْرَهُ

سَوْفَ يُسْقِطُ الْوَاجِبَ الكِفَائِيَّ عَنْهُ؛ فَلَا يُنْكِرُ أَحَدٌ، فَتَبْقى الْأُمَّةُ بِغَيْرِ حِجَابٍ مِنَ اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَيَسْخَطُهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ . .

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

❊ ❊ ❊

القَرْيَةُ الأُمُّ

قَالَ تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

عَجِبْتُ لِتَعْظِيمِ رِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنْ بَيْنِ الرِّسَالَاتِ السَّابِقَةِ..

سُبْحَانَ اللَّهِ! أَرَأَيْتَ الْأُمَّ تَتَأَخَّرُ فِي الْوُجُودِ وَالْوِلَادَةِ عَنْ فُرُوعِهَا إِلَّا فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

سُبْحَانَ اللَّهِ! فَبِمَا أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْقَرْيَةُ الْأُمُّ، فَإِنَّ مَا حَوْلَها مِمَّا فِي زَمَانِهَا فُرُوعٌ وَأَبْنَاءٌ؛ كَيْفَ وَهِيَ الْأُمُّ حَتَّى لِمَنْ قَبْلَهَا..؟!

فَكَمَا أَنَّ سُنَّةَ الْكَوْنِ أَنْ تُوجَدَ الْأُمُّ قَبْلَ الْأَبْنَاءِ فَإِنَّ إِرْسَالَ الرِّسَالَةِ الْأُمِّ مُحَتَّمٌ تَحَتُّمَ وُجُودِ الْأُمِّ لِكُلِّ وَلَدٍ، وَلَعَلَّ هَذَا مِنْ قَبِيلِ قَوْلِهِ ﷺ: «**كُنْتُ نَبِيّاً وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ**»[١].

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» باب ما جاء في مبعث النبي ﷺ وصححه الألباني في «صحيح الجامع».

سُبْحَانَ اللَّهِ! فَكَمَا أَنَّ الرِّسَالَاتِ لَنْ تَتِمَّ وَلَا تُعْتَبَرُ بِغَيْرِ رِسَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّ السَّاعَةَ لَنْ تَقُومَ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ فِي أُمِّهَا رَسُولًا.

سُبْحَانَ اللَّهِ! فَكَمَا يَتَقَدَّمُ الْأَبْنَاءُ وَالْخَدَمُ وَغَيْرُهُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَظِيمِهِمْ مِنْ أَبٍ وَأُمٍّ وَغَيْرِهِمَا فِي الدُّخُولِ وَالْوُصُولِ إِلَى مَكَانٍ مُعَيَّنٍ فَإِنَّ تَأَخُّرَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا كَانَ إِلَّا فَضِيلةً، وَمَا كَانَ تَقَدُّمُ هَؤُلَاءِ إِلَّا تَهْيِئَةً وَتَوْطِئَةً وَخِدْمَةً.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ تَقُولُ: خَوْفُ السَّاعَةِ أَشَدُّ:

عَلى رَغْمِ كُلِّ مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ تَكْرِيمٍ وَتَشْرِيفٍ إِنَّمَا هُوَ لِمُنْتَسِبِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ الْأُمِّ بِهَذَا النَّبِيِّ الْإِمَامِ لِجَمِيعِ الْقُرَى، وَجَمِيعِ أَئِمَّتِهَا مُنْذُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِلَّا أَنَّ كَلِمَاتِ الْقُرْآنِ تُنْسِي الْمُتَدَبِّرَ كُلَّ مَا يَجُرُّهُ ذَاكَ التَّشْرِيفُ مِنْ عُلُوٍّ أَوِ اسْتِعْلَاءٍ إِلَى خَشْيَةٍ عَظِيمَةٍ، كَيْفَ وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى (الْهَلَاكَ) فِي عَقِبِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟! فَهُوَ - وَاللَّه - الْإِنْذَارُ الشَّدِيدُ، وَأَيُّ إِنْذَارٍ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُبَيِّنَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الهَلَاكَ الْأَخِيرَ لِكُلِّ الْقُرَى دُونَ اسْتِثْنَاءٍ هُوَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ

أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

رِسَالةٌ تَقُولُ: إِنَّ الْبِشَارَةَ بِهَذَا الرَّسُولِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ فِي الْآيَةِ إِنَّمَا هُوَ الْإِنْذَارُ الْأَخْطَرُ وَالْأَخِيرُ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ١، ٢].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ١ - ٥].

رِسَالةٌ تَقُولُ: إِنْ كَانَ الْأَقْوَامُ يَحْجُبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً عَنِ السَّاعَةِ فَلَيْسَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ حِجَابٌ يَا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ.. وَلَيْسَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْحِسَابِ حِجَابٌ.. وَأَنْتُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ مِنَ الْجَنَّةِ وَمِنَ النَّارِ، فَهَلْ يُسَاوَى اسْتِعْدَادُ الْأَوَّلِ بِالآخِرِ، وَالْأَقْرَبُ مَعَ الْأَبْعَدِ..؟!

عَلامَةُ التَّابُوتِ

عَجِبْتُ لِعَلَامَةِ التَّابُوتِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ؛ إِذْ هُمْ يُرِيدُونَ الْقِتَالَ ﴿يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. وَعَجِبْتُ لِاجْتِمَاعِ التَّابُوتِ وَالسَّكِينَةِ مَعاً؛ فَالتَّابُوتُ وَسِيلَةُ النَّقْلِ - الْمُعْتَادَةُ - إِلَى الْآخِرَةِ، وَالسَّكِينَةُ ضِدُّ الْخَوْفِ، وَأَيُّ مَخُوفٍ أَخْوَفُ مِنَ الْمَوْتِ، وَخُصُوصاً عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟!

وَعَجِبْتُ لِفَاعِلِيَّةِ التَّابُوتِ فِي تَحْقِيقِ النَّصْرِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَتَحْقِيقِ الْهَزِيمَةِ فِي نُفُوسِ أَهْلِ الدُّنْيَا!

فَمَنْ أَرَادَ النَّصْرَ بِعِزٍّ، وَالْحَيَاةَ فِي عُلُوٍّ، فَلْيَطْلُبِ الْمَوْتَ؛ كَمَا قَالَ الصِّدِّيقُ: «اطْلُبُوا الْمَوْتَ تُوهَبُ لَكُمُ الْحَيَاةُ»[1]، وَخِطَابُهُ لِلْفُرْسِ: «جِئْتُكُمْ بِقَوْمٍ يُحِبُّونَ

---

(١) انظر: «المجالسة وجواهر العلم» (٦٧١) بلفظ: «احرص على الموت توهب لك الحياة».

الْمَوْتَ كَمَا تُحِبُّونَ أَنْتُمُ الْحَيَاةَ»[(١)].

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: إِخْرَاجُ الدُّنْيَا مِنَ الْقَلْبِ:

أَلَا مَا أَعْظَمَ الرَّسَائِلَ الَّتِي حَمَلَهَا تَابُوتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ! وَمَا أَعْظَمَ تَوْقِيتَهُ!

تَجَسَّدَتِ السَّكِينَةُ لَهُمْ فِي التَّابُوتِ، وَسَكَنَ الْمَوْتُ الْمُخِيفُ فِي سَكِينَةِ التَّابُوتِ، فَأَيُّ خَوْفٍ يَبْقَى وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ هُمْ مَنْ طَلَبُوا الْمَلِكَ لِيُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّه... وَمَعَ هَذَا تَسَاقَطُوا فِي أَوَّلِ الطَّرِيقِ، وَعِنْدَ النَّهْرِ، وَعِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، وَلَمْ يَنْفَعْ مَعَهُمُ الْوَعْدُ بِالنَّصْرِ وَالجَنَّةِ.. وَإِنْ تَجَسَّدَ الْيَقِينُ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ فِي تَابُوتٍ، وَإِنْ حَلَّتِ السَّكِينَةُ فِي شَرَايِينِهِمْ وَفِي أَرْوَاحِهِمْ مِنْ هَذَا التَّابُوتِ..

رِسَالَةٌ تَقُولُ: هَنِيئاً لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِيَقِينٍ أَعْظَمَ مِنْ يَقِينِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي التَّابُوتِ الَّذِي يُشَاهِدُونَ أَثَرَهُ، وَيُحِسُّونَه فِي

(١) انظر: «الأموال» للقاسم بن سلّام في باب (أخذ الجزية من المجوس) وانظر أيضاً: «تاريخ الطبري» في «سير خالد إلى العراق وصلح الحيرة».

كُلِّ شَعْرَةٍ وَقَطْرَةٍ وَمِفْصَلٍ وَعُضْوٍ فِيهِمْ. . ، وَأَبْنَاءُ هَذِهِ الأُمَّةِ لَيْسَ عِنْدَهُمْ إِلَّا مَوْعُودُ اللَّهِ، وَكَفَى بِهِ مِنْ مَوْعُودٍ.

رِسَالَةٌ تَقُولُ: يَوْمَ تَغْلِبُ الدُّنْيَا عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَثْقُلُ عَلَيْهِمْ ذِكْرُ الْمَوْتِ، وَيَكْرَهُونَ رُؤْيَةَ التَّابُوتِ، مَعَ أَنَّ فِيهِ انْتِقَالُهِمْ إِلَى حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تأوي إِلَى عَرْشِ الرَّحْمَنِ!

آهٍ لِأُمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ حِينَ تَقْسُوا قُلُوبُهُمْ حَتَّى يَمْلَؤُونَ التَّابُوتَ بِحُطَام الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ. . ، فَمَا أَهْوَنَ الْعِبَادَ عَلَى اللَّه يَوْمَ أَنْ يَمْـــلأَ قُلُوبَهُمُ الْوَهَنُ، فَيَحُلُّ الْوَهَنُ بَدَلَ السَّكِينَةِ.

قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَداعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**»، قَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمِنْ قِلَّةٍ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**لا، بَلْ أَنْتُم كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَتَعْرِفُنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ**»، قَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»[١].

(١) رواه أبو داود في «سننه» باب في تداعي الأمم على الإسلام، وصححه الألباني في «الصحيحة» وغيرها.

فَلَا خَلَاصَ لِهَذِهِ الأُمَّةِ إِلَّا بِإِخْرَاجِ حُبِّ الدُّنْيَا حَتَّى تَحُلَّ السَّكِينَةُ إِذَا حَضَرَ الْمَوْتُ، وَعِنْدَهَا تُقْبِلُ الْحَيَاةُ تَحْتَ الْأَرْجُلِ مَهِينَةً كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»(١).

❋ ❋ ❋

---

(١) الترمذي في «سننه»، باب: من كانت الآخرة همه، وصححه الألباني في «صحيح وضعيف سنن الترمذي».

الْعَجَبُ مِنْ هَذَا الْبَيْعِ

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ عَرْضِ اللَّه عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بَيْعَ أَنْفُسِهِمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

أَمِ الْعَجَبُ مِنْ كَوْنِ اللَّه عَرَضَ الْأَمْرَ بِبَيْعٍ قَدْ مَضَى وَتَمَّ وَانْتَهَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾، أَمْ الْعَجَبُ مِنْ أَنَّهُ خَاطَبَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَكْثَرُ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يُخْلَقُوا وَقْتَ نُزُولِ هَذَا الْخِطَابِ.. فَهُوَ خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ كَافَّةً: ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

أَمِ الْعَجَبُ أَنَّ أَكْثَرَ النُّفُوسِ قَدْ بِيعَتْ قَبْلَ خَلْقِهَا، وَالأَمْوَالُ بِيعَتْ قَبْلَ قَبْضِهَا..؟!

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: بَيْعَتَك فَلَا تَنْكُثْ:

الْعَجَبُ أَنْ يُلْقِيَ الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِ الْبَعْضِ فَيَقُولُ: إِنَّهُ بَيْعٌ مِنْ طَرَفٍ وَاحِدٍ، وَيُوهِمُهُ وَيُزَيِّنُ لَهُ أَنَّهُ شخصياً مَا بَاعَ وَمَا اشْتَرَى، أَوْ يُهَيِّئُ لَهُ أَنَّهُ يَمْلِكُ الْعَوْدَةَ فِي بَيْعِهِ إِلَى بَيْعٍ آخَرَ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ..؟!

عَجَباً، كَأَنَّ الْعَبْدَ يَمْلِكُ شَيْئاً مَعَ رَبِّهِ وَخَالِقِهِ وَرَازِقِهِ وَمُحْيِيهِ وَمُمِيتِهِ؟!

بَلْ كَأَنَّ لَهُ رَبّاً سِوَاهُ يُمْكِنُ أَنْ يَحْصُلَ مِنْهُ عَلَى ثَمَنٍ أَحْسَنَ، كَمَا يَمْلِكُ الْبَائِعُ الْبَيْعَ إِلَى تَاجِرٍ آخَرَ، أَوْ كَأَنَّ الْبَيْعَ فِيهِ احْتِمَالُ الرِّبْحِ وَالْخَسَارَةِ؟!

أَوْ كَأَنَّ خِلَافَ هَذَا الْاخْتِيَارِ فِيهِ احْتِمالُ رِبْحٍ أَكْبَرُ؟!

أَوْ كَأَنَّ بَعْدَ الدُّنْيَا دَاراً غَيْرَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ..؟!

بَلْ، كَأَنَّ لَوْثَةَ النِّفَاقِ أَصَابَتِ الْبَعْضَ، فَظَنَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ دَخَلَ هَذَا الْمَيْدَانَ قُتِلَ مَعَ أَنَّ اللَّهَ قَدَّمَ ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾[1]

(١) قراءة نافع وأبي عمرو وابن كثير وابن عامر وعاصم والحسن وقتادة وأبي رجاء ويعقوب وأبي جعفر.

عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾، كَمَا فِي قِرَاءَةِ أَكْثَرِ السَّبعَة عَدَا حَمْزَةَ وَالْكِسَائِيِّ(١).

عَجَباً لمُؤْمِنٍ لَا يَفْهَمُ قِيمَةَ الضَّمَانِ قَبْلَ الْعَمَلِ؟

وَلَا يَفْهَمُ الْعَطَاءَ مِنَ اللَّه قَبْلَ الْأَخْذِ، بَلْ قَبْلَ الْخَلْقِ؟

عَجَباً لِمُؤْمِنٍ يَتَرَاخَى عَنْ إِتْمَام عَقْدٍ لَازِمٍ صَحِيحٍ بَعْدَمَا بَلَغَ وَعَقَلَ، وَهُوَ يَرَى أَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ قَبَضَ ثَمَنَهُ بِإِخْبَارِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ، وَقَدْ بَلَّغَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

* * *

(١) الثانية: قراءة حمزة والكسائي وخلف وعبد اللَّه ابن مسعود والنخعي وابن وثاب وطلحة والأعمش والمطوعي، انظر معجم القراءات (٣/ ٤٦٥) «عبد اللطيف الخطيب».

عَجَبُ الْغُرَابِ

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ بَعْثِ اللَّه - سُبْحَانَهُ - غُرَاباً، فَقَالَ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

فَهَلِ الْعَجَبُ مِنَ اجْتِمَاعِ اسْمِ الْغُرَابِ وَمَعْنَاهُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ عِنْدَ وَلَدَيْ آدَمَ فِي وَحْشَتِهِمْ وَوَحْدَتِهِمْ فِي الْأَرْضِ الْمُتَرَامِيَةِ الْخَالِيَةِ..

أَمِ الْعَجَبُ مِنْ إِهَانَةِ اللَّه الْقَاتِلَ إِذْ جَعَلَ مُعَلِّمَهُ هُوَ الغُرَابَ الَّذِي هُوَ مَضْرِبُ الْمَثَلِ فِي الْإِضَاعَةِ وَالْإِضْلَالِ... كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

إِذَا كَـانَ الـغُـرَابُ دَلِيـلَ قَـوْمٍ
يَـمُرُّ بِهِمْ عَلَى جِيَفِ الكِلَابِ[1]

---

(١) «السحر الحلال في الحكم والأمثال»، أحمد الهاشمي، حرف الباء.

وَقَالَ آخَرُ:

إِذَا كَـانَ الـغُـرَابُ دَلِيـلَ قَـوْمٍ
فَـمَـا وَصَـلُوا وَمَـا وَصَـلَ الـغُـرَابُ

أَمِ الْعَجَبُ مِنَ اجْتِمَاعِ سَوَادِ الْغُرَابِ، وَسَوَادِ الفِعْلِ، وَتَسْوِيدِ الصَّحِيفَةِ؟ أَمِ الْعَجَبُ مِنْ سُوءِ الطَّرِيقِ الَّذِي مَشَى فِيهِ هَذَا الأَخُ مَعَ سُوءِ مِشْيَةِ الغُرَابِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الاسْتِقَامَةَ..؟

لَا تَسْتَغْرِبَنَّ كُلَّ تِلْكَ الحِكَمِ وَغَيْرَهَا، فَهَذَا الغُرَابُ رَسُولٌ يَحْمِلُ رِسَالَةً لِهَذَا الْمَوْضُوعِ وِلِغَيْرِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَقَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ بِاسْمِهِ «غُرَاباً» ، وَإِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: رِسَالَةُ الْغُرَابِ الْبَاقِيَةُ:

هَكَذَا هِيَ الفِطْرَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ عِندَ وِلَادَتِهَا كَفِطْرَةِ الْوَلِيدِ عِنْدَ وِلَادَتِهِ لَمْ تُلَوَّثْ بِشَيْءٍ.. يَقِفُ الْأَخَوَانِ عَلَى طَرْفِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْأَوَّلِ لَمْ يَتَلَوَّثَا بِشَيْءٍ بَعْدُ، وَهُمَا يَعْلَمَانِ

مَوْقِعَهِمُا وَيَعْلَمَانِ عَاقِبَتَهمُا - فَيُصِرُّ أَحَدُهُمَا عَلَى تَلْوِيثِ الْفِطْرَةِ بِالدَّمِ، وَالْآخَرُ يُحَذِّرُهُ وَيُنْذِرُهُ، ثم يَنْذُرُ نَفْسَهُ لِلَّهِ غَيْرَ خَائِفٍ مُفْتَدِياً نَفْسَهُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ..

فَكَمْ نَذْكُرُ ابنَ آدمَ الْقَاتِلَ، وَنَنْسَى هَذَا الْمَقْتُولَ الَّذِي كَانَ مَوْقِفُهُ هُوَ الْانْسِحَابَ مِنْ سَاحَةِ الْإِثْمِ، وَعَدَمَ الْمُشَارَكَةِ حَتَّى بِالدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ الدِّفَاعَ رُبَّمَا كَانَ يَعْنِي قَتْلَ أَخِيهِ..

رِسَالةٌ تَقُولُ: كَمْ مِنْ رَسَائِلَ حَمَلَهَا الغُرَابُ:

سُبْحَانَ اللَّه! مِنْ تَصوُّرِ النَّدَمِ الَّذِي حَلَّ بِنَفْسِ القاتل لِقَتْلِهِ أَخِيهِ، وَالْخَطِيئَةِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا، وَيَرَى آثَارَهَا بينَ عَينَيْهِ، وَحَيْرَتِهِ فِيمَا يَصْنَعُ بِأَخِيهِ الْمَقْتُولِ..، فَلَمْ يَسْبِقْهَا أَحَدٌ..، عَرَفَ مَا حَمَلَهُ الْغُرَابُ مِنْ رَسَائِلَ فِي صَوْتِهِ، ومِشْيَتِهِ، وَلَوْنِهِ، وَطَعَامِهِ.

نَحْنُ لَا نَدْعُو لِلتَّشَاؤُم مِنَ الغُرَابِ - مَعَاذَ اللَّهِ - لَكِنْ لِلَّهِ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فِي إِرْسَالِ الْغُرَابِ، وَفِي تَسْمِيةِ الْغُرَابِ بِاسْمِهِ فِي الْقُرْآنِ..

لِلَّهِ حِكَمٌ حِينَ يُرْسِلُهُ آنَذَاكَ لِهَذَا الْغَرَضِ، وَيُسَمِّيهِ لِخَلْقِهِ، ثُمَّ يُبْقِيهِ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا إِلَى هَذَا الْيَوْمِ وَإِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، تَنَقَّلْ أَيْنَ شِئْتَ فِي الْعَالَمِ فَسَتَجِدُ الْغُرَابَ . .

فَأَيُّ رِسَالَةٍ بَاقِيَةٍ يَحْمِلُهَا الْغُرَابُ، وَأَيُّ حُجَّةٍ تَبْقَى تَطِيرُ فَوْقَ رُؤُوسِ الْعِبَادِ لِتَحْمِيَ رُؤُوسَ الْعِبَادِ. . ، فَهَلْ يَعْقِلُ ذَلِكَ الْعِبَادُ؟!

سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا مِنْ أَحَدٍ يَفْعَلُ الْحَرَامَ، وَيَقْتَحِمُ الْكَبَائِرَ إِلَّا يَظْهَرُ لَهُ سَوَادُ فِعْلِهِ أَوَّلَ مَا يَنْقَضِي سُوءُ فِعْلِهِ. . ، وَآخرونَ عَلَى العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ!

كَأَنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَا يَرَوْنَ الْغُرَابَ غُرَاباً، إنَّما يَرَوْنَهُ طَيْراً زَاهِياً! إِنَّهُمْ مَنْ يَتَلَذَّذُونَ بِالْحَرَامِ في أَثْنَاءِ فِعْلِهِ، وَيُصِرُّونَ عَلَى الْعَوْدَةِ لَهُ بَعْدَ فِعْلِهِ، وَيُجَاهِرُونَ وَيُفَاخِرُونَ، وَيَدْعُونَ غَيْرَهُمْ لِفِعْلِهِ، فَمَا أَدْرَكَهُ ابنُ آدَمَ الْقَاتِلُ الْأَوَّلُ مِنْ حَسْرَةٍ وَنَدَمٍ بَعْدَمَا وَقَعَ فِي جَرِيمَتِهِ لَمْ يُدْرِكْهُ هَؤْلاءِ، وَلَعَلَّ الْفَارِقَ هُوَ الفِطْرَةُ، فَالفِطْرَةُ كَانَتْ وَلِيدَةً عِنْدَ ذَاكَ، وَالْفِطْرَةُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ مُنْتَكِسَةٌ.

عَجِبتُ كَيفَ لَمْ يَعْجَزِ ابنُ آدَمَ الْأَوَّلُ عِنْ قَتْلِ أَخِيهِ لَكِنَّهُ قَـالَ: ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ [المائدة: ٣١].

إِنَّهُ لَم يَكُنْ عَاجِزاً إِطْلَاقاً عَنْ دَفْنِهِ، كَيفَ وَهُوَ الَّذِي لَمْ يُعْجِزْهُ قَتْلُهُ؟

لَكِنَّهُ الْعَجْزُ عَنْ الْفِكْرَةِ - فِكْرَةِ الدَّفْنِ - وَهَكَذَا تُغْلِقُ الْمَعْصِيَةُ فِي وَجْهِ الْعَاصِي كلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْأَفْكَارَ، فَهُوَ تَرَدٍّ بَعْدَ تَرَدٍّ، فَعَلَى رَغْمِ رَحَابَةِ الأَرْضِ الوَاسِعَةِ بَيْنَ يَدَيهِ فَإِنَّ هَذِهِ الفَكْرةَ لَمْ تَخْطُرْ لَهُ عَلَى بَالٍ؛ وَلِذَا عَجِبَ مِنْ الغُرَابِ حِينَ رَآهُ يَدْفِنُ آخَرَ، وَهَكَذَا فَإِنَّ العُصَاةَ عَاجِزُونَ عَنِ الدِّلَالَةِ عَلَى الْأَفْكَارِ الْمُنْقِذَةِ كَمَا قَالَ - سُبْحَانَهُ - لِحَبِيبِهِ ﷺ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨].

وَقَالَ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٠ - ١٣].

وَقَـالَ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

* * *

اخْتِيَارُ الْبَقَرَةِ

قالَ اللَّهُ تَعالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

عَجِبْتُ لِاخْتِيَارِ الْبَقَرَةِ مِنْ دُونِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتي يَحِلُّ ذَبْحُها، ثُمَّ أَدْرَكْتُ ما أَجابَ عَلَى عَجَبِي - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - فَقَضِيَّةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ قَضِيَّةَ سِرٍّ مَدْفُونٍ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ الوُصُولِ إِلَيْهِ، فَكانَ إِخْراجُ السِّرِّ بِالبَقَرَةِ، فَالبَقَرَةُ مِنَ الْبَقْرِ، وَهُوَ الْحَفْرُ وَالتَّنْقِيبُ، وَأَصْلُ الْبَقْرِ: الشَّقُّ وَالفَتْحُ وَالتَّوْسِعَةُ، وَقَوْلُهُمْ: أَبْقَرَها عَنْ جَنِينِها، أَيْ: شَقَّ بَطْنَها عَنْ وَلَدِها[١].

وَهَذَا الْبَقْرُ هُوَ عَلَى الضِّدِّ مِنْ مَنْهَجِيَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُوَ الدَّفْنُ، دَفْنُ الْأَسْرَارِ، وَدَفْنُ أَصْحَابِها، وَهَكَذَا جاءَ اسْمُ هَذِهِ السُّورَةِ بِهَذَا الاسْمِ (سُورَةُ الْبَقَرَةِ). وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ

(١) «لسان العرب» / بقر.

السُّورَةُ فَاضِحَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَمَا كَانَتِ التَّوْبَةُ فَاضِحَةَ الْمُنَافِقِينَ وَفَاتِحَةَ طَرِيقِ التَّوْبَةِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتُوبَ مِنْهُمْ.

وَكَذَا تَوَافَقَ اسْمُ الْبَقَرَةِ لِلْعِلْمِ الْمَخْزُونِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ كَمَا رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ فِيهَا أَلْفَ خَبَرٍ، وَأَلْفَ أَمْرٍ، وَأَلْفَ نَهْيٍ[1].

قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ: وَالتَّبَقُّرُ: التَّوَسُّعُ فِي الْعِلْمِ وَالمَالِ، وَكَانَ يُقَالُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «البَاقِرُ»؛ لِأَنَّهُ بَقَرَ الْعِلْمَ وَعَرَفَ أَصْلَهُ، وَاسْتَنْبَطَ فَرْعَهُ، وَتَبَقَّرَ فِي الْعِلْمِ[2].

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: تَفَجُّرُ الْحِكْمَةِ:

إِذَا كَانَ لِتَسْمِيَةِ الْغُرَابِ فِي الْقُرْآنِ بِاسْمِهِ وَذِكْرِ اسْمِ الْبَقَرَةِ، الْهُدْهُدِ، الْعِجْلِ، الدَّابَّةِ ... إلَخ إِذَا كَانَ لِكُلٍّ مِنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ، فَأَيُّ غَفْلَةٍ اعْتَجَنَتْ فِي أَذْهَانِنَا عَنْ حِكَمِ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ..؟!

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ١٥٥).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٠٢).

أَلَا مَا أَعْظَمَ تَنَاسُبَ الْبَقَرَةِ مَعَ بنِي إِسْرَائِيلَ! وَمَا أَعْظَمَ غَبَاءَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَنْ حُكْمِ الْأَنْبِياءِ، وَاتِّبَاعَهُم أَهْوَاءَهُمْ! وَأَهْوَاؤُهُم دَائِماً فِي مُخَالَفَةِ هَدْيِ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَلِذَا فَإِنَّهُم أَبْعَدُ مَا يَكُونُونَ عَنِ اسْتِخْرَاجِ الْعِبَرِ مِنْ أَقْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ.

فَسُبْحَانَ اللَّهِ! إِنَّ البَقَرَةَ عَلَى رَغْمِ ضَخَامَتِهَا لَا تُسْتَخْدَمُ إِلَّا لِلْحَرْثِ وَالزَّرْعِ وَاللَّحْمِ وَالضَرْعِ. . . !

واتِّبَاعُ أَذْنَابِ الْبَقَرِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَدِلَّةِ عَلَى حُبِّ الْحَيَاةِ وَإِيثَارِهَا عَلَى الآخِرَةِ، وَدُخُولِ الْوَهَنِ القُلُوبَ بِكَرَاهِيَةِ الْمَوْتِ، وَهَذَا أَكْبَرُ خَصَائِصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. . . فَكَانَ ذَبْحُ الْبَقَرةِ ذَبحاً لِدَلَالاتِهَا. . . نَقُولُ هَذَا مِنْ غَيْرِ أَنْ نَنْسِفَ الْمَقْصُودَ الأَسَاسَ وَهُوَ اكْتِشَافُ ذَاكَ القَاتِلِ. . . فَإِنَّه إِذَا انْتَفَعَ أُولَئِكَ الْحَاضِرُونَ بِذَبْحِ تِلْكَ الْبَقَرَةِ فِي تِلْكَ الْحَادِثَةِ وَتِلْكَ اللَّحْظَةِ. . . فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَفَكَّرَ الآخَرُونَ بِالْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ لِذَبْحِ الْبَقَرَةِ، وَمَا يغْنِيهِمْ مِنَ الْحِكْمَةِ.

سُبْحَانَ اللَّهِ! كَمَا كَشَفَتْ تِلْكَ الْبَقَرَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَظْهَرتِ الْقَاتِلَ. . . فَإِنَّ الْبَقَرَةَ الْحَمْرَاءَ الَّتِي كَمَا يَزْعُمُ

بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنَّهَا إِذَا خَرَجَتْ وَجَبَ هَدْمُ الْأَقْصَى فَوْراً. . . سَتَكُونُ نِهَايَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ - بِإِذْنِ اللَّهِ.

سُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ عَرَفَ السَّامِرِيُّ ضَلَالَ قَوْمِهِ بِالْبَقَرِ فَصَنَعَ لَهُمْ عِجْلًا - وَهُوَ ذَكَرُ الْبَقَرِ - وَاخْتَارَهُ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْحَيَوانَاتِ. . . وَضَلُّوا سَرِيعاً بِهَذَا الْعِجْلِ حَتَّى قَدَّمُوا ذَهَبَهُمْ لِصَنَاعَتِهِ مَعَ إِنَّهُمْ أَبْخَلُ النَّاسِ؟!

أَرَأَيْتَ مَا أَغْبَى بَنِي إِسْرَائِيلَ! وَمَا أَغْبَى مَنْ يُقَلِّدُهُمْ!

❊ ❊ ❊

الاغْتسَالُ بِالْعَذَابِ!

قَالَ اللَّهُ فِي عَذَابِ قَوْمِ لُوطٍ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣].

الْعَجَبُ كَيْفَ كَانَ عَذَابُ قَوْمٍ بِالرِّيْحِ، وَآخَرِينَ بِالصَّواعِقِ، وَآخَرِينَ بِالصَّيْحَةِ، وَهَؤُلَاءِ بِالمَطَرِ!

«مَطَرٌ» لِأَنَّهُمْ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - يَسْتَحِقُّونَ الاغْتِسَالَ وَلَكِنْ بِالْعَذَابِ، وَنَاسَبَ الْمَاءُ الْمَاءَ، فَبَدَلُ مَاءِ اللَّذَّةِ مَاءُ الْعَذَابِ..

العَجَبُ كَيفَ ابْتُدِئَتِ الآيةُ بِالتَّعْظِيمِ ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾، وَاخْتُتِمَتْ بِأَعْظِمِ التَّحْقِيرِ ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ﴾!

الْعَجَبُ كَيْفَ جَمَعَتِ الْآيَةُ مَا بَيْنَ ذِكْرِ مَنْ أَنْزَلَ الْعَذَابَ - سُبْحَانَهُ - وَبَيْنَ الْمُعَذَّبِينَ، وَنَوْعِ الْعَذَابِ وَوَصْفِهِ، وَإِبْلَاغِهِمُ الْإِنْذَارَ، وَبَيْنَ الْإِشَارَةِ التَّعْلِيلِيَّةِ وَبَيْنَ أَثَرِ الْعَذَابِ...، وَكُلُّ ذَلِكَ وَاضِحٌ، بَيْنَمَا تَعْلِيلَ الْعَذَابِ مغمور فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾..

العَجَبُ فِي الْمُفَاجَآتِ فِي هَذَا الْعَذَابِ. . فَمُفَاجَأَةٌ فِي زَمَانِهِ (الصَّبَاحِ)، وَمُفَاجَأَةٌ بِمَكَانِ مَجِيئِهِ (مِنَ السَّمَاءِ)، وَمُفَاجَأَةٌ بِطَرِيقَتِهِ (حِجَارَةٌ مِنْ نَارٍ)، وَمُفَاجَأَةٌ فِي شَكْلِهِ «مَطَراً». .

فَهُوَ عَذَابٌ غَيْرُ مَعْهُودٍ بِكُلِّ مَعْنَى الْكَلِمَةِ حَتَّى فِي صِيَاغَةِ كَلِمَاتِهِ الْمُنَزَّلَةِ.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: أَجْوَفُ النَّجَاسَاتِ:

مَنْ يَقْرَأُ وَصْفَ الْعَذَابِ وَيُدَقِّقُ فِيهِ يَرَى فِيهِ مِنَ التَّفَاصِيلِ مَا يُذْهِلُ الْعَقْلَ، فَكَيْفَ بِمَنْ عَاشَ ذَاكَ الصَّبَاحَ السَّيِّئَ بَعْدَمَا جَاءَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ؟!.

كَيْفَ صَنَعَتْ فِيهِمْ حِجَارَةُ النَّارِ الْمُخَصَّصَةُ؟ كُلُّ حَجَرٍ مِنْهَا بِاسْمِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَهِيَ لَا تُرِيدُ إِلَّا صَاحِبَهَا لِتَفْعَلَ بِهِ فِعْلَهَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَفْعَلُ - فَعَذَابُ اللَّهِ لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدٌ. . ، كَيْفَ تَعَذَّبَ أَحَدُهُمْ، وَتَلَوَّى مِنْ عَذَابٍ لَا طَاقَةَ لِكُلِّ الْبَشَرِ بِهِ لَوِ اجْتَمَعُوا، فَكَيفَ وَقَدِ اجْتَمَعَ ذَلِكَ الْعَذَابُ فِيهِ وَحْدَهُ. .

كَيفَ.. كَيفَ .. كَيفَ..؟

وَكُلُّ الْقَوْمِ كَذَلِكَ، وَلَا نَاصِرَ لَهُمْ، وَمَنْ يَنْصُرُ مَن بَأْسِ اللَّه إِذَا جَاءَ..؟!

وَلَوْ تَوَقَّفَ عَذَابُهُمْ بِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ لَهَانَ الْخَطْبُ.. لَكِنَّهُ الدُّخُولُ فِي عَذَابٍ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ هُوَ أَشَدُّ وَأَقْسَى، كَمَا قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - عَنْ قَوْمِ نُوحٍ: ﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ وَآلِ فِرْعَونَ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَقْوَامِ الْهَالِكَةِ، فَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَهُمْ فِي عَذَابٍ حَتَّى هَذَا الْيَوْمِ، وَلَا يَزَالُونَ مُسْتَمِرِّينَ فِي الْعَذَابِ، وَهَكَذَا إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، أَوْ كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِلَى قُبَيْلِ قِيَامِ السَّاعَةِ بِأَرْبَعِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ..

رِسَالةٌ تَقُولُ: أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - مَا حَكَى لَنَا - نَحْنُ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ - قِصَّتَهُمْ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ اسْتِهْتَارٍ بِالْعَذَابِ إِلَى لَحْظَةِ مَجِيءِ الْمَلَائِكَةِ إِلَى لَيْلَةِ الْعَذَابِ، وَهُمْ فِي إِصْرَارٍ وَاسْتِهْتَارٍ، وَفِعْلٍ مُتَوَاصِلٍ لِهَذِهِ الْفَاحِشَةِ، وَهُمْ يَرَونَ نَبِيَّهُمْ فِي إِشْفَاقٍ عَلَيْهِمْ وَحِمَايَةٍ لَهُمْ، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ أَعْمَاهُمُ الْأَجْوَفُ الْأَسْفَلُ - أَجْوَفُ

النَّجاسَاتِ - فَعَلَى هَذَا كَبِرَ صِغَارُهُمْ، وَشَاخَ شَبَابُهُمْ، وَالأَمْرُ كَمَا قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْمِهِ: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، فَمَاذَا أَغْنَى عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُسَوِّفِينَ تَأْخِيرُ تَوْبَتِهِمْ؟!

وَمَاذَا لَوْ تَمَكَّنَ مِنهُ الْمَوْتُ حِينَ تَمَكَّنَ هُوَ مِنْ هَذِهِ الْفَاحِشَةِ؟

عَجَباً، أَيَكُونُ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيَكُونُ تَابِعاً لِقَوْمِ لُوطٍ؟

أَيُنْذِرُهُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ثُمَّ يُصِرُّ؟

أَيُقْرِئُه اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - وَيُسْمِعُهُ عَذَابَ قَوْمِ لُوطٍ وَكَيْفَ كَانَ صَبَاحُهُمْ، ثُمَّ تُوهِمُهُ نَفْسُهُ أَنَّهُ فِي مَنْجىً مِنْ هَذَا الْعَذَابِ..؟

أَيُّ أَمَلٍ يَبْقَى إِذَا اسودَّ الصَّبَاحُ كما قال سبحانه: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾؟

فَمَا رَأْيُ هَؤُلاءِ الْمُصِرِّينَ عَلَى فَاحِشَةِ قَوْمِ لُوطٍ لَوِ افْتَرَضْنَا أَنْ عَذَّبَهُمُ اللَّهُ بِنَفْسِ عَذَابِ قَوْمِ لُوطٍ..، مَا

رَأْيُهُم لَوْ رَأَوْا الحِجَارَةَ الَّتِي قَرَأُوا عَنْهَا فِي الْقُرْآنِ عِنْدَ مَوْتِهِمْ تَنْهَالُ عَلَيْهِمْ كَالمَطَرِ وَمِنْ حَوْلَهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ؟

مَا رَأْيُهُمْ وَقَدْ جَاءَتْهُمُ الْعِبْرَةُ مِنْ أُولَئِكَ الْقَوْمِ فَلَمْ يَعْتَبِرُوا؟ وَجَاءَهُمُ التَّحْرِيمُ عَلَى لِسَانِ سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فَلَمْ يَنْقَطِعُوا وَلَمْ يَتُوبُوا؟ مَا رَأْيُهِمْ وَالنِّدَاءُ نَفْسُ النِّدَاءِ - وَإِنْ ذَهَبَ الْمُنَادِي - يَصِيحُ بِهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.. وَهَكَذا، فَإِنَّ بَنَاتِ الْأُمَّةِ بِالنِّسْبَةِ للنَّبِيِّ بَنَاتُهُ، وَهُو لهُنَّ أَكْثَرُ مِنَ الْآبَاءِ وَإِنْ كَانَ المَقْصُودُ وَالْأَسَاسُ فِي الْآيَةِ بَنَاتِهِ مِنْ صُلْبِهِ وهو ينص على أنه ﴿أَطْهَرُ لَكُمْۖ﴾ فَمَعَاذَ اللَّهَ أَنْ يَنْهَاهُمْ عَنْ فِعْلِ فَاحِشَتِهِمْ وَيَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الزِّنَى، وَهَلْ فِي الزِّنَى مِنْ طَهَارَةٍ؟ أَوْ يَدُلُّهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَيَقُولُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وَهَلْ فِي الزِّنَى مِنْ تَقْوَىٰ؟ بَلْ مِنْ إِيمَانٍ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[1].

---

(١) متفق عليه.

لِمَ لَا يَكُونُ نَفْسَ الْعَذَابِ وَأَشَدَّ، وَقَدْ خَالَفُوا اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - وَخَالَفُوا رَسُولَهُ مُحَمَّداً ﷺ، كَمَا خَالَفَ أُولَئِكَ نَبِيَّ اللَّهِ لُوطاً عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

وَلِمَ لَا يَكُونُ الْعَذَابَ نَفْسَهُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي خِتَامِ عَذَابِ قَوْمِ لُوطٍ: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾؟

رِسَالَةٌ تَقُولُ: سُبْحَانَ مَنْ يُحَوِّلُ الْمَطَرَ الَّذِي هُوَ رَحْمَةٌ عَلَى هَؤُلَاءِ فَيَكُونَ أَعْظَمَ نِقْمَةٍ...، الصُّورَةُ صُورَةُ مَطَرٍ، وَالْحَقِيقَةُ عَذَابٌ لَا يُطَاقُ...

أَلَا فَلْيَحْذَرْ مَنْ يَتَلَاعَبُ بِالنِّعَمِ أَنْ يُحَوِّلَهَا اللَّهُ إِلَى عَذَابٍ لَا يُحْتَمَلُ...، فَلَيْسَ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى العِبَادِ صِنْفاً وَاحِداً فَحَسْب.

❋ ❋ ❋

مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ

عَجِبْتُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

عَجِبْتُ كَيْفَ كَانَ السِّيَاقُ يَجْرِي لأَنْ يَقُولَ: «لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ أَثرِ الْقُرْآنِ»! لِأَنَّهُ قَالَ قَبْلَهَا: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ لَكِنَّهُ قَالَ: ﴿مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾، وَبِهَذَا فَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الَّذِي يُعَرِّفُ عَلَى اللَّهِ، وهُوَ الَّذِي يُثْمِرُ خَشْيَةَ اللَّه - سُبْحَانَهُ - لَا مِنْ خَشْيَةِ الْقُرْآنِ ذَاتِهِ، وَإِنْ كَانَ الْقُرْآنُ عَظِيماً لِأَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، **وَمِنْ هُنَا عَرَفْنَا** سِرَّ خَشْيَةِ الْعِبَادِ لِلَّهِ فِي رَمَضَانَ أَكْثَرَ: إِنَّهُ الإِكْثَارُ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَالاسْتِماعِ إِلَيْهِ.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: أَثَرُ الْعَظَمَةِ:

أَيُّ عَظَمَةٍ فِي هَذَا الْقُرْآنِ تُقَابِلُهَا أَيُّ قَسْوَةٍ لِابْنِ آدَمَ؟!

فَالْقُرْآنُ إِذَا أُنْزِلَ عَلَى جَبَلٍ ظَهَرَ عَلَى الْجَبَلِ الْأَثَرُ فَوْراً . . .

فَمَا لِبَعْضِ أَبْنَاءِ أُمَّةِ الْقُرْآنِ لَا يَظْهَرُ عَلَيْهِمْ أَثَرُ الْقُرْآنِ؟

إِذَا كَانَ الْأَثَرانِ اللَّذَانِ ذَكَرَهُمَا اللَّهُ عَنْ نُزُولِ الْقُرْآنِ عَلَى جَبَلٍ هُمَا الْخَشْيَةُ وَالتَّصَدُّعُ، وَمُقْتَضَاهُمَا تَفَتُّتُ الصَّخْرِ وَتَشَقُّقُ الْجَبَلِ وَتَصَدُّعُهُ، فَهَلْ يَقْوَى عَلَى الْغِلْظَةِ عَلَى الْبَشَرِ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟

إِنَّ أَبْعَدَ الْأَخْلَاقِ عَنْ صَاحِبِ الْقُرْآنِ خُلُقُ الْجَلَافَةِ وَالْغِلْظَةِ.

فَلَكَأَنَّ الرِّسَالَةَ هي: لَوْ أَرَدْتُمْ خَشْيَةَ اللَّهِ فَالْزَمُوا الْقُرْآنَ تَدَبُّراً. ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

وَإِذَا لَم تَخْشَوْا اللَّهَ تَعَالَى فَارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ مُحَاسِبِينَ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْخَشْيَةَ كَفِيلَةٌ أَنْ تُصَدِّعَ الْجَبَلَ..

فَلَا يَلُومَنَّ أَحَدٌ إِلَّا نَفْسَهُ إِذَا قَسَا قَلْبُهُ حِينَ هَجَرَ الْقُرْآنَ.

* * *

مُخَاطَبَةُ النَّبِيِّ ﷺ وتَخْصِيصُهُ

سُورَةُ طَهَ عَظِيمَةٌ . . . أَوَّلُهَا، أَوْسَطُهَا، آخِرُهَا . . . مَا بَيْنَ ذَلِكَ قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَظِيمَةٌ عَظِيمَةٌ . . .

وَلَكِنَّ الْعَجَبَ كَيْفَ مَرَرْتُ عَلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ مِرَاراً وَتَكْرَاراً وَلَمْ أَتَنَبَّهْ كَيْفَ ابْتَدَأَتِ الْقِصَّةُ، وَكَيْفَ انْتَهَتْ، وَكَيْفَ مَرَّتْ . .

لَقَدِ ابْتَدَأَتِ السُّورَةُ بِخِطَابِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾، وَثَنَّى - سُبْحَانَهُ - بِذِكْرِ قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لكنَّهُ - سُبْحَانَهُ - ابْتَدَأَ قِصَّةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِخِطَابٍ مُبَاشِرٍ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾. تَأَمَّلْ كَيْفَ يُحَدِّثُ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ؟! فَكَأَنَّهُ الْخِطَابُ الشَّخْصِيُّ الَّذِي لَا يَحْضُرُهُ غَيْرُهُمَا . . ، كَأَنَّهَا الْخَلْوَةُ - وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى - فَأَيُّ رَهْبَةٍ وَمَهَابَةٍ تَقَعُ فِي نَفْسِهِ ﷺ وَاللَّهُ يُحَدِّثُهُ بِذَلِكَ؟

وَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ - يَجْعَلُ حَدِيثَهُ ذَاكَ قُرْآناً يُتْلَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . .

ثُمَّ عَادَ - سُبْحَانَهُ - وَخاطَبَ حَبِيبَهُ مُباشَرَةً. . . خَاطَبَهُ - سُبْحَانَهُ - فِي نَفْسِ الْقِصَّةِ بَعْدَ ذَلِك، فَقَال: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]، ويقول له في آخر السورة: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَاۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ وَهَكَذَا تَكَرَّرَ الأَمْرُ فِي أَكْثَرَ مِنْ قِصَّةٍ وَأَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَفِي أَوَّلِ السُّورَةِ.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: فَلْنَتَطَلَّعْ إِلَى مَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:

فَلْنَنْتَبِهْ مِنْ جَدِيدٍ إِلَى مَقَامِ رَسُولِ اللَّه ﷺ فِي كِتَابِ اللَّه

الْمَجِيدِ، وَلْتَضَعْ قُلُوبُنَا أَسْمَاعَهَا عَلَى تِلْكَ الْمَوَاطِنِ، وَلْتَتَحَسَّسْ أَبْصَارُنَا حُرُوفَ خِطَابِ اللَّه لِرَسُولِهِ ﷺ، وَلْتُدْرِكْ قُلُوبُنَا سُمُوَّ مَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِندَ اللَّهِ تَعَالَى. .

وَهِيَ تَرَى مَا يَكَادُ يَخْطِفُ الْأَبْصَارَ. .

فَكَيْفَ إِذَا خَاطَبَهُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - مُبَاشَرةً، فَقَالَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١]، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:٨].

وَقَالَ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

وَقَالَ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

* * *

كَيْفَ أَصْبَحَتِ الصَّلَاةُ عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ؟

هَلِ الْعَجَبُ مِنْ صَلَاةِ اللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ إِذْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾، **أَمِ الْعَجَبُ** مِنَ اسْتِمْرَارِيَّةِ هَذِهِ الصَّلَاةِ لِفِعْلِ الْمُضَارِعِ ﴿يُصَلُّونَ﴾، **أَمِ الْعَجَبُ** مِنْ مُوَاصَلَةِ تَرْفِيعِ هَذِهِ الصَّلَاةِ لِدَرَجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَقَامَاتِهِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ تُصَلَّىٰ عَلَيْهِ، فَإِذَا كَانَتِ الصَّلَوَاتُ الأُولَى عَلَيْهِ مَغْفِرَةً لِذَنْبِهِ مَثَلاً، فَمَاذَا سَتَكُونُ الصَّلَاةُ الثَّانِيَةُ؟! وَإِذَا كَانَتِ الثَّانِيَةُ رِضىً عَلَيْهِ، فَمَاذَا سَتَكُونُ الثَّالِثَةُ؟! وَهَكَذَا عَلَى اسْتِمْرَارِيَّةِ فِعْلِ ﴿يُصَلُّونَ﴾، وَعَلَى اسْتِمْرَارِيَّةِ صَلَاةِ كُلِّ الْمُصَلِّينَ عَلَيْهِ إِلَى آخِرِ الْمُسْلِمِينَ..؟!

أَمِ الْعَجَبُ مِنْ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - هَذَا الْأَمْرَ عَنْهُ - سُبْحَانَهُ - وَعَنْ مَلَائِكَتِهِ، وَيَعْرِضَهُ عَلَى خَلْقِهِ لِيَدْخُلَ فِي هَذَا الْاشْتِرَاكِ مَنْ يَشَاءُ، ثُمَّ إِنَّ كَوْنَ ضَمِيرِ الصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ يُفِيدُ الاسْتِمْرَارِيَّةَ الْمُطْلَقَةَ ﴿يُصَلُّونَ عَلَى

ﭐلنَّبِيِّۚ﴾، فَإِنَّهُ كُلَّمَا كَثُرَتْ صَلَاتُكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثُرَتْ مُشَارَكَتُكَ لِرَبِّكَ - سُبْحَانَهُ - وَلِمَلائِكَتِهِ، وَفِي ذَلِكَ مَا يَعْجَزُ عَنْ حَصْرِ فَضْلِهِ بَشَرٌ.

أَمِ الْعَجَبُ مِنْ قَوْلِ اللَّه: ﴿ﭐللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ بِإِضَافَةِ الْمَلَائِكَةِ إِلَيْهِ - سُبْحَانَهُ - وَمَا قَالَ: (وَالمَلَائِكَةَ)، فَهُمْ مُوَحَّدُونَ فِي الصَّلَاةِ عَلَيْهِ ﷺ..

فَمَا أَعْظَمَ حُبَّكَ يَا رَبِّ لِرَسُولِكَ ﷺ!

فَاللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

رِسَالَةُ الْوَمْضَةِ: مُشَارَكَةٌ فِي الصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:

مَا الرِّسَالَةُ الَّتِي يُمْكِنُ أَن تَصِلَكَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ الآيَةَ: ﴿إِنَّ ﭐللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ﭐلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ﭐلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، إِلَّا أَنْ تَزْدَادَ اعْتِزَازاً بِهِ ﷺ، وَتَزْدَادَ تَشَرُّفاً بِالانْتِسَابِ إِلَيْهِ، وَتَزْدَادَ لَهُ حُبّاً وَفِدَاءً،

وَعَمَلِيّاً تَزْدَادَ صَلَاةً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَذَلِكَ لِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ، وَلِسَبَبٍ آخَرَ مُهِمٍّ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - يُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَالمَلائِكَةُ كَذَلِكَ مُشْتَرِكُونَ فِي الصَّلَاةِ عَلَيْهِ ﷺ، أَفَلا يُحِبُّ الْعَبْدُ أَنْ يُصَلِّي عَلَيْهِ مَعَ اللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ . .

حَتَّى وَإِنْ كَانَ مَعْنَى صَلَاةِ اللَّهِ تَعَالَى هِيَ دَوَامُ الرِّضْوَانِ عَلَيْهِ ﷺ.

عَجِبْتُ لِصَلَاةِ مُتَأَخِّرِي هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَلْسِنَتِهِمْ، لَكِنَّهُمْ بِأَفْعَالِهِمْ لَا يَذْكُرُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي آلِهِ بِشَيْءٍ مِنَ التَّمْيِيزِ وَالتَّخْصِيصِ!

عَجِبْتُ كَيْفَ يَقَعُ فِي نُفُوسِ الكَثِيرِينَ نُفْرَةٌ مِنْ تَمْيِيزِ آلِهِ ﷺ بِمَزَايَا شُرِعَتْ لَهُمْ بِحُجَّةِ المُسَاوَاةِ، بَيْنَما هُمْ يميزون آل بيته بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ فِي الصَّلَاةِ، وَفِي غَيْرِ الصَّلَاةِ، وَاللَّهُ يَجْعَلُ تَمْيِيزَهُمْ حِفْظاً لِحَقِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا هُوَ فِي تَفْسِيرِ مَنْ فَسَّرَ ذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٢٣].

أَلَا مَا أَفْقَهَ وَأَعْظَمَ عَمَلَ الْفَارُوقِ بِمُقْتَضَى إِيمَانِهِ، فَكَمَا

قَدَّمَ الفاروق رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي حُبِّهِ عَلَى نَفْسِهِ، فَقَدْ قَدَّمَ أَبْنَاءَهُ عَلَى أَبْنَائِهِ فِي عَطَائِهِ . . .

عَجِبْتُ لِحُبِّ الأُمَّةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعَجِبْتُ لِتَهَاوُنِهَا فِي آخِرِ وَصَايَاهُ: «كِتَابَ اللَّهِ وَعِتْرَتِي آلَ بَيْتِي»[١].

أَتَرَى الأُمَّةَ لَوْ كَانَتْ قَائِمَةً بِحَقِّ آلِ بَيْتِهِ لَمَا دَخَلَ الأَفَّاكُونَ عَلَى الأُمَّةِ مِنْ بَوَّابَةِ حُبِّ آلِ بَيْتِهِ ﷺ؟

أَتَرَى النَّبِيَّ ﷺ أَوْصَى بِفَرْعٍ مَقْطُوعٍ أَمْ بِأَعْظَمِ شَجَرَةٍ بَشَرِيَّةٍ بَاقِيَةٍ وَمُنْتَشِرَةٍ فِي الآفَاقِ تَصْدِيْقاً لِمَفْهُومِ المُخَالَفَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾؟ وَلازم قَوْلِهِ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، وَمِنْ رَفْعِ الذِّكْرِ بَقَاءُ مَنْ يَحْمِلُ اسْمَهُ مِنْ نَسَبِهِ وَهَؤُلَاءِ هُمْ آلُهُ ﷺ.

فَاللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي العَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

وَمْضَةُ الْخَاتِمَةِ
وَبِدَايَةُ إِيمَاضِ رِسَالَتِهَا

مَا هِيَ إِلَّا وَمْضَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ. .

وَإِنِّي وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَأَسْتَكْثِرُ عَلَى نَفْسِي نِسْبَةَ هَذِهِ الْوَمْضَةِ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُ الْأَمَلُ بِاللَّه وَحْدَهُ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِهِ، لَقَدْ كَانَتْ وَمْضَةً بِالنِّسْبَةِ لمَا يَحْمِلُ صَاحِبُهَا مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهَالَاتِ وَالذُّنُوبِ. .، مُؤَمِّلاً أَنْ تَنْفَعَ مَنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ فِي ذُنُوبِهِ وَجَهَالَاتِهِ، وَأَنْ تَنْفَعَ الْأُمَّةَ الْغَارِقَةَ فِي الذُّنُوبِ وَالْجَهَالَاتِ لِتُعِيدَ قِرَاءَتَها لِكِتَابِ اللَّه، كَمَا تَنْفَعُ أَهْلَ الْقُرْآنِ وَأَصْحَابَ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ وَالْجَمْعِيَّةِ عَلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّهَا مِنْ جِنْسِ حَالِهِمْ، وَبِلِسَانِهِمْ تَنْطِقُ. .، وَرُبَّمَا أَضَافَتْ لِلْبَعْضِ شَيْئاً. .

وَمْضَةٌ أَنَارَتْ فَأَشَارَتْ لأَهْلِ الْقُرْآنِ إِشَارَةً تَقُولُ: جَزَى اللَّهُ خَيْراً كُلَّ مَنْ نَبَّهَ عَلَى عَظَمَةِ الْقُرْآنِ، وَوَصَفَهَا، وَبَيَّنَ مَا بَيَّنَ مِنْهَا. . .، لَكِنَّ هَذِهِ الْوَمْضَةَ تُرِيكَ الْعَظَمَةَ شَاخِصَةً أَمَامَ عَيْنَيْك فِي شَوَاهِدَ جَدِيدَةٍ عَجِيبَةٍ، مُمَثَّلَةً فِي

بَعْضِ كَلِمَاتِ اللَّه الْعَلِيِّ الْحَكِيمِ. . فَبِهَذِهِ الْوَمْضَةِ يَتَحَوَّلُ الْوَصْفُ الْعَامُّ إِلَى حَقِيقَةٍ مَاثِلَةٍ أَمَامَ الْعِيَانِ، وَيَتَحَوَّلُ - فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ - عِلْمُ الْيَقِينِ إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ - بِإِذْنِ اللَّه تَعَالَى. وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَتَحَوَّلُ الْقَارِئُ - بِإِذْنِ اللَّهِ - مِنْ مُعْجَبٍ إِلَى مُمَارِسٍ، وَمِنْ وَاصِفٍ إِلَى مُعَايِشٍ. .

وَأَخِيراً، فَإِنَّهَا وَمْضَةٌ تُنْبِئُ عَنْ فَيْضِ هَذَا الْكِتَابِ الْمَجِيدِ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِالْجَدِيدِ، وَإِنْ سَارَ النَّاسُ عَلَى التَّكْرارِ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ، وَرُبَّمَا تُنْبِئُ عَنْ مَنْهَجٍ جَدِيدٍ فِي التَّفْسِيرِ لَعَلَّ اسْمَهُ سَيَكُونُ «البَيَانُ الجَدِيدُ فِي جَدِيدِ مَعَانِي القُرْآنِ المَجِيدِ» وَمَا هَذِهِ الْوَرَقَاتُ إِلَّا إشارَةٌ لِذَلِكَ التَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ، وَالَّذِي مَا أُخْرِجَتْ هَذِهِ الْوَرَقَاتُ إِلَّا بِشَارَةً بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَدْ تَمَّتْ مِنْهُ سُورَةُ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وَالحَمْدُ للَّه، وَالَّتِي كَانَ مَنْهَجِي فِيهَا أَنْ أَذْكُرَ مَا قَالَهُ العُلَمَاءُ فِي الكَلِمَةِ الْقُرَآنِيةِ أَوَّلًا دُونَ تَكْرَارٍ، بَاحِثاً في مِئَاتِ التَّفَاسِيرِ، ذَاكِراً أَوَّلَ مَرَّةٍ تَفْسِيرَ العُلَمَاءِ لِكُلِّ كَلِمَةٍ، نَاسِباً لِكُلِّ عَالم قَوْلَهُ، مِنْ غَيْرِ تَكْرَارٍ، فَالْقَوْلُ قَوْلُ أَوَّلِ عَالم وَفَاةً، وَهَذَا عَمَلٌ جَدِيدٌ فِي التَّفْسِيرِ يَجْمَعُ كُلَّ مَا كُتِبَ فِي تَفْسِيرِ كُلِّ كَلِمَةٍ وَكُلِّ آيَةٍ مِنْ غَيْرِ تِكْرَارٍ، فاللَّهُمَّ وَفِّقْ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِمَا يَسَّرَ اللَّهُ مِنَ الْجَدِيدِ مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَلَا

غَيْرِهَا مِنْ قَبْلُ عِنْدَ تَفْسِيرِ العُلَمَاءِ لِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْ كَلِمَاتِهَا. وَيَكْفِي أَنْ يَعْرِفَ الْقَارِئُ أَنَّ تَفْسِيرَ هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ ذَاتِ الصَّفْحَةِ الْوَاحِدَةِ الْكَرِيمَةِ زَادَ عَلَى أَرْبَعِمائَةِ صَفْحَةٍ، وَإِنَّ نِسْبَةَ الْجَدِيدِ تَزِيدُ أَضْعَافاً عَنْ مَجْمُوعِ مَا ذُكِرَ فِيهَا مِنْ قَبْلُ.

لَقَدْ كَتَبْتُ ذَلِكَ التَّفْسِيرَ وَطَوَيْتُهُ مُتَهَيِّباً مِنْ إِخْرَاجِهِ..، وَرَاجَعْتُهُ مِرَاراً وَتَكْرَاراً، مُنْفَرِداً وَفِي مَجْمُوعَةٍ..، ثُمَّ أَبْقَيْتُهُ وَلَا أَزَالُ إِلَى هَذِهِ اللَّحْظَةِ وَأَنَا - وَاللَّهِ - لَمْ أُقَرِّرْ بَعْدُ إِخْرَاجَهُ، سَائِلاً اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - إِنْ كَانَ فِيهِ الْخَيْرُ النَّافِعُ وَالْجَدِيدُ. أَنْ يُعَجِّلَ بِإِخْرَاجِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ ذَلِكَ وَكَانَ إِرْثُهُ عَلَيَّ وِزْراً فَاللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ إِلَى إِخْرَاجِهِ سَبِيلاً.

لَكِنَّ فِكْرَةَ هَذِهِ الْوَمْضَةِ جَرَّأَتْنِي أَكْثَرَ عَلَى التَّفْكِيرِ فِي إِخْرَاجِهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ..

فَاللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنَّا..

واللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى إِتْمَام تَفْسِيرِ كِتَابِكَ الْكَرِيم كُلِّهِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، وَتَقَبَّلْهُ مِنِّي، وَاكْتُبْ لَهُ القَبُولَ الحَسَنَ.

الفهرس